



الفائز بالجائزة الثالثة في التأليف



الإمام الرضا عليه السلام

بين نصوص الرسالة
وسلطة الرأي والقبيلة

عادل عبد الرحمن البدرى



الإمام الرضا عليه السلام

بين نصوص الرسالة وسلطة الرأي والقبيلة



تأليف

عادل عبدالرحمن البدرى

بدري، عادل عبدالرحمن، ١٩٥٦ - م.
الإمام الرضا(ع) بين نصوص الرسالة و سلطة الرأي والقبيلة / عادل عبدالرحمن البدري. - مشهد:
مجمع البحوث الإسلامية، ١٤٣٠ق. = ١٣٨٨ش.

ISBN 978-964-971-326-7

٢٧٠ص.
فهرست نویسی بر اساس اطلاعات فیبا.

عربی
کتابنامه: ص. ٢١٥.

١. علي بن موسي(ع)، امام هشتم، ٩١٥٣ - ٢٠٣ق. - ولایتمهدی. ٢. علي بن موسي(ع)، امام هشتم،
٩١٥٣ - ٢٠٣ق. - سیاست و حکومت. الف. بنیاد پژوهشهای اسلامی. ب. عنوان.

٩٠٩/٠٩٧٦٧١

DS ٣٥ / ٦٣ / ٣٧ الف ١٣٨٨

١٨٥٥٨١٧

کتابخانه ملی ایران



الامام الرضا(ع)

بين نصوص الرسالة و سلطة الرأي والقبيلة

عادل عبدالرحمن البدري

الطبعة الاولى: ١٤٣١ق / ١٣٨٩ش

١٥٠٠ نسخة - وزيري/ الثمن: ٣٦٥٠٠ ريال

الطبعة: مؤسسة الطبع والنشر التابعة للأستانة الرضوية المقدسة

مجمع البحوث الإسلامية، ص.ب ٣٦٦-٩١٧٣٥

هاتف و فاكس وحدة المبيعات في مجمع البحوث الإسلامية: ٢٢٣٠٨٠٣

معارض بيع كتب مجمع البحوث الإسلامية، (مشهد) ٢٢٣٣٩٢٣، (قم) ٧٧٣٣٠٢٩

شركة بهنشر، (مشهد) الهاتف ٧-٨٥١١١٣٦، الفاكس ٨٥١٥٥٦٠

www.islamic-rf.ir

E-mail: info@islamic-rf.ir

حقوق الطبع محفوظة للناسر

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله الطاهرين...

كانت القبيلة في التاريخ القديم والوسيط وحتى في تاريخ العصور الحديثة بمثابة وحدة سياسية واجتماعية تعبّر بالضرورة عن كيان أمة ودولة، حسب مقاييس تلك الأزمنة، وكانت تحكم هذه الوحدة، و ما زالت إلى حدّ ما؛ رابطة الدم والمصالح المشتركة، فقيام مجموعة أفراد بالتعايش ضمن بقعة جغرافية محدودة يعني قيام دولة و أمة في آن واحد ضمن سياقها التاريخي، وما كان لهم من مجلس قيادة أو رئيس يتعارفون عنده على تمشية القواعد والعلاقات و الروابط بينهم بمثابة الحكومة أو الدولة أو القانون الذي ينظّم أمورهم، و كانت البطون و الأفخاذ التي عرفت في تاريخ العرب بمثابة رئيس أو قائد يسمّى: زعيم

القبيلة، أو شيخها، أو رئيسها، على التقريب والمثابة.

وعرف عرب الجزيرة العربية كرئيس و زعيم قوي له سلطة الملوك و هيبتهم، أشار له المؤرخون و أذعنوا له في التاريخ السياسي للعرب، هو قصي بن كلاب جد النبي ﷺ. و يعدّ هذا أول رئيس في قريش استطاع أن يثبّت الأمن في مكة و ينظّم شؤونها، وعمل على أن يثبّت الملك في عقبه، و قسّم الوظائف و الواجبات على أولاده. ولما ظهر الإسلام كانت أمور مكة في يد قريش، و لها وحدها حقّ الإشراف على المدينة حتّى عرف سكّانها بآل قصي. و كان أحدهم إذا استغاث أو استنجد بأحد صاح: يا قصي^١ و ذلك كناية عن رئيسهم التاريخي قصي بن كلاب جامع قريش و باني مكة و مدبّر شؤونها، و باعث نهضتها في بلاد العرب جميعا. بحيث صارت قريش قبلة الملايين من البشر. و أجرى الخير و البركة على قبيلة قريش بما حقّق أولاده من منافع و مكاسب كبيرة لهم. و أكبر مكسب حقّقه قريش هو عقد الإيلاف الذي أشار له القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِلَافٍ قُرَيْشٍ * إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾^٢ و الذي كان ببركة هاشم جدّ النبي ﷺ حيث خرجت قريش بتجارته خارج شبه الجزيرة العربية، و كان هذا العقد بعد أن قامت قريش بتوطيد علاقاتها بالقبائل العربية الضاربة على جنبات الطرق التجارية لتضمن أمن مكة الاقتصادي و مرور القوافل التجارية بسلام حيث تعقد الأسواق التجارية، و كان من مصلحة القبائل أن توثّق علاقاتها بقريش إذ أنّ مصالحها مرتبطة بمصالح مكة، فرخاء مكة يعني، رخاءها و خسارة مكة

^١ قصي الحسين، موسوعة الحضارة العربية، العصر الجاهلي ص ٢٨٦.

^٢ قريش ١-٤.

هي خسارتها، فضلاً عن أنّها ترتاد مكّة لأغراض الحجّ و التجارة^١ و الإيلاف - حسب ما تروي المصادر الإسلاميّة - لم يقم في رأي محمّد بن حبيب حتّى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام فنزل بقيصر.

و اسم هاشم يومئذ عمرو، فكان يذبح كلّ يوم شاة فيصنع جفنة ثريد و يدعو من حوله فيأكلون، و كان هاشم فيما يزعمون أحسن الناس عصباً و أجمله. فذكر لقيصر و قيل: ههنا رجل من قريش يهشم الخبز ثمّ يصبّ عليه المرق و يفرغ عليه اللحم، و إنّما كانت الأعاجم تضع المرق في الصّحاف ثمّ تأتدم الخبز فلذلك سمّي عمرو: هاشماً. و بلغ ذلك قيصر فدعا به فلمّا رآه و كلّمه أعجب به، و كان يرسل إليه فيدخل عليه، فلمّا رأى مكانه منه قال له هاشم: أيّها الملك، إنّ لي قوماً و هم تجّار العرب، فإن رأيت أن تكتب لهم كتاباً تؤمّنهم و تؤمّن تجارتهم فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز و ثيابه فيكونوا يبيعونه عندكم، فهو أرخص عليكم، فكتب له كتاباً بأمان من أتى منهم، فأقبل هاشم بذلك الكتاب فجعل كلّما مرّ بحيّ من العرب بطريق الشام أخذ من أشرفهم إيلافاً.

و الإيلاف أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف، و إنّما هو أمان الناس، و على أن قريشاً تحمل لهم بضائع فيكفونهم حملاتها، و يردّون إليهم رأس مالهم و ربّحهم، فأخذ هاشم الإيلاف ممّن بينه و بين الشام حتّى قدم مكّة، فأتاها بأعظم شيء أتوا به، فخرجوا بتجارة عظيمة، و خرج هاشم بجوزهم و يوفّيهم إيلافهم الذي أخذ لهم من العرب حتّى ورد بهم الشام و أحلّهم قراها، فمات في ذلك السفر بغزاة من الشام و

^١ خضير عبّاس الجميلي، قريش و أثرها في الحياة العربيّة قبل الإسلام، المجمع العلمي العراقي ص ٧٣.

حلّ إيلاف المشكلات التي لم تستطع أحلاف مكة القبلية أن تحلّها على طريق تجارة قريش^١.

و هذا المجد و الشرف الذي تحقّق لقريش من قصي و هاشم كان ينبغي أن تعرف قدره بطون قريش، و كان ينبغي لهم تقديم فروض الولاء و آيات الشكر لحفيد قصي و هاشم: محمد المصطفى ﷺ الذي جاء منقذاً و هادياً لهم و لغيرهم، إلا أنّ الغرور والصلف صيّر بطون قريش رمزاً للتأمر و الفتن على هذا الشخص العظيم الذي يتّصل معهم برحم و قربى و شيجة؛ بل سرت مكابرتهم و سطوتهم الجاهلية إلى أعقابهم ليتوارثوا الكيد و التأمر على ذريّة هذا النبيّ المبارك. و ظهرت هذه المصائب جرّاء العصبية الجاهلية و العنجهية من عهده ﷺ إلى قيام الدولتين الأموية و العباسية، و ما قامت هاتان الدولتان إلا باسمه و بذريعته و بحجة الانتساب و الانتماء القرشي، والذي هو و أولاده يشكّلون عماد النسب القرشي و أصله. فلقيت سلالته و عترته عليه السلام صنوف العذاب و التنكيل على يد سلاطين قريش و حكامها، كلاً حسب عصره، كما لقي جدّهم ﷺ نفسه ذلك منهم.

ويروي نصر بن مزاحم المنقري: أنّ الإمام علي عليه السلام قد عرض بعصبية قريش الجاهلية و سفّه طغاتها حين كتب إلى معاوية بن أبي سفيان يذكره بأصل العداوة و العنجهية قائلاً له: «فأراد قوماً قتل نبيّنا، و اجتياح أصلنا، و همّوا بنا الهموم، و فعلوا بنا الأفاعيل و منعونا الميرة، و أمسكوا عنّا العذب، و أحلسونا الخوف، و جعلوا علينا الأرصاد و العيون، واضطرونا إلى جبل وعر، و أوقدوا لنا نار الحرب، و كتبوا علينا بينهم

١- فكتور سخاب، إيلاف قريش، رحلة الشتاء و الصيف، المركز الثقافي العربي بيروت ص ٢٠٥، ٣١٩.

كتاباً: لا يواكلوننا ولا يشاربوننا، ولا يناكحوننا ولا يبايعوننا، ولا نأمن فيهم حتّى ندفع إليهم محمدًا ﷺ فيقتلوه ويمثلوا به، فلم نكن نأمن فيهم إلا من موسم إلى موسم، فعزم الله لنا على منعه والذبّ عن حوزته والرّمياً من وراء جمرته، والقيام بأسياقنا دونه في ساعات الخوف بالليل والنهار، فمؤمّننا يرجو بذلك الثواب، وكافرنا يحامي به عن الأصل وقال ﷺ: «وفي حديث له مع يهودي: «يا أخا اليهود، فإنّ قريشاً والعرب تجمّعت و عقدت بينها عقداً وميثاقاً ألا ترجع من وجوها حتّى تقتل رسول الله ﷺ وتقتلنا معه معاشر بني عبد المطلب».

والحقيقة أنّ كلّ بطون قريش كانت مجمعة على أنّ النبوة الهاشمية قد هزّت هزّاً عنيفاً الصيغة السياسية التي كانت قائمة على اقتسام مناصب الشرف بين القبائل المكيّة، وكلّ البطون رفضت هذه النبوة الهاشمية باستثناء بني المطلب ابن عبد مناف حيث وقفوا مع الهاشميين، لكن أكثر البطون رفضاً واندفاعاً لوقف الزحف الهاشمي والحيلولة بين الهاشميين للملك والنبوة هم بنو أميّة، وذلك لعدة أسباب: أولها - ماضٍ طويل من الشحناء والعداوة والحسد لبني هاشم حتّى قبل الإسلام. ثانيها - بسبب النبوة الهاشمية فقد الأمويّون القيادة. ثالثها - الهاشميون قتلوا سادات بني أميّة، فعتبة والوليد وشيبة؛ قتلهم حمزة وعليّ وعبيد الله، فالأمويّون لا يكرهون الهاشميين فحسب، بل يحقدون عليهم. و هند أم معاوية وزوجة أبي سفيان عكست مقدار هذا الحقد، فهي لم تكتف بقتل حمزة، إنّما مثلت بجثمانه الطاهر. ولكن مع انتصار النبوة و شمول نور الإسلام وتأخّر الأمويّين عن دخوله، و ذكريات باعهم الطويلة في

^١- وقعة صفّين، بتحقيق الدكتور عبد السلام محمد هارون ص ٨٩، بحار الأنوار ٣٣: ١١١.

^٢- الاختصاص للشيخ المفيد ص ١٦٦.

محاربتة فإنه يتعذر عليهم الجهر و المناداة علناً بمنع الهاشميين في أن يجمعوا مع النبوة المُلْك^١ فكان تاريخ المسلمين مؤامرات و انقلابات و دموع و دماء سالت بتحريك قبلي^٢ ليمنع الخطّ الرسالي الذي كان يقوده آل البيت عليه السلام من أن يمسك زمام الأمور.

و من هنا نشأت في تاريخ المسلمين حركتان: الحركة الأولى: و هي حركة مبدئية تضع الرسالة و أهدافها غاية و مبتغى لها، و قد مثلها أهل البيت عليه السلام و من أحبهم و وقف معهم في هذا الدرب. و الثانية: و هي حركة سياسية ترنو إلى السيطرة على نظام الحكم و التصرف بأمر المسلمين تحت مسميات مختلفة: الخلافة، أو الحكومة، أو السلطة. و هذه الحركة تعتبر الحكومة أو السلطة هي غاية لذاتها، فسواء كانت هذه الحركة اتخذت اسم الدين أو القبيلة أو أي اسم آخر، فهي لا تعدو بحركتها غير السلطة و التشبث بها لتحقيق أغراضها و امتطاء الشهوات و تحقيق المآرب، و كانت هذه الحركة في قوتها عند مقتل عثمان بن عفان ثالث الخلفاء، و مثل أعلامها : معاوية بن أبي سفيان، و مروان بن الحكم، و عبدالله بن كرز و جمع من قبيلهم، و من أحبهم و اعتقد بهم و اندفع معهم في هذا الاتجاه، أو حالهم و انتظر قيام دولتهم باعتبارها كتلة قرشية أموية، أما طلحة و الزبير و من وقف معهما فمثلاً كتلة قرشية أخرى مستقلة عن الأمويين لها رؤيتها الخاصة، و أما كتلة الثائرين على عثمان بن عفان فهي كتلة سياسية خارجة عن التأثير القرشي أو الحزب القرشي، ولكن تحريكات الكتل القرشية كانت مؤثرة في دفع هذه الكتلة و زجها في معركة فاصلة مع عثمان لتحسم الأمر لحسابها، أو أن الأمر لا يخرج عن إرادتها، أو تمهّد الطريق لها على

١- المحامي أحمد حسين يعقوب، نظرية عدالة الصحابة ص ٨٧.

الأقل. و لم يكن الثائرون على عثمان سوى دُمي تحرّكها القوى و الكتل القرشيّة. و قد كانت الكتلة أو الكتل القرشيّة تلعب دوراً كبيراً في مجريات الأحداث قبل مقتل عثمان، بل من اليوم الأوّل لرحيل النبي ﷺ. و على العموم كانت الجزيرة العربيّة مليئة بقبائل عربيّة لها مجدها وعزّها و لها هيمنتها في أرض الجزيرة طبقاً لمساحة و حجم هذه القبائل، و لذا لم يكن مستساعاً أو مقبولاً لدى هذه القبائل أن تبتلعها الكتلة القرشيّة، و هذا الكمّ الهائل من القبائل كان لها شأن. و هذه القبائل قد «استجاب أكثرها لدعوة الله عزّ وجلّ طوعاً و تصديقاً بالنبوة الخاتمة، و هي قد وُطّنت نفسها على الالتزام بقيم الإسلام الحنيف و تشريعاته دون أن تجد حرجاً ممّا يقضي الله و رسوله ﷺ في مختلف شؤون الحياة، و هي إنّما سلّمت لرسول الله ﷺ لا لكونه رجلاً من بني هاشم أو من قريش أو من بلاد العرب، و إنّما سلّمت له باعتباره نبيّ الله المرسل بالرسالة الإلهيّة الخاتمة، فإنّ المنطق القبليّ يشعر القبائل بخطر المصادرة لوجودها ويتحدّى قيمها^١. لكن الأحداث و دهاء القرشيين أبعدا أو جمّدا التأثير القبليّ في فترة الخلافة الراشديّة، و بقي تأثير قريش وحده يلعب دوره المرسوم إلى أزمنة طويلة و متعاقبة في تاريخ المسلمين. و من المعلوم تاريخياً أنّه بعد وفاة رسول الله ﷺ حينما دخل العراق و الشام و بقية البلاد ضمن إطار المجتمع الإسلامي، لم يتمكّن الخلفاء، الذين تزعموا قيادة المسلمين؛ من تذويب النظام القبائليّ الذي كان موجوداً في هذه الأقاليم، بل بقي التنظيم القبائلي سائداً، و بقي زعيم كلّ قبيلة هو الرابط بين قبيلته و بين السلطان. و هذا التنظيم القبائليّ

١- عبد الزهراء عثمان محمّد، المعارضة السياسيّة في تجربة أمير المؤمنين عليه السلام ص ٤١.

بطبيعة تكوينه يخلق جماعة من الزعماء المتنقذين، و من شيوخ هذه القبائل الذين لم يرتبهم الإسلام لأنهم لم تتح لهم فرصة معايشة أيام النبوة عيشاً صحيحاً، مما جعل من هؤلاء طبقة معينة ذات مصالح و ذات أهواء و مشاعر في قواعدها الشعبىة، مما يوفر لهم أسباب النفوذ و الاعتداء عليهم. و هذا المناخ القبلي الذي سيطر على الجزيرة و ما والاها، و من ثم دول الإسلام الأخرى فيما بعد، هو الذي أوجد حالة الارتداد التي أشار لها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^١ و قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^٢ ولكن الخطأ الرسالي الذي خرج وتمرد على هذا القانون و اتخذ مساره النبوي كما جاء في الخبر: «ارتد الناس بعد النبي صلى الله عليه وآله الغفاري إلا ثلاثة نفر: المقداد بن الأسود، وأبوذر الغفاري، و سلمان الفارسي، ثم إن الناس عرفوا و لحقوا بعد»^٣ فهناك من عرف لمن يتجه، و هذا الاتجاه الصائب و الصحيح كان يعود و يدور حول شخص المعصوم الذي أمسك عقد الإسلام من أن ينفرط و يضيع في خضم الصراعات القبلية والأسرية.

فالنبي محمد صلى الله عليه وآله كان أول معصوم وضع الخطوط الأولى للسير بهذا الاتجاه، إلا أن الخطوط القبلية كانت ضاربة بوجودها في المجتمع

١- المائدة: ٥٤.

٢- آل عمران: ١٤٤.

٣- الاختصاص للشيخ المفيد ص ٦.

الإسلامي فزعزعت المجتمع بل مزقته شرّ تمزيق، وقد حاولت هذه الخطوط تشكيل شرائق و خيوط ترتبط ببعضها ممّا أضعف، أو كاد أن يضعف الخطّ الرساليّ الذي يقف قبالتهم. ولقد لعبت القبيلة و الحسنّ القبليّ دوراً كبيراً في تاريخ الإسلام و المسلمين، و حتّى الولاء السياسيّ و تنظيم الجيوش كان يعتمد على المشاعر القبليّة و الاتّجاه العام للقبيلة، فهناك قبائل ركبها حسنّ القبيلة، و ما كان عليه زعماءؤها و قادتها، و لم يفهموا من الرسالة شيئاً، و قد أشار عليّ عليه السلام إلى ذلك حين قال: «ادعوا لي غنيّاً و باهلة فليأخذوا عطاياهم، فو الذي فلق الحبة و برأ النسمة، ما لهم في الإسلام نصيب، و إنّني لشاهد لهم في منزلي عند الحوض و عند المقام المحمود؛ أنّهم أعدائي في الدنيا و الآخرة، و لئن ثبتت قدماي لأردنّ قبائل إلى قبائل، و قبائل إلى قبائل، و لأبهرجنّ^١ ستين قبيلة ما لهم في الإسلام نصيب». ^٢ و قال عليه السلام أيضاً في تغلب: «لئن تفرّغت لبني تغلب، ليكون لي فيهم رأي، لأقتلنّ مقاتلهم، و لأسبينّ ذريّتهم، فقد نقضوا العهد، و برئت منهم الذمّة حين نصّروا أولادهم». ^٣ ولكن قبيلة همدان حظيت برضى عليّ عليه السلام و مودّته لهم فقال فيهم: و لو كنت بواباً على باب جنّة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام^٤

لأنّ سعيد بن قيس الهمداني، سيّد همدان و عظيمها، كان مناصراً

^١ - البهرج: الباطل و الشيء المباح، يقال: بهرج دمه، أي: أباحه و أبطله، و في الحديث: «بهرج دم ابن الحارث» أي: أبطله. ينظر لسان العرب (بهرج).

^٢ - بحار الأنوار ٣٤: ٣٠٧، كتاب الغارات للثقي ١: ٢١.

^٣ - البلدان و فتوحها للبلاذري ص ٢١٦.

^٤ - مآثر الإنافة في معالم الخلافة للقلقشندي ١: ١٠٥، بحار الأنوار ٣٢: ٤٧٧.

لعليّ، و متفهّماً لرسالته، و مؤمناً بمبادئ علي عليه السلام و فلسفته، بل كان طوع بنانه.

و قال له سعيد بن قيس لما شكّا عليه السلام من تناقل أصحابه عن نصرته : «و الله لو أمرتنا بالمسير إلى قُسطنطينيّة و روميّة مشاة حفاة، على غير عطاء و لا قوة، ما خالفتك أنا و لا رجل من قومي»^١ فيظهر من هذا أنّ موقف علي عليه السلام كان متبايناً من قبيلة لأخرى، و هذا الانقسام و التباين في رؤية علي عليه السلام لم يكن عن عصيّة أو رؤية فنويّة، بل هي رؤية ربّانيّة رساليّة تضع القبيلة في ميزان رساليّ ديني، فحينما تكون القبيلة مع الرسالة فهي أثيرة و محبّبة لدى علي عليه السلام، و حينما تبتعد عن الرسالة تكون بغیضة و مبعدة من قلب علي عليه السلام.

و من هذا التقسيم انقسمت قبائل العرب بين مناصر للرسالة و بين مناهض لها، و من ناصر الرسالة كان و لاؤه لله و لنبيّ الله ﷺ و لأوليائه عليهم السلام، ممّا حملهم هذا الأمر إلى الابتعاد النوعي و التدريجي عن مركز الشدّ العصبيّ و الجاهليّ الذي يتّجه باتجاه العصبة و القبيلة، و أخذ بهم نحو مركز الشدّ الدينيّ و النبويّ فصاروا في جبهة علي عليه السلام من بعده مختارين.

و اتّحدت رؤية النبي ﷺ مع رؤية علي عليه السلام في هذا المجال حين قال ﷺ : «شرّ قبيلتين في العرب : نجران، و بنو تغلب»^٢ و ظلّ هذا الأمر يطبع حياة المسلمين فوصفها بالانشطار و التفرّق بمحورين. و عزّز هذا الوضع دخول السيف بينهما.

و وصف الأستاذ صالح الورداني هذا الانقسام بالقول : «و منذ وفاة

١- بحار الأنوار ٣٤: ٢٠.

٢- مسند أحمد بن حنبل ٤: ٣٨٧.

الرسول ﷺ بدأت السياسة يساندها السيف تلعب لعبتها لتبرز لنا الخطّ القبلي. و الذي قام على أساسه الخطّ الأموي فيما بعد. و لم تكن صفّين سوى نهاية الطريق بالنسبة لمسيرة الإسلام القبليّ الذي ساد بعد وفاة الرسول ﷺ. و إنّ فقه صفّين يتوقّف على فقه مرحلة احتضار الرسول ﷺ. لقد برز بعد وفاة الرسول خطّان : خطّ سار في طريق القبيلة نتج من سقيفة بني ساعدة، و خطّ سار في طريق آل البيت و تحالف مع الإمام عليّ؛ الخطّ الأوّل مثل الإسلام القبلي، و الخطّ الثاني مثل الإسلام النبوي^١.

و يتحدّث الأستاذ عادل الأديب عن بداية المواجهة قائلاً: «إنّ الإسلام جابه بعد وفاة الرسول ﷺ انحرافاً خطيراً و مبكراً في صميم التجربة الاجتماعيّة و السياسيّة التي أنشأها النبي ﷺ للمجتمع و الأمة الإسلاميّة، و ما كاد خطّ الإمامة في الحكم يقصى عن الحياة الإسلاميّة و يُستبدل بأطروحة جديدة في الحكم أطروحة السقيفة حتّى بدأ الانحراف عن الخطّ الإسلاميّ يتسرّب إلى مراكز التوجيه الفكريّ و الاجتماعيّ و السياسيّ، حتّى وُثدت التجربة الإسلاميّة الأصيلّة و استبدلت بحكم قبليّ و رائيّ بدأ بتعطيل الحدود و مصادرة رويّة الشريعة و تكدير صفائها، و قد تجسّد ذلك بالحكم الأمويّ و العبّاسي، و ما تمخّض عنها من مآسي و ويلات و مزالق خطيرة، و إبعاد للأجيال عن أهداف الرسالة و طابعها السماويّ الصميم»^٢.

و يذهب الأستاذ صالح الورداني إلى حدوث مواجهة مبكّرة و سريعة، و كأنّ الانحراف قد اقترن مع المواجهة و تزامن معه، فلم تعد هناك

^١ - السيف و السياسة في الإسلام ص ٥.

^٢ - دور أئمة أهل البيت عليه السلام في الحياة السياسيّة ص ٣٤.

فاصلة بين الانحراف و المواجهة فقال : «و إنَّ الصراع قد احتدم بين الإسلام القبليّ و الإسلام النبويّ فور وفاة الرسول، و إن كان الإسلام القبليّ قد تحقّقت له السيادة، فقد بقي الإسلام النبويّ في ساحة المواجهة. تارة يصارع السيف، و تارة يصارع السياسة»^١.

و إذا كانت الدولة الأمويّة مظهرأ متجسداً للدولة القبليّة أو الخطأ القبلي، فإنّ الدولة العبّاسيّة تجاوزت الخطيّن القبليّ، و النبويّ، و أوجدت خطأ ثالثاً هو أقرب إلى الخطأ الفرديّ الذي ضخم السلطان و الحاكم العبّاسي، و بعبارة أخرى هو خطأ أهل الرأي أو الهوى الذي نفخ الحاكم و أهله و جعله يتمدّد و يستبدّ و يسحق أعراف القبيلة و الأجداد حتّى تناسوا أنّهم ينتسبون إلى الصحابيّ الكبير عبدالله بن عبّاس الذي جاء فيه الخبر : «لكلّ شيء فارس و فارس القرآن عبدالله بن العبّاس»^٢ و جاء في خبر آخر أنّ النبيّ صلّى الله عليه و آله وضع يده على كتفه أو منكبه و قال: «اللهمّ فقّهه في الدين، و علّمه التأويل»^٣.

ولكن السلطة العبّاسيّة لم ترّو له فقهاً أو حديثاً أو تفسيراً بل أهملت أحاديثه و مروياته، فالعبّاسيّون همّ في الواقع أحفاد الصحابيّ عبد الله بن عبّاس تلميذ عليّ عليه السلام و صاحبه، ولكنّه حينما وصل إليهم أمر السلطان عاشوا سكراته فنسوا أخذ دين الله عنه، و أخذوه من شخص آخر هو عبدالله بن عمر و غيره، لأنّ ابن عبّاس لم يكن يخرج عن مدرسة النبيّ صلّى الله عليه و آله و وصيّيه عليّ عليه السلام. فلم يكن لدى الخلفاء العبّاسيّين ملاذ أو مهرب من الأخذ بفتوى الشيعة الإماميّة إن تمسّكوا بنصوص ابن عبّاس

١- السيف و السياسة في الإسلام ص ٥.

٢- بحار الأنوار ٢٢: ٣٤٣.

٣- مجمع الزوائد و منبع الفوائد للهيتمي ج ٩ ص ٢٧٦.

جدهم لأنها تتطابق في الغالب مع نصوص الأئمة المعصومين، وقد حصل هذا التصور في تفكير مالك بن أنس، كما يتضح من دخول مالك على أبي جعفر المنصور و قول المنصور له : «لو تركتم قول علي عليه السلام وابن عباس و أخذتم بقول ابن عمر !» فأجابه مالك مبرراً ذلك بالقول : «لأنه آخر من مات من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال المنصور له : و الله يا أبا عبد الله، ما بقي على الأرض أعلم مني و منك، خذ بقول ابن عمر و دعني ممّا سواه».

و كان المنصور يأمل بالإمام أبي حنيفة - عندما رعاه بعنايته و نصره، و قدّمه على كثير من الفقهاء - أن يوجد منه شخصية علمية تقف أمام انتشار مذهب جعفر بن محمد عليه السلام، ولكنّه خاب أمله، فالإمام أبو حنيفة يصرّح للملأ بأنّه «ما رأى أعلم من جعفر بن محمد عليه السلام و أنّه أعلم الأئمة». و سأله رجل يوماً عن رجل وقف ماله للإمام، فمن يكون المستحق؟ فأجاب أبو حنيفة : «المستحقّ هو جعفر الصادق عليه السلام، لأنّه هو الإمام الحق». و ذهبت تلك المحاولات فاشلة، و لم يزل المذهب الجعفريّ يتّسع في الأفطار، و ينتشر في العواصم، و كثر أتباعه رغم تلك المحاولات و الخطط التي خطّها المنصور و من بعده المهديّ و الهادي و الرشيد. و قد بذل الرشيد كلّ ما في وسعه من أجل تحويل أنظار الناس عن آل محمد، و أظهر تعظيم مالك بن أنس فكان يجلس بين يديه تأدّباً يتعلّم منه العلم و يأمر أولاده و خواصّه باحترامه، و كان يقرب الفقهاء، و ينظر إلى الشافعيّ نظر عطف و حنان لأنّه قرشي، و أرسله إلى مصر صحبة للوالي؛ و أمره باحترامه و إكرامه، و تقريب

^١ - ينظر طبقات ابن سعد ٤٧: ٤، لباسم الحلبيّ الرسول المصطفى و مقولة الرأي ص ٢٦٧، شرح الزرقاني على موطأ مالك ٧: ١ - ط دار المعرفة بيروت.

أصحابه، و أعطاه سهم ذوي القربى^١.

و هكذا كان خلفاء بني العباس يبعدون ذلك و يقرّبون ذا، و يمدّون يداً لهذا و يقبضونها عن آخر، و يفتحون الخزائن إن أرادوا، و يغلقونها إن لم يريدوا، و ما على الوزير أو الحاجب إلا الإذعان و الامتثال، و إن نصّحهم أبعدوه أو سجنوه أو قتلوه إن ركبهم الغضب، لا قيمة لهذا و لذلك. و من هذا يروى: « أن الوزير يعقوب بن داود قال للمهديّ في أمر أراده: هذا و الله السرف، فقال المهديّ: ويلك! و هل يحسن السرف إلا بأهل الشرف، ويلك! يا يعقوب، لولا السرف لم يعرف المكثرون من المقترين^٢ ».

و كأنّ الأمر هو عائد له وحده، و لا أهميّة للأمة و الفقراء و أركان الدولة الذين جمعوا له هذا المال، فما دام الخليفة طليق اليد فالأمة و أركان الدولة في نعمة. لا أهميّة لهذا جاعوا أم شبعوا، فالمال مال الخليفة، و الرعيّة عبيد له أرادوا أم لم يريدوا ذلك.

و من هذا يروي السيوطي عن ابن جرير: « لما ملك الأمين ابتاع الخصيان و غالى بهم، و صيّره لخلوته و رفض النساء و الجواري». و قال غيره: « لما ملك وجّه إلى البلدان في طلب الملهين و أجرى لهم الأرزاق، و اقتنى الوحوش و السباع و الطيور، و احتجب عن أهل بيته و أمرائه و استخفّ بهم، و محق ما في بيوت الأموال، و ضيّع الجواهر و النفائس، و بنى عدّة قصور للهو في أماكن^٣ ».

و يروى عن جدّه المنصور أنّه خطب في يوم عرفة على منبر عرفة

١- الإمام الصادق و المذاهب الأربعة: أسد حيدر، ج ١ ص ٢٢٣.

٢- تاريخ الطبري ٨: ١٥٧.

٣- تاريخ الخلفاء للحافظ جلال الدين السيوطي ص ٢٤٢.

قائلاً: «أيها الناس، إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه و
رشده، و خازنه على فيثه، أقسمه بإرادته، وأعطيه بإذنه، و قد جعلني الله
عليه قفلاً، إذا شاء أن يفتحني فتحني لإعطائكم، و إن شاء أن يقفلني
عليه أقفلني»^١.

ولا يمكن إدراك طبيعة النظام الذي أرساه العبّاسيون الأوائل - خاصّة
المنصور - بمعزل عن فحص سياساتهم الماليّة و السلوك الاقتصاديّ
الذي اتّبِعوه.

فالطريقة التي كان الخليفة يتصرّف بها بموارد الدولة، و النفقات
العامة، و ممتلكات الخلافة تعطي صورة دقيقة واضحة عن تصوّر
العبّاسيين لمفهوم الحكم، و عن شكل السلطة التي مارسوها.
و من زاوية نظر أخرى إلى هذا الموضوع فإنّ سيطرة الخليفة الكاملة
على موارد الدولة كانت أداة فعّالة و حاسمة في تجسيد المشروع
العبّاسي الذي كان عليها، ذلك أنّ السلطة غير المقيدة بحدود على إدارة
الشؤون الماليّة و التصرف بالأموال كرّست صورة الخليفة العبّاسي في
هذه المرحلة كحاكم أوتوقراطي، و النظام السياسي الذي أسّسه كحكم
مطلق^٢.

و قد أفرز هذا الوضع إسرَافاً في الأموال، و سفكاً للدماء بغير مبرّر.
وفي هذه الأوضاع عاش الأئمّة عليهم السلام عصور بني العبّاس، وعاصمتهم و
مدنهم كانت مليئة بالدماء المسفوكة و السجون المظلمة، ويقابلها عربة
في قصورهم تدار فيها أقذاح الخمر، و عيدان الجواري المغنّيات، و

^١ - تاريخ الخلفاء للحافظ جلال الدين السيوطي ص ٢١٢.

^٢ - عصام سخيني: العبّاسيون في سنوات التأسيس ص ٢٠٢.

أهازيج الفساق.

و كانت الدولة الجديدة غنيّة بمواردها لسعة أطرافها، ولكن هذه الأموال ما كانت تجد طريقها لعمارة البلدان أو إشباع الجياع؛ وإنّما هي أموال جبيت لحساب الخليفة و حاشية السلطة، و هذا يعود إلى فلسفة الدولة العباسيّة التي وظّفت الأُمّة و مواردها لتكون لقمة سائغة بيد الخليفة و أولاده و جواريه و من يطربه و يسقيه كؤوس الخمر. و نعم الشعراء و الأدباء المتغنّون بأمجاد بني العباس بالجوائز و العطايا السنّيّة، فقد انتفخت جيوبهم و عظمت بطونهم، فلذلك يصعب تصنيف النظام العباسي أو إدراك مشروعه الديني أو الإصلاححي الذي كان ينادي به سلاطين بني العباس و يتبجّحون و يمتّون به على الرعيّة، بصفتهم ورثة النبي الكريم و أبناء عمّه، فهم ليسوا أكثر من نماذج من الغاصبين والعابثين بالأموال و المقدّرات.

و الفرد منهم مستهلك لأموال العباد، و بعبارة أخرى: كان كلّ واحد منهم مع حاشيته نمطاً استهلاكياً و مسرفاً في جهاز الدولة، لا تعنية الأُمّة و لا الدولة معاً. و من هؤلاء: محمد الأمين العباسي الذي كان يلهو منصرفاً حتّى عن تدبير المعركة الأخيرة له، كما يروي إبراهيم بن المهدي، و هو من البيت العباسي، قال: «استأذنت على الأمين، و قد اشتدّ الحصار عليه من كلّ جهة، فأبى أصحابه أن يأذنوا لي بالدخول، إلى أن كابت و دخلت، و إذا هو قد قطع دجلة بالشبّاك، و كان في وسط القصر بركة عظيمة لها مخترق إلى الماء في دجلة، و في المخترق شبّاك حرير، فسلمت عليه، و هو مقبل على الماء، و الخدم و الغلمان قد انتشروا في تفتيش الماء في البركة، و هو كالواله، فقال و قد ثنّيت بالسلام عليه: لا تؤذني يا عمّ، قد ذهبت مقرطتي من البركة إلى دجلة

(المقرطة: سمكة كانت قد صيدت له و هي صغيرة فقرطها بحلقتي ذهب فيها حبنا در) فخرجت و أنا يائس من فلاحه، و قلت : لو ارتدع في وقت، لكان هذا الوقت^١ و من هذا أيضا روى الصولي قال: «حدثنا أبو العيناء عن محمد بن عمرو الرومي قال : خرج كوثر خادم الأمين ليرى الحرب فأصابته رجمة في وجهه فجعل الأمين يمسح الدم عن وجهه ثم قال :

ضربوا قرّة عيني	و من أجلي ضربه
أخذ الله لقلبي	من أناس أحرقوه
و لم يقدر على زيادة، فأحضر عبد الله بن التيمي الشاعر فقال له: قل عليهما، فقال:	
ما لمن أهوى شبيهه	فبه الدنيا تتيه
وصله حلوا ولكن	هجره مرّ كريه
من رأى الناس له الفض	ل عليهم حسدوه
مثل ما قد حسد القا	ثم بالملك أخوه

فأوقر له الأمين ثلاث بغال دراهم^٢.

فمثل هذا النمط من الخلفاء لايمكن أن يحظى برضى الإمام المعصوم و مباركته. و من الطبيعي أن يكون وليّ الله ندّاً له و عدواً. فتري الأئمة عليهم السلام، في ظلّ هؤلاء الطغاة المسرفين، قد وضعوا في الظلّ المنسي ، و في غياهب السجون و المعتقلات القاتمة، مُبعدين عن الأمة فحُرمت هذه الأمة من بركاتهم و خيراتهم و هداهم، لأنّ السلطة العباسيّة وضعت القيود و العيون على الأئمة عليهم السلام و على صاحبتهم، و منعت الرجال من الاتّصال بهم، إلا أنّ الخليفة عبد الله المأمون أدرك بأنّ التماذي في هذا الأسلوب ليس في صالح السلطة، بل قد يفاقم الأوضاع،

^١- الإنحاف بحبّ الأشراف للشيخ عبدالله بن محمد بن عامر الشبراوي ص ٢٣.

^٢- تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٤٢.

و يزيد نقمة الأمة عليهم، و يجعل الأمة و أفرادها يلتفتون إلى قاداتهم الحقيقيين الذين أرادهم الله و وضعهم في موضع الإمامة و القيادة، فأثر المأمون لذلك أسلوب المخادعة و امتصاص النقمة العارمة التي كانت سائدة في عصره، فاستدعى الإمام الرضا عليه السلام من المدينة ليكون وليّ عهده و الخليفة المؤتمل المرجوّ للأمة. ولكن هذه اللعبة لم تكن موفقة، لأن القبيلة و أهل الرأي لم يكونا مستعدين لقبول فردٍ أو جماعة من خارج نطاق الأسرة و الكتلة العباسية؛ يمارس دوره القيادي حتى لو كان هذا الشخص يمتلك رصيдаً من النصوص الدالة على موقعه و دوره الريادي و القيادي. و كان الرضا عليه السلام مرشحاً لأن يكون خليفة أو وليّ عهد المأمون في لعبة سياسية يؤذيها الإمام و لو بشكل صوري و بصورة ديكورية ينتهي به الأمر إلى القتل.

فانفجر البيت العباسي و من معهم من أحفاد القبيلة ليلعنوا المأمون و يعزلوه عن خلافته، لأنه خرج على أعراف القبيلة و تمرّد على نزوات و شهوات البيت العباسي، ومهما كانت الدوافع و الأسباب التي كانت تقف وراء دعوة المأمون العباسي للإمام الرضا عليه السلام فإن إذكاء البحث العلمي و التاريخي له ضرورته في هذا الميدان، و أملنا كبير بأن ينتفع القارئ من هذه السطور التي كتبناها.

و من المناسب أن نذكر هنا أن هذا الكتاب قد حاز على الجائزة الثالثة في التأليف في المسابقة العالمية التي أجرتها دار المرتضى و مجمع البحوث الإسلامية عام ١٤٣٠ هـ أملين أن ينال رضي القارئ و من الله التوفيق.

عادل عبدالرحمن البدري

مشهد الرضا عليه السلام

فلسفة الحكم و الدولة

لم تهمل الرسالات السماوية موضوع الحكم و الدولة التي تنظم حياة الجماعات و الأفراد، بل أكدت وجوبها، و أشار القرآن الكريم في جملة من نصوصه إلى ضرورة قيام الحكم الديني و تأسيس دولة و نظام يكون حاكماً على الناس، و من هذه النصوص قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾^١، و قوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾^٢، و قوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^٣، و قوله: ﴿فَإِنْ جَاءَكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^٤.

١- المائدة: ٤٨.

٢- النساء: ١٠٥.

٣- النور: ٥١.

٤- المائدة: ٤٢.

و بعث الله الأنبياء و الرسل ليعلموا الناس بأن الأديان السماوية هي نظم كاملة و راجحة في المجالات كافة، بما في ذلك النظم السياسية و نظم الدولة الأخرى التي ينبغي أن يضعها الإنسان نصب عينه، و بها تنتظم حياة الناس و تدبر أمورهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^١، وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^٢، فالحاصل من هذا الآيات و غيرها أن السماء وضعت خطوطاً عامة و أطراً ينبغي أن يتشكل النظام السياسي و شكل السلطة وفقها. و الإسلام كدين سماوي و خاتم لرسالات السماء وضع هيكل النظام السياسي، أو فلسفة الدولة و نظمها. و الإسلام الذي دعا إلى الجهاد و الدفاع، و دعا إلى إجراء الحدود و العقوبات على العصاة المجرمين، و دعا إلى إنصاف المظلوم، و ردع الظالم، و سنّ نظاماً خاصاً و واسعاً للمال. فالدعوة إلى كل هذه الأحكام تدلّ بدلالة التزامية على أن الله تعالى قد فرض وجود دولة قوّة تقوم بإجرائها في المجتمع؛ لأن الإسلام ليس مجرد أدعية خاوية أو طقوس و مراسم فردية يقوم بها كل فرد في بيته و معبده؛ بل هو نظام سياسي و مالي و حقوقي و اجتماعي و اقتصادي واسع و شامل. و ماورد في هذه المجالات من قوانين و أحكام تدلّ بصميم ذاتها على أن مشرّعها افترض وجود حاكم يقوم بتنفيذها و رعايتها، لأنه ليس من المعقول سنّ مثل هذه القوانين دون وجود قوّة مجرية و سلطة تنفيذية تتعهد بإجرائها و تتولّى تطبيقها^٣.

١- الحديد: ٢٥.

٢- ص: ٢٦.

٣- الشيخ جعفر سبحاني: معالم الحكومة الإسلامية - نشر مكتبة أمير المؤمنين إصفهان ص ٢٣.

و قد تضمّن القرآن الكريم أحكاماً لا يتصور تنفيذها دون وجود حكم و دولة تأخذ بها، و تعمل على تنفيذها، فمن ذلك: أحكام الحدود كقتل القاتل، و قطع يد السارق، و معاقبة الذين يسعون في الأرض فساداً، أي: يخلّون بأمن الدولة و المجتمع، كما في قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^١. و قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جِزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^٢، و قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^٣، و غيرها من العقوبات التي لا يتصور تطبيقها إلا بوجود دولة و حكم، إذ كيف يُترك الأفراد، دون قضاء و حكم، و فيها نفي و قتل و صلب و قطع يد و جلد و أمثال ذلك من العقوبات التي تستلزم حكماً يتخذ منها قانونه الجنائي يقضي به و ينفذه. و تضمّن القرآن كذلك أحكاماً مالية تتعلق بالنفقة الواجبة على الأقارب، و بالميراث و توزيعه، و الزكاة و طرق صرفها. و لا يتصور أن تكون هذه الأحكام ملزمة لمن تجب عليهم إلا إذا كان ثمة سلطة مُجبرة تلزمهم جبراً إذا امتنعوا عن أداء ما عليهم من حقوق واجبة؛ بل إن أحد مصارف الزكاة للعاملين عليها، و هم الذين يجمعونها و الذين يتولّون توزيعها. و العامل في الإصطلاح الإسلامي هو الموظف في اصطلاحنا، و

١- المائدة: ٣٨.

٢- المائدة: ٣٣.

٣- المائدة: ٤٥.

لا يتصور وجود هؤلاء إلا في جهاز دولة قائمة تتخذ من هذه القواعد المالية أساساً لها و تعمل على تطبيقها و تنفيذها.

و تضمّن القرآن بعد هذا دعوة إلى الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله، أي: شريعته، هي العليا، و لحماية الدين و ردّ الاعتداء على المسلمين و أوطانهم و كياناتهم و دولتهم، و حماية المستضعفين من الرجال و النساء في آيات كثيرة^١. و نصّ على أحكام في أمور تنشأ عن الجهاد: كنزيع الغنائم، و فداء الأسرى و ما إلى ذلك.

و لا يمكن أن يُخاطب المسلمون فرادى غير منظمين بهذه الأحكام؛ بل لابدّ لذلك من نظام، و لا يمكن تنفيذ هذه الأحكام بدون نظام و حاكم يتولّى شؤونهم و ينفذ هذه الأحكام و يضعها في مواضعها، فينذر بالحرب و يعلنها و يقود معركتها، و يعقد المعاهدات، و يقسم الغنائم، و يفدي الأسرى . و تضمّن القرآن الكريم كذلك أحكاماً و توجيهات تتعلق بواجبات الحاكم كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾^٢.

إنّ مجموع هذه الأحكام الجنائية و المالية و الدولية و الدستورية لا يمكن أن يعقل إيرادها و الإلزام بها إلزاماً — يعتقد المؤمن بالإسلام بوجوبه و الإثم بتركه — إلا إذا كان القرآن يفرض على المسلمين تنظيم الحكم و إقامة الدولة^٣. كما أنّ المبادئ الأصلية التي أعلنها

١- منها قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ النساء: ٧٥ ، و قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ التوبة: ٢٩ ، و قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ الأنفال: ٣٩.

٢- النساء: ٥٨.

٣- محمّد المبارك، نظام الإسلام الحكم و الدولة - منظمة الإعلام الإسلامي ص ١٨.

الرسول ﷺ لا بدّ لها من دولة تتبناها و تعمل على حمايتها من عسف
الطغاة المتجبرين الذين ينطلقون وراء منافعهم و وراء أطماعهم^١.

^١ - باقر شريف القرشي، نظام الإسلام السياسي ص ١٢٦.

الإمامة و الحكم و القيادة

حاجة المجتمعات إلى القانون و الدولة و الحكومة حاجة ضرورية فطرية بدأت من الأسرة، فربُّ الأسرة في الأسرة المنفردة كان هو مصدر القانون و منقّذه، فهو الذي يؤدّب ابنه إذا بدر منه ما يسيء إلى أمّه وإخوته، وهو الذي يضع قاعدة التأديب و نوع الجزاء. فمن هنا بدأت بوادر حكومة مصغّرة تنظّم العلاقات و تضع قواعد و نظم يدخل العقاب و الجزاء ضمن هذه الحكومة، ثمّ انتقل هذا الوضع التنظيمي إلى مستوى القبيلة و العشيرة حيث بدأت تتكوّن أعراف يلتزم بها أبنائها و يقضي في منازعاتهم رئيس القبيلة أو عرّاف القوم. ثمّ خطا الإنسان خطواته الكبرى فألف مجتمعه الكبير؛ مجتمع الشعوب و الأمم، عندئذٍ كثرت معاملات الناس و تشعبت و تعدّدت منازعاتهم و تنوّعت فافتقروا أيّما

افتقار إلى القانون الذي ينظم لهم تلك العلاقات^١. وحتّى في أبسط أشكال المجتمع توجد الضرورة لنظام معيّن من القواعد، إذ من الضروري في كلّ مجتمع، سواء كان مجتمعاً بدائياً أو معقّداً؛ الإبقاء على بعض القواعد التي تبيّن الشروط التي يتزوج ويعيش بموجبها الرجال والنساء، وقواعد لحكم علاقات العائلة، وشروط تنظّم النشاطات الاقتصادية أو جمع الغذاء أو الصيد، وقواعد لمنع التصرفات التي تعتبر ضارة لرخاء العائلة، أو الجماعات الأكبر منها كالقبيلة أو الجماعة بأسرها. وأكثر من ذلك ستبقى الحاجة في المجتمع المتحضّر المعقّد إلى نظام أوسع من القواعد لحكم الحياة العائلية والاجتماعية والاقتصادية^٢.

فالحاجة الإنسانية إلى نظم وتشريعات وقوانين كانت ومازالت، لذا لم تترك السماء الإنسان يعيش في فراغ تشريعي وقانوني، وبالتالي يقع في دوامة من الفوضى والاضطراب. ولم تضع السماء نظاماً وتشريعات مجردة يختلف الناس حولها وحول تفسيرها وكيفية تطبيق بنودها، وإنما وضعت لهذه النظم والشرائع رجالاً سمّتهم وأظهرتهم ليسيّر العباد بهداهم ويدينوا بطاعتهم. وقد مرّت تجربة سياسية مهمة في حياة بني إسرائيل يستخلص منها العقلاء: بأنّ السماء لم تترك الخيار للناس وحدهم في تسمية قادتهم وأئمّتهم حيث تقول الآية: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^٣. فالمحاوراة الجارية بين

^١ - ينظر الدكتور عبدالله مصطفى، علم أصول القانون ص ٤٠ - ط الأولى بغداد.

^٢ - الدكتور رياض القيسي، علم أصول القانون - بيت الحكمة بغداد ص ٧٤.

^٣ - البقرة : ٢٤٧.

نبي زمانه، و مشايخ و ملأ بني إسرائيل، توحى بأن الخلافة السياسية وجه آخر للخلافة الدينية، أو هي مكملّة لها و نابعة منها، و هذه الخلافة فرع من مسألة الإمامة و مرتبطة بها بالضرورة. و من هذا يكون الاختيار الربّاني هنا اختياراً صائباً و سديداً، لأنّه يراعي في الشخص المصطفى و المختار الكمال و العصمة. و العصمة عبارة عن: كمال مرتبة الإنسانيّة، لأنّ الإنسان إنّما أصبح أشرف المخلوقات بالعقل. و العقل قوّة تردع عن ترك الواجب و فعل القبيح، فمن زادت قوّته العقلية ندر وقوع القبح منه، بل قد يمتنع ذلك منه^١. و بناء على هذا اقترنت بحوث الإمامة بمسألة العصمة. و قد خلص بعض علماء الشيعة بأنّ قول الإمامة يعتمد على مقدمتين:

الاولى : إنّ أدلّة العقل دلّت على وجوب الإمامة، و هذا ممّا تسلمه أكثر أهل القبلة و تلقّته جماهير علماء الأئمة بالقبول، و لم ينزع فيه إلا شذاذ من الخوارج لا اعتداد بخلافهم لاحتياج الناس كلّهم إلى سلطان يكونون بوجوده أقرب إلى الصلاح و أبعد من الفساد، و لحاجة الكلّ إلى شخص يقوم بالسياسات، من: تأديب الجناة، و تقويم العصاة، و تعليم الجهّال، و إقامة الحدود، و تنفيذ الأحكام، و فصل الخصومات، و سدّ الثغور، و نصب الولاة، و الذبّ عن الديانة، و حفظ بيضة الإسلام، إلى غير ذلك من المصالح العامّة.

الثانية : يدعون بعد ثبوت ذلك أنّ هذا الإمام الذي ثبت وجوب وجوده في كلّ زمان من أزمنة التكليف يجب أن يكون معصوماً من الخطأ مأموناً منه كلّ زلل، غنياً عن سائر الناس في جميع ما يحتاج إليه

١- تحفة الأبرار في مناقب الأئمة الأطهار للطبري ص ٤٠.

من العلوم والأحكام^١. و عمق الخلاف بين الإمامية وأهل السنة في مسألة الإمامة يدور حول: إن الإمامة هل تقع في دائرة الاختيار البشري، أم إنها إصطفاء إلهي خالص كالنبوة. وبالتعبير الكلامي: هل الإمامة بالاختيار أم بالنص. و تعتقد الشيعة أن الإمامة رئاسة وإمرة الهية كالنبوة، فالإمام حافظ للشرع وقائم به، فحاله في ذلك كحال النبي. فدور الإمام لا يقتصر على الشؤون الإدارية والتنفيذية؛ بل يتعداها إلى التفسير الشامل للدين و شرحه و تطبيقه، و هداية الناس إلى مافيه سعادة الدارين. و هذا بذاته يفترض جملة من الشروط في الإمام: كالعصمة، والعلم ونحوها، تمنع الاختيار أو الوصول إلى الحكم بطرق أخرى، لقصور الناس عن معرفة بعضها كالعصمة، فاستلزم ذلك النص منه سبحانه^٢.

و من هذا المنطق ذهب علماء الطائفة الإمامية إلى أن معنى أن يكون الله تعالى: ﴿وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^٣ أن يكون سبحانه و تعالى مطاعاً فيما يأمر به و ينهى عنه، و حاكماً بين الناس من خلال رسالاته السمحاء المتضمنة لكل ما يحتاج إليه البشر في حياتهم الخاصة و العامة. و بما أن الله تعالى قد أرسل الرسل و لم يترك الناس هملاً، و بما أن النبوة قد ختمت بالرسول الأكرم ﷺ الذي نصّب الأئمة من بعده، كما في قوله ﷺ: «لا يزال هذا الدين منيعاً إلى اثني عشر خليفة»، فإن معنى ذلك أن الله تعالى أراد للولاية أن تستمر في الوجود، و أن يكون لها الأثر الفاعل في حياة البشر من خلال أئمة الهدى الذين استمرت بهم الولاية؛ باعتبار أنه

١- شيخ الإسلام الزنجاني. تاريخ العقيدة الشيعية و فرقها ص ١٤٥.

٢- علي أمين جابر آل صفا: البيعة و نظام الحكم في الإسلام - الدار الإسلامية بيروت ص ٢١٦.

٣- إشارة إلى آية ٢٥٧ من سورة البقرة.

٤- صحيح مسلم ٣: ١٤٥٢ كتاب الإمامة: الناس تبع لقريش.

ليس من معاني ختم النبوة عدم استمرار الولاية، و ذلك لاستحالة أن يبقى الناس دون إمام يعلمهم و يركبهم.

و هؤلاء الأئمة الذين عناهم الرسول ﷺ من معاني ولايتهم أيضاً أن يكونوا مطاعين فيما يأمرهم به و ينهون عنه، و التخلف عنهم من شأنه أن يجعل الناس عرضة للشيطان و تحت ولاية الطواغيت. و من جملة الآيات الدالة على الطاعة قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^١، و من هنا نفهم معنى النصّ على إمام لقيادة المسلمين من قبل الرسول ﷺ، و كذلك معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^٢.

و لقد أجمع المفسرون لكتاب الله على أن المقصود بهذه الآية هو الإمام علي عليه السلام^٣. و مثلما أن هذه الآية تثبت ولاء النصرة و المحبة، فإنها أيضاً تثبت ولاء التدبير و القيادة. و إذا كانت الولاية مستمرة في الوجود و السياسة الحقيقية هي المترشحة عن هذه الولاية، فذلك يؤكد حقيقة أن الله تعالى لم يجعل سياسة البشر بأيديهم؛ بل جعل هذا الأمر من شؤونه، فنصّ على الإمام الذي أوكلت إليه مهمة رعاية المجتمع الإنساني، كذلك مهمة تدبير شؤونه على نحو يؤدي به إلى الكمال^٤.

١- النساء / ٨٠.

٢- المائدة / ٥٥.

٣- ينظر تفسير القمي ١: ١٧٨، أسباب النزول للواحي ص ١١٣، تفسير الكشاف للزمخشري ١: ٦٤٩، التسهيل لعلوم التنزيل للكلبي ١: ٣٢٥.

٤- الدكتور فرح موسى: رسالة في الولاية السياسية - دار الهادي ص ٧.

مراتب الإمامة والإمام

المعنى اللغوي للإمام : ما ائتمَّ به من رئيس و غيره. و الإمام : الذي يُقتدى به. و إمام كلِّ شيء : قيّمه و المصلح له. و الإمام : الطريق الواضح. و الإمام : الخيط الذي يمدُّ على البناء فيبنى عليه و يسوى عليه ساف البناء. و الإمام : مطلق الطريق. و من هذه المعاني يقال لحادي الإبل : إمام، و إن كان وراءها لأنّه الهادي لها. و الدليل يقال له : إمام السفر أيضاً.

و الإمامة : التقدّم، و تفيد معنى الأصل و القصد^١. و يقول الأخفش : كلُّ شيء انضمت إليه أشياء فهو أَمٌّ. و أَمُّ الرأس : الجلدة التي تجمع الدماغ، و بذلك سمّي رئيس القوم: أَمّاً لهم. و سمّيت السماء: أُمُّ النجوم لأنها تجمع النجوم. و الأُمّة : القرن من الناس جاء من قوله تعالى: ﴿أُمّةٌ وَسطاً﴾^٢، و جاءت الأُمّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمّةً﴾^٣، أي:

^١ - لسان العرب (أمم)، ترتيب جمهرة اللغة ١: ٧٩ (أمم).

^٢ - البقرة : ١٤٣.

^٣ - النحل : ١٢٠.

إماماً. و الأمة : الإمام أيضاً.^١

و جاء معنى «أمة» هنا، أي: قدوة و معلماً للخير. و قيل : أي: إمام هُدى.

و قيل : سَمِيَ إبراهيم عليه السلام أمةً لَأَن قِوامَ الأُمّة به. و قيل : لَأَنه قام بعمل أمة. و قيل: لَأَنه انفرد في دهره بالتوحيد، فكان مؤمناً وحده و الناس كفاراً، و خروج معنى الإمام إلى التمام و الكمال، لَأَن التسمية جاءت من معنى القدوة، و لَأَنه منصوب من قِبَل الله تعالى و مفترض الطاعة على العباد.^٢ و قد حاز إبراهيم عليه السلام الكمال و التمام بعد اختبار و ابتلاء أشار له تعالى بقوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾^٣. و قد روى الصدوق: أَنَ الْمُفَضَّل بن عمر سَأَلَ الصَّادق عليه السلام عن هذه الكلمات، فقال الصادق عليه السلام: «هي الكلمات التي تلقاها آدم من رَبِّه فتاب عليه، و الكلمات : أسألك ياربَّ بحقِّ مُحَمَّد و عليٍّ و فاطمة و الحسن و الحسين ألا تبت عليٍّ، فتاب الله عليه إنه هو التواب الرحيم، فقلت له: يا بن رسول الله، فما يعني عزَّ و جلَّ بقوله: «أتمهنَّ»؟ قال: يعني أتمهنَّ إلى القائم عليه السلام اثني عشر إماماً تسعة من ولد الحسين عليه السلام». و قد وصف أبو جعفر الباقر عليه السلام مراحل و درجات إبراهيم عليه السلام حتَّى الدرجة الأخيرة التي جاءت في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾^٤.

١- ترتيب جمهرة اللغة ١: ٧٩ (أمم).

٢- مجمع البيان ٣: ٣٩١.

٣- معاني الأخبار للصدوق ص ٦٤.

٤- البقرة : ١٢٤.

٥- الخصائص ص ٣٠٥.

٦- البقرة : ١٢٤.

بالقول : «إن الله اتخذ إبراهيم عليه السلام عبداً قبل أن يتَّخذه نبياً؛ واتَّخذه نبياً قبل أن يتَّخذه رسولاً، واتَّخذه رسولاً قبل أن يتَّخذه خليلاً، واتَّخذه خليلاً قبل أن يتَّخذه إماماً، فلما جمع له هذه الأشياء وقبض يده قال له: يا إبراهيم ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾^١. فمن عَظَمَها في عين إبراهيم عليه السلام قال : ياربَّ ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^٢.

و بعض المفسرين قال هنا:^٣ بأنَّ الإمام هو المقتدى به في أفعاله و أقواله، و الذي يقوم بتدبير الأمة و سياستها و القيام بأمرها من إقامة الحدود و غيرها^٤. و قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾^٥ و قوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾^٦، جاء بمعنى الطريق الذي يُؤمَّ و يتَّبَع و يهتدى به^٧، و جعل الطريق إماماً لأنَّ المسافر يأتَم به و يستدلُّ، و أمَّا المبين فجاء بمعنى: الواضح و الظاهر، و يقال في هذا المعنى، أي: في كتاب ظاهر، و هو اللوح المحفوظ.

و روى ابن عباس: أنَّ علياً عليه السلام قال : «أنا — و الله — الإمام المبين، أبين الحقِّ من الباطل، و رثته من رسول الله صلى الله عليه وآله»^٨ و جاء من بعده عليه السلام أولاده المعصومون الذين ورثوا هذا المنصب، كما ورث أبوهم عليه السلام هذا

١- البقرة : ١٢٤.

٢- أصول الكافي ١: ١٧٥.

٣- أي: البقرة : ١٢٤.

٤- ينظر تفسير التبيان للطوسي ١: ٤٤٩، مجمع البيان ١: ٢٠١.

٥- الحجر : ٧٩.

٦- يس : ١٢.

٧- مجمع البيان ٣: ٣٤٣، التبيان ٦: ٣٥٠.

٨- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ٤٥٩.

٩- تفسير علي بن إبراهيم القمي ٢: ١٨٧ ط بيروت: بحار الأنوار ٥٧: ٣٥٧.

المنصب، باعتبارهم أئمة منصوب عليهم، و حاجة الأمة لهم كحاجتهم إلى النبي، باعتبار أن الإمامة أصل ضروري كالنبوة. و الإمامة : هي الرياسة الكبرى و الزعامة الإسلامية العظمى، و هي خلافة النبي ﷺ في ما كان إليه من شؤون الدين و الدنيا - غير ما كان يختص به من الوحي و التبليغ - فهي عندهم ركن من أركان الدين، و قاعدة من قواعد الإسلام الأساسية التي لا بد منها و لا يُستغنى عنها؛ لأجل جمع الكلمة، و رتق الفتق، و لمّ الشعث، و إنصاف المظلوم، و تعليم الجاهل، و ردع المعاند، و الدفاع عن بيضة الإسلام، و الذبّ عن حوزته، و يجب أن يكون الإمام أفضل الخلق لثلا يلزم تقديم المفضول على الفاضل، و يجب كذلك أن يكون أشجع الناس و أزهدهم و أسخاهم و أعدلهم و أعلمهم. إذ هذه هي صفات الكمال، فلو تساوى الإمام مع أحد رعيته أو نقص عنه في شيء من هذه الصفات لأمكن صدور الظلم منه، و لو لم يكن شجاعاً لأمكن أن يهزم في الحرب، و كذا تفوّقه في العلم من أجل أن لا يعيا بالمسائل الشرعية. أمّا سخاؤه فلكي يستفيد الناس من جوده فيطيعونه. و يجب أن يكون منزهاً من العيوب الخلقية و الخلقية، لأنّ فيها ما يبعث على تنفير الناس عنه، و هو ممّا يتنافى مع معنى نصب الإمام^١ و إذا كانت مسألة الإمامة أمراً إلهياً يحكمه الاصطفاء، إلا أننا نجد أنّ هذا الاصطفاء يقع في ضمن سلسلة بشرية متصلة من لدن آدم عليه السلام إلى نبيّنا الأعظم ﷺ، فهل يحكم قانون التوارث الإمامة كما يحكمها الاصطفاء، أم ماذا؟ و لا بدّ أولاً من الإشارة إلى أثر عامل الوراثية

١- شيخ الإسلام الزنجاني: تاريخ العقيدة الشيعية و فرقها، تحقيق غلام عليّ اليعقوبي - مجمع البحوث الإسلامية مشهد ص ١٣٣.

٢- تحفة الأبرار في مناقب الأئمة الأطهار للطبري ص ٥٩.

في نشوء الإنسان و اكتسابه للصفات و الملكات المادّية و المعنوية. و هذه حقيقة تكوينيّة أثبتتها العلم قديماً و حديثاً، و هي لا تختصّ بالإنسان، بل تسري إلى الحيوانات و النباتات أيضاً. فالفرع يحمل خصائص الأصل بنسبة عالية و ينقلها إلى الفرع الثاني، و هكذا. و كثيراً ما تظهر في الإنسان صفة من الجدّ - رغم عدم ظهورها في الأب - سواء كانت جسديّة أو طبيعيّة أو معنويّة، فلإنسان نصيب هامّ من أصوله سلباً و إيجاباً.

و هذا الأثر الهامّ لقانون الوراثة يدخل جديداً في مسألة الاصطفاء الإلهيّ للأنبياء و الأئمة، حتّى أنّنا نلاحظ أنّ التوارث ليكاد يكون في السنن الإلهيّة في هذا المجال، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ^١

و يعلّق العلامة الطباطبائي رحمه الله فيقول: «إنّ الله اصطفى هؤلاء على العالمين، و إنّما سرى الاصطفاء إلى جميعهم، لأنهم ذرية متشابهة الأفراد و بعضهم يرجع إلى بعض في تسليم القلوب و ثبات القول بالحقّ، و إنّما أنعم عليهم بالاصطفاء على العالمين لأنّه سميع عليم؛ يسمع أقوالهم و يعلم ما في قلوبهم^٢».

و كان الأئمة المعصومون (عليهم السلام) يبيّنون هذا لأصحابهم و شيعتهم في محادثاتهم معهم أو في مكاتباتهم لهم، و من هذا جاء بيان الرضا (عليه السلام) في كتاب له حرّره جواباً على سؤال عبد الله بن جندب يسأله عن تفسير آية

١- آل عمران: ٣٣ و ٣٤.

٢- علي أمين جابر آل صفا، البيعة و نظام الحكم في الإسلام ص ٢٢٢: السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن ٣: ١٨١ - دار الكتب الإسلاميّة طهران.

في سورة النور ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^١ فأجاب عليه السلام قائلاً: «أما بعد، فإنَّ محمدًا كان أمين الله في خلقه، فلمَّا قبض النبي ﷺ كنَّا أهل البيت ورثته، فنحن أمناء الله في أرضه، عندنا علم المنايا و البلايا، و أنساب العرب، و مولد الإسلام، و ما من فئة تضلَّ مائة و تهدي مائة إلا و نحن نعرف سائقها و قائدها و ناعقها، و إنَّا لنعرف الرجل إذا رأيناه بحقيقة الإيمان و حقيقة النفاق، و إنَّ شيعتنا لمكتوبون بأسمائهم و أسماء آبائهم، أخذ الله علينا و عليهم الميثاق، يردون موردنا و يدخلون مدخلنا، ليس على ملة الإسلام غيرنا و غيرهم إلى يوم القيامة نحن آخذون بحجزة نبيِّنا، من فارقنا هلك، و من تبعنا نجا، و المفارق لنا و الجاحد لولايتنا كافر، و متَّبِعنا و تابع أوليائنا مؤمن، لا يحبُّنا كافر، و لا يبغضنا مؤمن، و من مات وهو يحبُّنا كان حقًّا على الله أن يبعثه معنا، نحن نور لمن تبعنا، و هدى لمن اهتدى بنا، و من لم يكن منَّا فليس من الإسلام في شيء، و بنا فتح الله الدين، و بنا يختمه، و بنا أطعمكم الله عشب الأرض، و بنا أنزل الله قطر السماء، و بنا آمنكم الله من الغرق في بحركم، و من الخسف في برِّكم، و بنا نفecكم الله في حياتكم، و في قبوركم و في محشركم، و عند الصراط و عند الميزان، و عند دخولكم الجنان، مثلنا في كتاب الله كمثِّل مشكاة، و المشكاة في القنديل فنحن المشكاة فيها مصباح، المصباح محمد رسول الله ﷺ «المصباح في زجاجة» من طاهرة «الزجاجة كأنَّها كوكب دريُّ يوقد من

شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية» لا دعية ولا منكرة «يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار» القرآن «نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم».

فالنور عليّ عليه السلام يهدي الله لولايتنا من أحب، وحقّ على الله أن يبعث ولينا مشرقاً وجهه، منيراً برهانه، ظاهرة عند الله حجته، حقّ على الله أن يجعل أوليائنا المتقين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، فشهداؤنا لهم فضل على الشهداء بعشر درجات، نحن النجباء، ونحن أفراط الأنبياء، ونحن أولاد الأوصياء، ونحن المخصوصون في كتاب الله، ونحن أولى الناس برسول الله ﷺ، ونحن الذين شرع الله لنا دينه، فقال في كتابه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ - يَا مُحَمَّد - وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾^١ قد علمنا، وبلغنا ما علمنا، واستودعنا علمهم، ونحن ورثة الأنبياء، ونحن ورثة أولي العلم وأولي العزم من الرسل أن أقيموا الدين ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^٢، كما قال الله: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾^٣، من الشرك من أشرك بولاية علي عليه السلام «ما تدعوهم إليه» من ولاية علي عليه السلام يا محمد ﴿فِيهِ هُدًى﴾^٤، ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾^٥، من يجيبك إلي بولاية علي عليه السلام.

١- الشورى : ١٣.

٢- البقرة : ١٣٢.

٣- الشورى : ١٣.

٤- البقرة : ٢.

٥- الشورى : ١٣.

٦- تفسير المصفي : ٢ : ٨٠.

و من هذا الموضوع روى إبراهيم بن العباس الصُّولي قال : «كُنَّا يَوْمًا بين يديّ عليّ بن موسى الرضا عليه السلام فقال : ليس في الدنيا نعيم حقيقي، فقال له بعض الفقهاء مَن يحضره : فيقول الله عزّ وجلّ ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾^١، أما هذا النعيم في الدنيا و هو الماء البارد، فقال له الرضا عليه السلام و علا صوته - : كذا فسَرتموه أنتم، و جعلتموه على ضروب! فقالت طائفة : هو الماء البارد، و قال غيرهم : هو الطعام الطيّب، و قال آخرون: هو النوم الطيّب، قال الرضا عليه السلام و لقد حدّثني أبي، عن أبيه، عن أبي عبد الله عليه السلام: أن أقوالكم هذه ذكرت عنده في قول الله تعالى: ﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ فغضب عليه السلام و قال : إنّ الله عزّ وجلّ لا يسأل عباده عمّا تفضّل عليهم به، و لا يمنّ بذلك عليهم، و الامتنان بالإنعام مستقيح من المخلوقين فكيف يضاف إلى الخالق عزّ وجلّ ما لا يرضى المخلوق به؟! و لكنّ النعيم حبّنا أهل البيت و مولاتنا، يسأل الله عباده عنه بعد التوحيد والنبوة، لأنّ العبد إذا وفّى بذلك أذاه إلى نعيم الجنّة الذي لا يزول. و لقد حدّثني بذلك أبي، عن أبيه، عن آبائه أنّه قال : قال رسول الله ﷺ : يا عليّ، إنّ أوّل ما يُسأل عنه العبد بعد موته: شهادة أن لا إله الا الله، و أنّ محمداً رسول الله ﷺ، و أنّك وليّ المؤمنين بما جعله الله و جعلته لك، فمن أقرّ بذلك و كان يعتقدّه، صار إلى النعيم الذي لا زوال له^٢».

^١ - التكاثر : ٨

^٢ - عيون أخبار الرضا : ٢ : ١٢٩ ح ٨ ؛ بحار الأنوار : ٢٤ : ٥٠.

الإمامة و أصول الدين

يعتقد الشيعة بأنّ الإمامة لم ولن تنفصل عن النبوة، وإنّ ماجرى في تاريخ المسلمين من فصل الإمامة عن النبوة بالخلافة السياسيّة هو أمر مسيئ و مدبّر.

و لن يكتمل الإيمان إلا بالاعتقاد بالإمامة المنصوصة التي رتبها السماء، و ماجرى من خلافات و معارك كلاميّة و سياسيّة بين فرق المسلمين لفصل هذا المنصب عن مقام النبوة هو أمر خارج عن أصل الشريعة السماويّة، و هناك اتفاق نسبي بين معظم الفرق الإسلاميّة بأنّ الإمامة أو الخلافة : هي النظام الذي جعله الإسلام أساساً للحكم بين الناس بهدف اختيار الأصلح من المسلمين لتجتمع حوله كلمة الأمة و تتحد به صفوفها، و تقام به أحكام الشريعة. و يقول عبدالله بن عمر البضاوي المتوفى ٦٨٥ هـ.ق: بأنّ الإمامة عبارة عن خلافة شخص من الأشخاص لرسول الله ﷺ في إقامة القوانين الشرعيّة و حفظ حوزة الملة، ولكن الخلاف الذي وقع و مازال : هل الخليفة منصوص عليه أم للأمة أن تختاره، و الشيعة ترى بأنّ الإمامة ليست من المصالح العامّة التي

تفوض إلى نظر الأمة، بل هي ركن الدين، وقاعدة الإسلام. و في رأيهم أنه لا يجوز أن يغفل النبي ﷺ هذا الركن و لا أن يفوضه إلى الأمة، و الإمام علي عليه السلام هو الذي عينه النبي ﷺ ليكون خليفة المسلمين^١ و من ثم بعده الحسن، والحسين عليه السلام و السجاد والباقر، والكاظم، والرضا، والجواد، والعسكريين عليهم السلام لتختتم بالمهدي القائم عليه السلام.

و من هذا الأساس تمسك الشيعة بالإمامة باعتبارها أصلاً من أصول الدين و افرقوا عن أهل السنة على هذا الأصل، ولكنهم شاركوا فرق المسلمين بأن الإيمان: هو التصديق بالله وحده وصفاته وعدله وحكمته، وبالنبوة وبكل ما علم بالضرورة من دين النبي ﷺ^٢.

و ترى الشيعة بأن الإمامة منصوبة في الكتاب و السنة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^٣ و قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^٤ و قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^٥ و قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾^٦.

و فسر الباقر عليه السلام آية الأحزاب فقال: «جرت في ولد الحسين عليه السلام»، وقال: «نحن أولو الأمر برسول الله من المؤمنين و المهاجرين و

^١ - ينظر محمد بيومي مهران، الإمامة و أهل البيت ١: ١٤٨، ٢٨.

^٢ - ينظر بحار الأنوار ٦٩: ١٤٩.

^٣ - النساء: ٥٩.

^٤ - المائدة: ٥٥.

^٥ - التوبة: ١١٩.

^٦ - الأحزاب: ٦.

الأَنْصار^١». و فسر الصادق عليه السلام آية المائدة بأن «الذين آمنوا» يعني علياً و أولاده الأئمة إلى يوم القيامة^٢. و فسر الباقر عليه السلام قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^٣، بأنهم آل محمد. و قال عليه السلام: «نحن و الله أهل الذِّكر». و في السَّنة نصوص تواترت على أن الأئمة هم اثنا عشر إماماً و من قریش، و من هذه النصوص ما رواها مسلم و غيره و كما وردت في صحاحهم: «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة. و إنَّ هذا الأمر لا ينقضي حتَّى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة» و في بعضها: «كلَّهم من قریش»^٤.

و في أخبار آخر: «أمراء أمّتي - أو خلفاء أمّتي - بعدد نقباء بني إسرائيل»^٥.

و روي عن أبي بن كعب أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ أنزل عليّ اثني عشرة صحيفة، اسم كلِّ إمام على خاتمه، و صفته في صحيفته»^٦. و عن ابن عباس قال: «قلت: يا رسول الله، كم الأئمة بعدك؟ قال: بعدد حوارِي عيسى عليه السلام، و أسباط موسى عليه السلام، و نقباء بني إسرائيل، قال:

١- أصول الكافي ١: ٢٨٨.

٢- نفس المصدر.

٣- الأنبياء: ٧.

٤- تفسير القمي ٢: ٤٢؛ بحار الأنوار ٢٣: ١٧٢.

٥- ينظر صحيح مسلم ٣: ١٤٥٢، كتاب الإمامة الناس تبع لقریش - ط دار إحياء التراث العربي بيروت. و من هذه النصوص ما رواه جابر بن سمرة: «يكون بعدي اثنا عشر أميراً كلَّهم من قریش». و قد فصل المجلسي في ذلك في بحار الأنوار ٣٦: ٢٣٤ و الصفحات اللاحقة.

٦- ينظر مستند أحمد بن حنبل ١: ٣٩٨؛ مجمع الزوائد ٥: ١٩٠.

٧- تحفة الأبرار في مناقب الأئمة الأطهار لعماد الدين الطبري ص ٦١.

قلت : فكم كانوا؟ قال : اثنا عشر بعدي^١.

و روى الحافظ سليمان الحنفي القندوزي بإسناده «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا عَلِيُّ، اكْتُبْ مَا أُمْلِي عَلَيْكَ، قَالَ: قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَخَافُ إِلَيَّ النَّسِيَانَ؟ قَالَ: لَا، وَ قَدْ دَعَوْتَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَجْعَلَكَ حَافِظًا، وَلَكِنْ اكْتُبْ لَشُرَكَائِكَ الْأُئِمَّةَ مِنْ وَلَدِكَ، بِهِمْ تَسْقَى أُمَّتِي الْغَيْثَ، وَبِهِمْ يَسْتَجَابُ دَعَاؤُهُمْ، وَ بِهِمْ يَصْرِفُ اللَّهُ عَنِ النَّاسِ الْبَلَاءَ، وَ بِهِمْ تَنْزِلُ الرَّحْمَةُ مِنَ السَّمَاءِ، وَ هَذَا أَوْلَهُمْ - وَ أَشَارَ إِلَى الْحَسَنِ - ثُمَّ قَالَ : وَهَذَا ثَانِيهِمْ - وَ أَشَارَ إِلَى الْحُسَيْنِ - ثُمَّ قَالَ : وَ الْأُئِمَّةُ مِنْ وَلَدِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ^٢».

و قد تضافرت نصوص أخرى تسمي الأئمة من صلب علي عليه السلام باعتبارهم قادة الأمة و أئمتهم، و من هذه النصوص ما روى أبو هريرة قال : «كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَبُوبَكْرٍ وَعُمَرُ وَالْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ وَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ وَ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ؛ إِذْ دَخَلَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَخَذَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَ قَبَلَهُ ثُمَّ قَالَ: حَزَقَ حَزَقَةً تَرَقَّى عَيْنَ بَقَّةٍ، وَوَضَعَ فَمَهُ عَلَى فَمِهِ وَقَالَ : اللَّهُمَّ، إِنِّي أَحْبَبَهُ فَأَحْبَبْهُ، وَأَحَبَّ مِنْ يَحِبُّهُ، يَا حُسَيْنَ، أَنْتَ الْإِمَامُ، ابْنُ الْإِمَامِ، أَبُو الْأُئِمَّةِ، تِسْعَةٌ مِنْ وَلَدِكَ أئِمَّةٌ أَبْرَارٌ. فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: مَا هَؤُلَاءِ الْأُئِمَّةُ الَّذِينَ ذَكَرْتَهُمْ فِي صُلْبِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ فَأَطْرَقَ مَلِيًّا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ : يَا عَبْدَ اللَّهِ، سَأَلْتُ عَظِيمًا ، وَ لَكِنِّي أَخْبِرُكَ أَنَّ ابْنِي هَذَا - وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى كَتِفِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ - يُخْرِجُ مِنْ صُلْبِهِ وَلَدَ مُبَارَكٍ سَمِيَ جَدَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَسْمَى: الْعَابِدَ، وَنُورَ الزَّهَادِ، وَ يُخْرِجُ اللَّهَ مِنْ صُلْبِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَدًا اسْمُهُ اسْمِي، وَأَشَبَّهُ النَّاسَ بِي، يَبْقُرُ الْعِلْمَ بِقُرْأٍ، وَ يَنْطِقُ

١- تحفة الأبرار في مناقب الأئمة الأطهار لعماد الدين الطبري ص ٦١.

٢- بنابيع المودة ص ٢٠.

بالحق، و يأمر بالصواب، و يخرج الله من صلبه كلمة الحق ولسان الصدق، فقال له ابن مسعود : فما اسمه يا رسول الله؟ قال : يقال له: جعفر عليه السلام، صادق في قوله وفعله، الطاعن عليه كالطاعن علي، والراذ عليه كالراذ علي، ثم دخل حستان بن ثابت وأنشد في رسول الله صلى الله عليه وآله شعراً وانقطع الحديث.

فلما كان من الغد صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله ثم دخل بيت عائشة ودخلنا معه أنا وعلي بن أبي طالب و عبد الله بن العباس، وكان صلى الله عليه وآله من دأبه إذا سُئِلَ أجاب، و إذا لم يسأل ابتداءً، فقلت له : بأبي أنت و أمي، يا رسول الله، ألا تخبرني بباقي الخلفاء من صلب الحسين عليه السلام؟

قال : نعم يا أبا هريرة، و يخرج الله من صلب جعفر عليه السلام مولوداً نقيّاً طاهراً، أسمر، ربعة، سمي موسى بن عمران، ثم قال ابن عباس : ثم من يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وآله : يخرج من صلب موسى؛ علي ابنه يدعى: بالرضا، موضع العلم ومعدن العلم.

ثم قال عليه السلام : بأبي المقتول في أرض الغربة! و يخرج من صلب علي ابنه محمد المحمود، أظهر الناس خلقاً و أحسنهم خلقاً. و يخرج من صلب محمد علي ابنه طاهر الحسب، صادق اللهجة. و يخرج من صلب علي، الحسن الميمون النقي الطاهر، الناطق عن الله، وأبو حجة الله. و يخرج الله من صلب الحسن قائماً أهل البيت يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً و ظلماً، له هبة موسى، وحكم داود، وبهاء عيسى، ثم تلا عليه السلام : ﴿ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^١ فقال له علي بن أبي طالب : بأبي أنت و أمي يا رسول الله، من هؤلاء الذين ذكرتهم؟ قال : يا علي، أسامي الأوصياء من بعدك، والعترة الطاهرة، و الذرية المباركة، ثم

قال عليه السلام: و الذي نفس محمد بيده، لو أن رجلاً عبد الله ألف عام ثم ألف عام ما بين الركن و المقام، ثم أتاني جاحداً لولايتهم لأكتبه الله في النار، كائناً من كائن^١. فههنا القرابة الطاهرة منصوص عليها، فهم قادة الأمة السياسية و الروحية بعد نبيه الكريم بالنص الشرعي القاطع، أما لماذا هم بالذات؟

هذا فضل الله يؤتيه من يشاء، لماذا أنزل الله الوحي على محمد و اختاره للرسالة؟ لماذا محمد بالذات؟ لماذا موسى بالذات؟ هذا أمر بيد الله تعالى.

هذه القرابة هي مركز الدائرة بالنص، و هي سفينة النجاة بالنص، و هم باب حطة بالنص، و هم نجوم الهدى بالنص، و هم الأسبق بالإيمان بالنص، و هم الأتقى بالنص، و هم الأعلم بالنص، و هم الأكثر بلاءً بالنص، و محبتهم مفروضة على الجميع بالنص، و عميدهم في كل زمان هو الإمام الشرعي للأمة^٢.

و روى الحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزي جملة من الأخبار في هذه المضامين منها: قول النبي صلى الله عليه و آله: «معرفة آل محمد براءة من النار، و حب آل محمد جواز على الصراط، و الولاية لآل محمد أمان من العذاب». و قال عليه السلام: «أهل بيتي أمان لأهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء».

و قال عليه السلام: «أيها الناس لم يعط أحد من ذرية الأنبياء الماضين ما أعطي الحسين بن علي خلا يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، أيها الناس، إن الفضل و الشرف و المنزلة و الولاية لرسول

١- كفاية الأثر في النص على الأمة الاثني عشر للخزّاز ص ٨١؛ بحار الأنوار ٣٦: ٣١٢.

٢- أحمد حسين يعقوب، نظرية عدالة الصحابة: ٢٩.

الله و ذرّيته فلا يذهبنّ بكم الأباطيل^١.

و قال ﷺ : «ألا من مات على حبّ آل محمّد مات شهيداً، ألا و من مات على حبّ آل محمّد مات مغفوراً له. ألا و من مات على حبّ آل محمّد مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا و من مات على حبّ آل محمّد بشرّه ملك الموت بالجنة، ثمّ منكر و نكير... ألا و من مات على حبّ آل محمّد مات على السنّة و الجماعة^٢...»

^١ - ينابيع المودة : ٢٠ - ٢٢.

^٢ - نفس المصدر ص ٢٧.

المواجهات و التحديات للأئمة

أفرزت الأديان السماوية و غيرها عن طائفتين من الرجال: طائفة يقال لهم: رجال الدين، و طائفة يطلق عليهم: رجال الدولة، أو السياسة، أو الملك، أو رجال السلطة، و غيرها من المصطلحات التي يمكن ملاحظتها في تاريخ الأمم و الأديان، إن لم نقل: جلّها، فالرجال الذين اختصّوا بتعاليم الديانة و دروسها و مبادئها انزوا عن الدولة بصفة موظفين أو مدراء لها، بل كان لهم وظيفة أكبر و أخطر من الدولة نفسها التي يدين شعبها و حكمائها لها، وهي تأسيس المبادئ و المحافظة عليها، وهذا النمط من الرجال الذين يسعون للمبادئ و القيم تميّزوا عن الآخرين بالتأييد الغيبي أو الديني الذي يعزّز سلطتهم و قوتهم، و من هذه الطائفة برز عنوان الإمام المعصوم المؤيّد بالنصوص في تاريخنا الإسلاميّ المجيد، إلا أنّ مواجهات و تحديات برزت و مازالت تحاول زعزعة هذا الإمام المظلوم المكلف واقتلعه من أذهان الناس.

و أبرز هذه المواجهات كانت مع التيار القبلي، و من ثمّ التيار السلطوي الذي كان له جولات من المعارك و الحروب مع رموز الإمامة النصيّة، فلم يحظ مبدأ الإمامة النصيّة بقبول عامّ للمسلمين كافّة، بل جرى هنا و هناك

معارضة و تجاهل لهذا المبدأ.

و رفض جماعة من المسلمين لمبدأ النصّ في موضوع الإمامة قد أوقعهم في اضطراب و حيرة عظيمين حول منشأ شرعية الإمام، فهل هو الاختيار، أو العهد، أو الشورى الخاصة والمحدودة، أو الغلبة والقهر؟ فإن كل واحدة من هذه كانت تمثل منشأ لخلافة أحدهم، وفي خلال فترات زمنية متقاربة، بحيث أوجد صعوبة واضحة في تبرير ما حصل، و لذا لجؤوا فيما بعد إلى إعطاء و إضفاء المشروعية على هذه المناشئ بأجمعها كأفضل سبيل للتخلص من هذا المأزق، و لو كلف ذلك تحريفاً للحقيقة. ولا تجد تفسيراً لذلك كله إلا رغبتهم الجامحة وحرصهم الشديد على استبعاد النصّ و تصويب عمل الواصلين إلى السلطة بشتى الوسائل، ومن هنا كانت البيعة عندهم وسيلة لتثبيت هذه الطرق كلها إلى الإمامة، فطلبوها من أفراد و جماعات الأمة في مختلف الأحوال و الظروف بالرضا و الإكراه^١.

و كانت الجماعات الرافضة لمبدأ النص تشكّل رؤوس و أعمدة الفكر القبلي.

و يمثل الفكر القبلي في صدر الإسلام المكيّون، و قد كان أهل مكة عند ظهور الإسلام يرجعون نسبهم إلى قريش، ومعنى هذا أنّ غالبية أهلها كانت على هذا النسب حين تنتسب، جرياً على عرف الناس في ذلك العهد في إرجاع نسبهم إلى جدّ أعلى يفتخرون و يتباهون به، يتساوى في ذلك أهل الوبر و أهل المدر، فأمر مكة إذن في أيدي قريش، في القرن السادس للميلاد أخذته من جماعة كانت هي المسيطرة عليها قبلها تدعى: خزاعة، و الذي مكّن قريشاً من خزاعة و سلّمها مكة هو

^١ - علي أمين جابر، البيعة و نظام الحكم في الإسلام ص ١٢٢.

زعيم من زعمائها عرف بالكياسة والسياسة والحذر هو: قُصي، وكان قصيَ زعيمًا و تاجرًا، جمع مالا كثيرًا، وولي عناية البيت الحرام، وثبت حكم قريش في المدينة حتى صار لقومه نفوذ على سائر القبائل^١.

و لغرض تنظيم الأمور الإدارية و السياسية في مكة توصلت بطون قريش إلى صيغة سياسية قائمة على اقتسام مناصب الشرف فيما بينهما، من: قيادة، ولواء، وندوة، وسقاية، ورفادة، وسفارة... و الأسهم السياسية المحدودة في هذه الصيغة أقصى ما استطاعت البطون أن تنتزعه، ولاح لهذه البطون أنها أفضل صيغة سياسية على الإطلاق، إذ ليس فيها غالب و لا مغلوب، فالمناصب السياسية قدر مشترك بين البطون، و لا مصلحة لأي بطن بتغيير هذه الصيغة، لأنه لو حاول التغيير فلا يعرف على وجه الجزم و اليقين عواقب محاولته فقد يفقد ما حققه، ثم إن الأمور قد استقامت و نظمت أمور ولاية البيت الحرام، فارتاحت كل البطون لهذه الصيغة، ومع الأيام أصبحت عنوان عقيدة سياسية و أثرًا ماثورًا مما تركه الأولون، و من غير الجائز الخروج عليه من قبل أي كان. و في السنين العجاف لم يكن لمكة غير هاشم يطعم الناس و يشبعهم، ولم تزل مائدته منصوبة في السراء و الضراء، فخشي أمية بن عبد شمس منه و حسده فتكلف أن يصنع ما يصنع هاشم فعجز عن ذلك فعيرته قريش، فدعا هاشمًا للمنافرة فأبى، ثم تنافرا ففضى الحكم بأن هاشمًا أشرف من أمية، فكانت هذه بذرة العداء الأولى بين البيتين الهاشمي و الأموي^٢.

فسرت هذه العداوة - و التي كان ينبغي أن تموت مع اضمحلال العصر الجاهلي و تهافت الأوثان و سقوطها - و امتدت إلى عصور

^١ - الدكتور جواد علي، تاريخ العرب في الإسلام ص ٤٨.

^٢ - المحامي أحمد حسين يعقوب، نظرية عدالة الصحابة ص ٨٣.

الإسلام الأولى. و ورث أهل النبي المعصومون الإمامة الدينية و السياسية بكلّ أقطالها و أوزارها و معرّاتها، و خاصّة في موضوع الحكم و الخلافة و إدارة أمور الأُمّة، ولكن المسألة لم تحسم بالاحتكام إلى النصوص، بل دخلت في منعطفات كثيرة، أدّت إلى رفض النصوص أو توجيهها باتجاه مغاير، و لم تكن قريش وحدها هي المتمرّدة على النصّ أو العابرة له، وكما يظهر ذلك جلياً من مجمل الأحداث التي جرت في صدر الإسلام وأوّلها والتي رسمت الخريطة السياسية للمسلمين. ومن الباحثين من أشار لذلك بقوله:

«كان الناس يعتبرون مسألة الحكم وإدارة شؤون الناس مسألة نبويّة تضعها الشريعة الإلهيّة في موضعها المناسب لحسم الصراع بين الناس، وتجسّد لأعلى درجات الطاعة في المجتمع لكنّها تحوّلت مسألة الحكم إلى مثار صراع بين قبيلة قريش و القبائل العربيّة كلّها، فلم نجد قبيلة من قبائل العرب بعد تحكيم المنطق القبليّ في الحكم بعد وفاة رسول الله ﷺ إلا و رأت نفسها مؤهّلة للقيادة وزعامة المسلمين أوزعامة نفسها سياسيّاً على الأقلّ، لاسيّما وأنّ المسألة قد خرجت عن إطار التصميم النبويّ لطريقة الحكم بعد النبي ﷺ، وتحوّلت إلى حكم قبليّ تقوده قبيلة قريش و حلفاؤها.

و لذا يتصوّر بعض المحلّلين للأحداث بعد النبي ﷺ أنّ اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة و دعوتهم لزعامة سعد بن عبادة الخزرجي كان من أجل تأمين مستقبلهم السياسي، بعد ما شعروا بأنّ الملأ من قريش صرفوا نظرهم عن أطروحة النبوة في الحكم بعد الرسول ﷺ

المتمثلة في إعلان علي بن أبي طالب عليه السلام إماماً و زعيماً للمسلمين^١. و عاش الأئمة عليه السلام هذه المشكلة بكل تفاصيلها، فلم تجد هذه المشكلة نهايتها في أن يؤخر علي عليه السلام عن مقامه الديني و السياسي، ثم بعدها يمارس الأئمة دوراً آخر يمكنهم من مواصلة هذه الرسالة التي بها يكتمل الإسلام، بل ظلت الإمامة تواجه تحديات و مشكلات و عقبات تتجدد مع تجدد الزمان، كما كانت النبوة التي حمل أعباءها خاتم الأنبياء و الرسل محمد صلى الله عليه و آله في البدايات الأولى لإعلانها، و أبرز هذه التحديات آنذاك هي قبيلة قريش التي كانت تناصب النبي صلى الله عليه و آله العداوة.

و كانت قريش تقيم في طريقه العقبات، و تصفه بالسحر تارة، و تحذر العرب في المواسم و الأسواق من شره و سحره ليقاطعوه، و تحصره و آله في الشعب حتى كادوا يهلكون جوعاً، و تصب على أصحابه ألوان العذاب حتى تخرجهم من ديارهم و أموالهم، و تتأمر على قتله حتى يفر منها مهاجراً إلى المدينة، ثم تتعقبه هناك في مهاجره فتغزوه المرة بعد المرة، و تتأمر مع اليهود عليه فيحاولون اغتياله و يجمعون له الأحزاب، و يؤكّبون عليه القبائل^٢. و لم تكتف قريش من كل هذا حتى حرّكت من بيته الهاشمي عمه أبا لهب؛ و دفعت امرأته أم جميل بنت صخر أيضاً لليبائعهم و يباركهم على قتل ابن أخيه فنزل قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يُدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾^٣.

١- عبد الزهراء عثمان محمد، المعارضة السياسية في تجربة أمير المؤمنين عليه السلام، دار الهادي بيروت - ط الأولى ص ٤٠.

٢- أمين الدويدار، صور من حياة الرسول - دار المعارف مصر ص ٤٦٨.

٣- المسد : ١ - ٥.

فصارت عندها قريش - بمن بعد وقرب - محنة النبي ﷺ و مشكلته الأولى، مع أنهم الأصل و المحتد والمرجع لكنهم صاروا له القوس الذي تنطلق منه سهام العداوة، و ترشقه بنيران حارقة، لم تحفظ حرمة و نسبه بينهم، إلا أن الذي عادى محمداً ﷺ منهم و حاربه هم صناديد قريش، و التجار الكبار، و المرابون، و النخاسون، و مستغلو عرق العبيد و الإماء، و ذلك لسببين:

الأول: أنه نادى بالتوحيد، و نبذ الشرك، و عبادة الأصنام، و هذا شكّل خطراً داهماً على مصالحهم التجارية و مكاسبهم المادية، التي كانوا يجنونها من وراء التعددية الوثنية، و التي كانت مكة هي عاصمتها الأولى، و إليها يحجّ و يعتمر العرب من كل صوب و حذب من الجزيرة العربية، و يقصدون الأسواق التي نصبت في منطقة الحجاز قبيل و بُعيد مواقيت الحج الأكبر.

و الآخر: أنه دعا إلى العدالة الاجتماعية و المساواة بين البشر جميعهم، لا فرق بين غني أو فقير، و لاسيّد و عبد و أمة. و هذه الدعوة ستحرمهم من استرقاق العبيد رجالاً و إماءً و الذين كانوا قوة إنتاجية و سلعة استهلاكية، فضلاً عن أن العربيّ المستكبر، في طبعه الأنفة و الكبرياء اللذان يدفعانه إلى رفض مبدأ التساوي مع من هم أقل منه ثروة أو أدنى منه منزلة اجتماعية^١.

^١ - ينظر خليل عبد الكريم، قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية ص ٢٢١.

المعركة الثقافية و حرب النصوص

كانت أكبر مؤامرة دبّرتها قريش للإطاحة بالنبي ﷺ و برسالته حين ألّبت قبائل العرب مع اليهود لِمنازلته في معركة كبيرة أشار لها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ۚ ﴾، حيث نزلت في قصّة الأحزاب من قريش و العرب الذين تحزّبوا على رسول الله ﷺ، فتجمّعت قريش في سنة خمس من الهجرة و ساروا في العرب و جلبوا و استفزّوهم لحرب رسول الله ﷺ فوافوا في عشرة آلاف و معهم كنانة و سليم و فزارة و انضمّ لهم يهود المدينة^١. ولكنهم هُزموا هزيمة نكراء بعد إذ جمعوا كلّ قواهم. و لم تنفك قريش بعدها عن تدبير المؤامرات لتقويض وهدم الصرح الرسالي، إلّا أنّ الله لم يترك نبيّه لمؤامراتهم فيندحر و يضعف، لذا أخذت العداوة القرشيّة شكلا آخر في التهديم و التقويض امتدّ هذه

^١ - الأحزاب : ٩ و ١٠.

^٢ - ينظر تفسير المصمّي ٢: ١٥٢.

المرّة إلى النصوص في مرحلة صعبة و حرجة يمكن أن نسمّيها : حرب النصوص. و كان الفكر القبليّ هو الوسيلة و الآليّة التي استخدمت في إيجاد التكتلات و القوى التي أبعدت النصّ و الاتّجاه النصّي من أن يلعب دوره في الحياة السياسيّة للمسلمين.

و كان المفروض أن يكون النصّ هو المحور و الحاكم الذي يستقطب كلّ الاتّجاهات و القوى. و قد بدأت إرهابات و خيوط الفكر القبليّ تتشكّل في المدينة عقب، أو أثناء مرض النبي ﷺ الذي نقل فيه إلى الرفيق الأعلى، و عندها ظهرت كتلة قويّة تتسبب إلى قريش لعبت دوراً كبيراً في تاريخ المسلمين ووقفت كنداً قويّاً و معارضة للنصوص التي تقف إلى جانب الإمامة الشرعيّة، و طرحت مفهوم الخلافة السياسيّة و الرأي بدل النصّ و الإمامة الشرعيّة التي تسعى إلى هداية الأمّة و الأخذ بيدها نحو الصراط المستقيم، و من هنا بدأت المواجهات و التحديات بين المنهج الإمامي و المتمثّل برجالاته و رموزه، و بين المنهج الجاهلي و تكتلاته و رموزه القبليّة التي أفرزت تياراً و فكراً معادياً لمنهج الإمامة الشرعيّة فتصدّى له على حقب زمنيّة كانت طويلة و متعاقبة في تاريخ المسلمين.

فالفكر القبلي لا يستسيغ نصوصاً توجب حقّاً لأهل البيت عليهم السلام، أو توصي بشخص عليّ عليه السلام بصفته أوّل إمام في منصب الإمامة الشرعيّة بعد النبي ﷺ، فالنصّ يقول : «من آذى عليّاً فقد آذاني، و من أطاعني فقد أطاع الله، و من عصاني فقد عصى الله، و من أطاع عليّاً فقد أطاعني، و من عصى عليّاً فقد عصاني» و بالتالي كانوا يرون لا بدّ من تطويق النصوص و تحجيمها و إيقاف العمل بها. و يتحدّث الباحث باسم الحلّي

عن هذا الشعور القبليّ بالقول : أدركت قريش أنّ السماح لسنة الرسول المصطفى ﷺ بالانتشار كفيّل بإماتة نوازعها القرشيّة و مجدها الجاهلي (ظنّ الجاهليّة) و هو في مهده، فإنّ الرضوخ لقوله ﷺ: «اللهمّ وال من والاه، و عاد من عاداه، و انصر من نصره، و اخذل من خذله» ينطوي على الانقياد لعلّي عليه السلام في كلّ شيء^١.

و لذا يلاحظ أنّ حكومة البطون القرشيّة، التي نشأت بعد مؤتمر السقيفة الذي عُقد بعد وفاة رسول الله ﷺ ببعض ساعات، كانت قلقة جداً من قطاع واسع من أحاديث رسول الله ﷺ، خصوصاً تلك الأحاديث التي تعكس مفاهيم سياسيّة تدين مسيرة الحكم الجديد وبعض رجالاته و مقرّبيه بدرجة وأخرى.

ففي بعض الأحاديث النبويّة تجسيد لمضمون الحكومة بعد النبي ﷺ و تشخيص لمن يلي مهمّة قيادة المسلمين فكريّاً و سياسيّاً، كما تعكس ذخيرة من النصوص النبويّة الشريفة حقيقة بعض القوى والعناصر و مواقفها السلبية من النبوة و النبي ﷺ والدعوة الإلهية، و حقيقة قوى أخرى و دورها المشرف في خدمة الإسلام.

و حيث إنّ رصيّدًا كبيراً من الأحاديث النبويّة تأخذ هذا المنحى سواء ما كان من الأحاديث التي قيلت في مناسبات معيّنة، أو كانت تلك الأحاديث التي أوضحت مداليل بعض الآيات و السور، و فصّلت في مضامينها المجملّة في نصوص القرآن الكريم. و لذا فإنّ حكومة الخلافة التي نهضت بقيادة المسلمين بعد النبي ﷺ رأت حرجاً شديداً من شيوع تلك الأحاديث و تلك الثقافة و انتقالها إلى الأجيال القادمة وإلى شعوب البلاد التي فتحت حديثاً، لأنّ شيوع مثل تلك النصوص سيجرّد الحكومة

^١ - باسم الحليّ، الرسول المصطفى و مقولة الرأي ص ٥٦٧.

و شخوصها المهمة من شرعيتها وقيمتها المعنوية التي تحتاجها كل حكومة، وكل حاكم عادة، إضافة إلى أن تلك النصوص ترشد المسلمين عبر الأجيال، وتأخذ بأعناقهم إلى قوى و شخوص عملت السلطات الرسمية على إبعادها عن مواقعها الطبيعية في قيادة التجربة الإسلامية الرشيدة، ومن أجل ذلك قامت القيادة الرسمية بعد النبي ﷺ باتخاذ إجراءات ثقافية صارمة لمواجهة هذه الحالة التي تهدد وجودها بالخطر حاضراً و خطتها السياسي مستقبلاً. و قد تركزت تلك الإجراءات عملياً على محاربة السنة النبوية بشكل عام، لصعوبة حصر النصوص السياسية و ما يتعلّق منها بتقويم الأشخاص والقوى.

و هكذا اتخذت تلك الإجراءات التاريخية الصارمة مسارين اثنين :

١- تبني الحكومة خطة واسعة لمنع تدوين السنة النبوية أو نشرها، و ملاحقة المخالفين لتلك الإجراءات قانونياً. واتخذت هذه الخطوة معنى الانقلاب الثقافي.

٢- و من الطبيعي أن يطال هذا الانقلاب الثقافي أبرز مظاهرها - أي: السنة - بعملية المحاصرة للسنة النبوية، و منها التفسير النبوي للقرآن الكريم و شرح مضامينه. فقد كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه القرآن سورة أو آية أو آيات يباشر بشرح مدليلها لصحابته ليفيدوا منها علماً أو عملاً، لاسيما وأنّ جلّ آيات القرآن الكريم تحتاج إلى شرح و تفصيل ممّن يدرك أسرار الوحي الإلهي الذي يأتي مجملاً في الأعم الأغلب، كما يتضح من آيات الصلاة والزكاة مثلاً، التي لا تتحدّث عن عدد ركعات، ولا عن قيام ولاجلوس، ولا ذكر ولاقراءة، ولا عن علاج للشكوك أو السهو في الصلاة، وما إلى ذلك. كذلك الحال بالنسبة إلى الزكاة في مثالنا، حيث لا يتحدّث الكتاب العزيز عن نصاب الزكاة، ولا عن مصادر الزكاة،

ولا طرق توزيعها أوجابيتها، وما إلى ذلك من أمور. و كذا في سائر الأحكام و المفاهيم و العقائد و القيم و معالجات المشاكل الاجتماعية و السياسية، ولذا كان رسول الله ﷺ يفصل هذا الإجمال، و يفك الرموز، و يرشد إلى صور التطبيق لأحكام الله عز وجل، ومراده من العباد، وكان غالبية الكتاب من الصحابة يدونون ذلك التوجيه في مصاحفهم إلى جانب النص القرآني.

و كان من التفسير النبوي للقرآن الكريم ما يعطي انطباعاً سيئاً عن بعض وجوه قريش^١.

و من هذا جاءت رواية الكليني عن أحمد بن محمد بن أبي نصر قوله : «دفع إليّ أبو الحسن الرضا عليه السلام مصحفاً و قال : لا تنظر فيه، ففتحته و قرأت فيه: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^٢ فوجدت فيها اسم سبعين رجلا من قريش بأسمائهم و أسماء آبائهم. - قال الراوي - : فبعث إليّ الرضا عليه السلام : ابعث إليّ بالمصحف^٣».

و الظاهر من هذه الرواية أنّ المصحف عليه تذييل و توضيحات وضعت لكل سورة. كما و أنّ رقم سبعين يوحي بثقل و قدرة الكتلة القرشيّة في تعيين و تحديد مسار الأحداث التي كانت تشكّل الصورة آنذاك.

و قد طال التحرك الثقافي القراءات القرآنيّة التي أكّدت النصوص صواب هذه القراءات، و من تلك النصوص التي أكّدت صحّة هذه القراءات رواية ابن عباس عن النبي ﷺ قوله : «أقرأني جبرئيل عليه السلام على

^١ - ينظر عبدالزهرء عثمان محمد: المعارضة السياسيّة في تجربة أمير المؤمنين ص ٢٩.

^٢ - البينة : ١.

^٣ - أصول الكافي ٢: ٦٣١ ح ٨.

حرف فراجعته فلم أزل أستزيده فيزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف^١. وكذا رواية أبي بن كعب عن النبي ﷺ عن جبرئيل عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، فَأَيُّمَا حَرْفٍ قَرَأْتَهُ عَلَيْهِ فَقَدْ أَصَابُوا^٢».

و يتحدث الأستاذ خليل عبد الكريم عن التيار القرشي الذي عارض القراءات القرآنية قائلا: «كان عبد الله بن مسعود من أعيان علماء الصحابة، وبعد وفاة الرسول ﷺ رحل إلى الكوفة وأخذ يفيض هناك على المسلمين من علمه الذي نهله من الرسول ﷺ، وأسّس فيها (أي الكوفة) مدرسة مرموقة لها تاريخ ناصع بين مدارس العلم الإسلامي بعمومه. وقد كان في الكوفة ستون شيخاً من أصحاب عبد الله بن مسعود، وكان في بني ثور الذين نزلوا الكوفة ثلاثون رجلاً ما فيهم دون الربيع بن خيثم المشهور بعبادته وورعه وعلو مكانته في الحديث، وكان فيها كميل بن زياد النخعي، وعامر بن شراحيل الشعبي، وسعيد بن جبير الأسدي، وإبراهيم النخعي، وأبو إسحاق السبيعي، وعبد الملك بن عمرو، وغيرهم. وهذا الصحابي العالم عبد الله بن مسعود عندما سمعه عمر بن الخطاب يقرأ «عَتَى حِينَ» أي «حَتَى حِينَ» وهي جزء من الآية ١٧٤ من سورة الصافات، أنكر عليه ذلك وكتب إليه: إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزَلْ بِلُغَةِ هَذِيل - وهي قبيلة عبد الله بن مسعود - فَأَقْرَأِ النَّاسَ بِلُغَةِ قَرِيشَ وَلَا تَقْرَأَهُمْ بِلُغَةِ هَذِيل.

و كان ذلك قبل أن يجمع عثمان الناس على قراءة واحدة. أي أن عمر بن الخطاب كان يرى أنه ليس من حق المسلم أن يقرأ القرآن إلا بلهجة

^١- صحيح مسلم ١: ٥٦١ رقم ٢٧٢ (٨١٩).

^٢- نفس المصدر ١: ٥٦٢ رقم ٢٧٤ (٨٢١).

قريش، على الرغم من وجود حديث صحيح و مشهور «أن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقروا ما تيسر منه». إنَّ عمر بن الخطَّاب أنكر على عبد الله بن مسعود قراءة القرآن بلهجة هذيل، مع وجود الرخصة التي حملها الحديث الشريف الذي كان هو (أي عمر) أحد رواته، و أمره بحزم بضرورة القراءة بلغة قريش حتَّى لا يكون لها أي منافس، لا هذيل ولا غيرها، و ليزداد الناس التفافاً حولها، وهذا منزع سياسي لحماً و دماً^١.

و مجمل الأحداث التي جرت في تاريخ المسلمين تؤكِّد أنَّ التكتُّل القرشيَّ كان قوياً و ضارباً بجذوره في وجدان العرب فأفرز ظاهرة اجتماعية و سياسية أشار لها ابن خلدون عند حديثه عن عصيَّة قريش و أثرها في الأحداث السياسية للمسلمين، كما ظهر في مقتل الحسين عليه السلام قائلاً: «و أمَّا الحسين عليه السلام فإنه لما ظهر فسق يزيد عند الكافة من أهل عصره بعث شيعة أهل البيت بالكوفة للحسين أن يأتيهم فيقوموا بأمره، فرأى الحسين أنَّ الخروج على يزيد متعيّن من أجل فسقه لاسيما من له القدرة على ذلك، و ظنّها من نفسه بأهليّته و شوكته.

فأمّا الأهلية فكانت كما ظنّ و زيادة. و أمّا الشوكة فخلط يرحمه الله فيها، لأنَّ عصيَّة مضر كانت في قريش و عصيَّة قريش في عبد مناف، و عصيَّة عبد مناف إنّما كانت في بني أمية تعرف ذلك لهم قريش و سائر الناس، ولا ينكرونه و إنّما نسي ذلك أوّل الإسلام لما شُغل الناس من الذهول بالخوارق و أمّالوحي و تردّد الملائكة لنصرة المسلمين فأغفلوا أمور عوائدهم، و ذهبت عصيَّة الجاهلية و منازعها و نُسيّت، ولم يبق إلاّ العصيَّة الطبيعية في الحماية و الدفاع ينتفع بها في إقامة الدين و جهاد

١- قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، سينا للنشر، القاهرة - ط الأولى ص ٧.

المشركين، والدين فيها محكم و العادة معزولة، حتّى إذا انقطع أمر النبوة و الخوارق المهولة تراجع الحكم بعض الشيء للعوائد فعادت العصبية كما كانت و لمن كانت، وأصبحت مضر أطوع لبني أمية من سواهم بما كان لهم من ذلك قبل^١».

^١ - تاريخ ابن خلدون ١: ٢٢٨ - ط دار الكتب العلمية بيروت. و المراد بالشوكة هنا على رأي ابن خلدون قوة الحسين عليه السلام العسكرية و القبلية.

المواجهة القرشية لعليّ عليه السلام

كانت معاناة و مقاساة الإمام عليّ عليه السلام مع التكتل القرشي شاقة و مؤلمة، قدحت الحزن في قلبه عليه السلام فقال: «اللهم إني أستعديك على قريش و من أعانهم، فإنهم قطعوا رحمي، و صغروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي أمراً هو لي، ثم قالوا : ألا إن في الحق أن تأخذه و في الحق أن تتركه».

و قال في أصحاب الجمل: «فخرجوا يجرون حرمة رسول الله ﷺ كما تجرّ الأمة عند شرائها، متوجهين بها إلى البصرة، فحبسا نساءهما في بيوتهما، و أبرزوا حبيس رسول الله ﷺ لهما و لغيرهما في جيش ما منهم رجل إلا وقد أعطاني الطاعة، وسمح لي بالبيعة، طائعا غير مكره، فقدموا على عاملي بها و خزّان بيت مال المسلمين و غيرهم من أهلها، فقتلوا طائفة صبراً و طائفة غدرًا. فوالله لو لم يصيبوا من المسلمين إلا رجلاً واحداً معتمدين لقتله بلا جرم جرّة، لحلّ لي قتل ذلك الجيش كلّه، إذ حضروه فلم ينكروا، ولم يدفعوا عنه بلسان ولا بيد، دع ما أنّهم قد قتلوا

من المسلمين مثل العدة التي دخلوا بها عليهم». وفي شكاية له عليه السلام منهم قال أيضاً: «فإنهم قد قطعوا رحمي، وأكفؤوا إنائي، وأجمعوا على منازعتي حقاً كنت أولى به من غيري، وقالوا: ألا إن في الحق أن تأخذه، وفي الحق أن تمنعه، فاصبر مغموماً، أو متأسفاً، فنظرت فإذا ليس لي رافد ولا ذاب ولا مساعد إلا أهل بيتي فضننت بهم عن المنية، فأغضيت على القذى، وجرعت ريقى على الشجا، وصبرت من كظم الغيظ على أمر من العلقم، وآلم للقلب من وخز الشفّار».

و ظل الإمام يئنّ ويشكو من فلول وقوى تتجمع هنا وهناك لتمشق سيف البغي والباطل وتعلن ثورة العصيان والجهل بوجه الهادي المهدي الذي أراد أن يضعهم على جادة الصواب، ولكنهم أبوا و طغوا وحاصروا علياً وأولاده عليهم السلام و جرّعوهم كأس الغموم والهموم. فالمحاصرة لهم عليهم السلام كانت موجودة من مرحلة مضت، إلا أن المحاصرة هنا انسابت لها قوى جديدة لم تكن في الجبهة المعادية لعلي عليه السلام، بل كانت معه يوماً من الأيام، فهنا ضرب أئمة الهدى من قبل الجهال كما ضرب أبوهم من قبل، ولكن القوة الجديدة التي ظهرت كانت على معرفة و دراية بحقهم عليهم السلام، فهنا ظهر أئمة جدّد من أئمة المصالح والشهوات وقفت قبال أئمة الهدى، وبدأت من هناك شرارات تنطلق هنا وهناك، فاشتعلت معركة شعواء بين الإسلام الحقيقي الذي ينتسب إلى النبي وأهل بيته عليهم السلام، وبين الإسلام المزيف الذي لبسه مجموعة من

١- نهج البلاغة ص ٢٤٦ من خطبة له عليه السلام رقم ١٧٢، وهنا يعرض عليه السلام بطلحة والزبير لإخراجهما عائشة في وقعة الجمل.

٢- نهج البلاغة ص ٣٣٦ من كلام له عليه السلام رقم ٢١٧.

الساعين و الداعين لتأمين مصالحهم و منافعهم الشخصية انضاف لهم لاحقاً جمع من السلاطين و خدام السلاطين و ولاية الجور. و قد تجحفل عسكر ضخمة و موّله المنافقون و أعداء الدين تحت لافتة الإسلام الأموي، الذي جرّع الأمة كؤوس الظلم على يد السلاطين و الحكّام الجائرين الذين خرجوا من بيوتهم و بلاطهم، و صار إسلامهم هذا عنواناً متقاطعاً مع الإسلام النبوي الذي أراده الله تعالى و نبيّه ﷺ للأمة.

يقول الورداني : «و كانت صفين هي المنعطف الذي انبثق منه الإسلام الأموي و ساد واقع المسلمين. و كان ضرب خطّ الإسلام النبوي الذي رفع لواءه الإمام علي عليه السلام و توقّعه هو بداية غياب التصرّو الإسلامي الصحيح من هذا الواقع... و منذ ذلك الحين بدأ معاوية و بني أمية من بعده عملية تأسيس جديدة للإسلام معتمدين فيها على الخطّ القبلي و رموزه البارزة و على الرموز الأخرى التي تحالفت معهم...

و أصبح هذا الإسلام هو الإسلام الشرعي الذي حاز على رضا الحكّام على مرّ الزمان من بني العبّاس و غيرهم، فقد وجدوا فيه الحصانة و الشرعية التي تؤهلهم لمواجهة الإسلام النبوي و الخارجين عليهم. و أصبح الإسلام الأموي مباحاً و خطّ الإمام علي عليه السلام محظوراً و مجرماً يبطش بأتباعه و ينكل بهم. و أصبح الإسلام النبوي إسلام باطل يقود إلى النار، و أصبح الإسلام الأموي إسلام حقّ يقود إلى الجنة.

و لقد عاش الإسلام الأموي في كنف الحكومات و رعايتها و حمايتها فتحقّقت له السيادة و البقاء. و ضرب الإسلام النبوي و اغتيل أئمّته فاضطرّ إلى الاختفاء^١.

^١ - صالح الورداني، السيف و السياسة في الإسلام، دار الفاري ببيروت - ط الثانية - ص ١٦٣.

و أول قافلة شهدت الاغتيال السياسي للإسلام النبوي كانت مسطورة في كتاب الغدر الأموي، هي قافلة حجر بن عدي الكندي. و حجر أول من قتل صبراً في الإسلام، حملة زياد من الكوفة و معه تسعة نفر من أصحابه من أهل الكوفة و أربعة من غيرها، فلمّا صار على أميال من الكوفة يراد به دمشق أنشأت ابنته تقول :

ترفع أيتها القمر المنير لعلك أن ترى حجراً يسير
يسير إلى معاوية بن حرب ليقتله كذا زعم الأمير
و يصلبه على بابي دمشق و تأكل من محاسنه النور

و لمّا صاروا إلى مرج عذراء، على اثني عشر ميلاً من دمشق، بعث معاوية له من يقول لهم : تبرّؤوا من أبي تراب و إلا قتلکم، فقال حجر و جماعة ممّن كان معه: «إنّ الصبر على حدّ السيف لأيسر علينا ممّا تدعونا إليه، ثمّ القدوم على الله وعلى نبيّه وعلى وصيّيه أحبّ إلينا من دخول النار» و كان علي عليه السلام أخبره عن هذا بقوله له : «كيف لي بك إذا دعيت إلى البراءة منّي، فما عساك أن تقول؟» فقال حجر : «و الله يا أمير المؤمنين، لو قطعّ بالسيف إرباً إرباً و أضرمّت لي النار و ألقيت فيها لآثرت ذلك على البراءة منك» فقال عليه السلام : «وقفت لكلّ خير يا حجر، جزاك الله خيراً عن أهل بيت نبيّك^١». و هكذا كان حجر و من جاء بعده أو رافقه أو عايشه يمثلون الإسلام النبويّ تمثيلاً صادقاً و رائعاً.

و من الذين مثّلوا الإسلام النبويّ عمرو بن الحمق الخزاعي، و الذي قال لعلي عليه السلام حين اضطرب أصحابه و جنده في صفّين: «يا أمير المؤمنين، إنّنا والله ما أجبناك ولا نصرناك عصيّة على الباطل، ولا أجبنا إلا

^١ - ينظر مروج الذهب للسعودي ٣: ٣.

^٢ - بحار الأنوار ٤٢: ٢٩٠.

لله عز وجلّ، ولا طلبنا إلا الحقّ، ولودعانا غيرك إلى ما دعوت إليه لاستشرى فيه اللجاج و طالّت فيه النجوى، وقد بلغ الحقّ مقطعه، و ليس لنا معك رأي^١»، حيث نفى الرأي و القياس والنظر له ولجماعته مع وجود علي عليه السلام بينهم، و هذا تسليم و اعتقاد يقينيّ منه صادق بأنّه يسير خلف إمام معصوم كامل مسدّد، لا يأخذ به إلّا نحو الصواب.

و لما وجد علي عليه السلام فيه بصيرةً في نصرته قال: «اللهم نور قلبه بالتقى، واهده إلى صراطك المستقيم، ليت أن في جندي مائة مثلك^٢» و قد أخبره عليه السلام عن شهادته و قال له: «إنك لمقتول بعدي، وإن رأسك لمنقول، وهو أول رأس ينقل في الإسلام، والويل لقاتلك^٣» و قد قالوا فيه: إن عمرو بن الحمق كان من أمير المؤمنين عليه السلام، بمنزلة سلمان من رسول الله ﷺ.

و من خطّ الإسلام النبويّ عمار بن ياسر صاحب القول الشهير في صفّين: «و الله، لو ضربونا حتّى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أنا على الحقّ و هم على الباطل».

و قد قال فيه النبيّ ﷺ: «إنّ الجنّة لتشتاق إلى ثلاثة: عليّ، و عمار، و سلمان». وقال عليه السلام له أيضاً: «إنك من أهل الجنّة، وتقتلك الفئة الباغية»^٤ يشير عليه السلام إلى أصحاب معاوية الذين بغوا على علي عليه السلام، و أخذته سيوفهم جهلاً بقدر هذا الصحابيّ الجليل و سقوه كأس الشهادة.

١- وقعة صفّين ص ٤٨٢.

٢- ينظر بحار الأنوار ٣٢: ٣٩٩، ٣٤: ٢٧٧.

٣- بحار الأنوار ٣٤: ٣٠٠، ج ٤١: ٣٤٢.

٤- الاختصاص للشيخ المفيد ص ٧.

٥- وقعة صفّين ص ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٦، ٣٤١.

و من الأعلام الذين انتسبوا إلى هذا الخطّ أويس القرنيّ المراديّ الذي قال فيه عليه السلام: «تفوح روائح الجنّة من قبل قرن، و اشواقه إليك يا أويس القرن! ألاومن لقيه فليقرئه منّي السلام» - ف قيل له : يا رسول الله ، و من أويس القرنيّ؟

قال عليه السلام : «إن غاب عنكم لم تفتقدوه، و إنّ ظهر لكم لم تكثرثوا به، يدخل الجنّة في شفاعته مثل ربيعة و مضر، يؤمن بي و لا يراني، و يقتل بين يدي خليفتي أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب في صفّين».

و قد أشار الإمام الكاظم عليه السلام للرساليّين من الطبقة الأولى السائرين على خطّ الإسلام النبوّيّ في حديث له عليه السلام قائلا: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين حواريوّ محمّد بن عبد الله عليه السلام الذين لم ينقضوا العهد و مضوا عليه؟ فيقوم سلمان، و المقداد، و أبوذر. ثمّ ينادي مناد: أين حواريوّ عليّ بن أبي طالب وصيّ محمّد بن عبد الله عليه السلام؟ فيقوم عمرو بن الحمق الخزاعي، و محمّد بن أبي بكر، و ميثم بن يحيى التمار (مولى بني أسد)، و أويس القرني. ثمّ ينادي مناد: أين حواريوّ الحسن بن عليّ بن فاطمة ابنة محمّد عليه السلام؟ فيقوم سفيان بن أبي ليلى الهمداني، و حذيفة بن أسيد الغفاري. ثمّ ينادي مناد: أين حواريوّ الحسين عليه السلام؟ فيقوم كلّ من استشهد معه و لم يتخلّف عنه.

ثمّ ينادي مناد: أين حواريوّ عليّ بن الحسين عليه السلام؟ فيقوم جبير بن مطعم، و يحيى بن أمّ الطويل، و أبو خالد الكابلي، و سعيد بن المسيّب. ثمّ ينادي مناد: أين حواريوّ محمّد بن عليّ و حواريوّ جعفر بن محمّد عليه السلام؟ فيقوم عبد الله بن شريك العامري، و زرارّة بن أعين، و بريد

بن معاوية العجلي، و محمد بن مسلم، و أبو بصير (ليث بن البخثري المرادي)، و عبد الله بن أبي يعفور، و عامر بن عبد الله بن جذاعة، و حجر بن زائدة، و حمران بن أعين. ثم ينادي سائر الشيعة مع سائر الأئمة عليهم السلام يوم القيامة^١.

و المذكورون هنا هم نخب و نماذج التقطتهم عدسة التاريخ فخرجت أسماؤهم على لسان الرواة و دوتهم أقلام الكتّاب، والذين لم تصلنا أسماؤهم سمّاهم أبو جعفر الباقر عليه السلام بقوله: «شيعة علي عليه السلام الشاحبون الناحلون الذابلون، ذابلة شفاههم، خميصة بطونهم، متغيرة ألوانهم، مصفرة وجوههم، إذا جنّهم الليل اتّخذوا الأرض فراشاً، و استقبلوا الأرض بجباههم، كثير سجودهم، كثيرة دموعهم، كثير دعاؤهم، كثير بكاؤهم، يفرح الناس و هم محزونون»^٢.

^١ - رجال الكشي ص ٩ رقم ٢٠.

^٢ - الخصال للصدوق ص ٤٤٤ ح ٤٠.

الإسلام الأموي

كان الخطّ القبليّ الذي تجسّد ببيوتات اعتنقت الإسلام خوفاً و طمعاً بمثابة الأعشاب الضارة و الطفيلية التي غطّت الساحة الإسلامية، و منهم برز برعم أمويّ حين دار الزمان دورته، و طمع أبناء الطلقاء في أن يكونوا هم ولاة أمر المسلمين، و تحقّق لهم ما كانوا يرومونه، فبرز معاوية بن أبي سفيان منهم ملكاً و سلطاناً حكم باسم الدين.

و ما كان معاوية يحلم يوماً ما بتلك العظمة فيتسلّم عرش الخلافة الإسلامية، لقد كان ذليلاً تحت عزّة الإسلام، ووسم هو وأبوه وحزبهم الفاشل بالطلاق يوم فتح الله على نبيّه و نصره نصراً عزيزاً، و دخلوا في الإسلام و قلوبهم مملوءة بالحقد على الإسلام يتربّصون الفرص لمحو سطورهِ و قلع جذوره، و ما تغيّر شيء من نفس أبي سفيان بعد دخوله في حضيرة الإسلام قلامة ظفر.

فلا يُستغرب من معاوية تلك المقابلة التي قابل بها عليّاً بوجه لا يعرف الخجل، لأنّه وريث ذلك العداء المتأصّل بين بني هاشم و بني أميّة، فتلك عداوة جوهريّة ذاتيّة يستحيل تحويلها و يمتنع زوالها. فما أعظم محنة المسلمين و ما أشدّ بليّتهم عندما يعود أمرهم لخصوم لا

يعرفون الرحمة، و لا عهد لهم بالعدل ! و ناهيك بما في القلوب من حقد، و بما في النفوس من حب الانتقام، و قد آن الآوان لتحريك ساكن الغلّ و إظهار مكنون العداة.

فحصل معاوية على بيعته بالقتل و التدمير و التحريق و شتمه أنصار رسول الله ﷺ، و استغلّ أموال المسلمين التي جمعها خلال عشرين عاماً بولايته على الشام، لتوطيد سلطانه بعد أن أخرج أموال المسلمين عن مصارفها الشرعية. و ربّ معاوية عطاء اسمه: رزق البيعة، يعطى للجند عند تعيين خليفة جديد. و تأكّد أنّ المطلب الحقيقي لمعاوية هو الملك عندما كتب وصيّته من بعده ليزيد ابنه، و أخذ له البيعة بالقوة، وأمّره على صحابة رسول الله ﷺ بالرغم من مُجونه، وقلّة دينه، و سوء خلقه، فأوصاه: «إذا ثار أهل المدينة فأرسل إليهم مسلمة بن عقبة». و كان مع مسلمة قائمة بأسماء الطاهرين من الصحابة ليقتلهم و احداً واحداً، و يدخل عقبة عاصمة النبي ﷺ و يفعل الأفاعيل التي تضجّ منها السماء، و مروان دليل الجيش يؤشّر وعقبة وجيشه المظفر ينفذ و يعدم بغير رحمة، و تمّ تنفيذ أبشع مجزرة. و كان من نتيجة هذه الوصية أن :

١- أبيد من حضر من البدرين بالكامل.

٢- أبيد من قریش و من الأنصار سبعمائة رجل.

٣- أبيد من الموالي و العرب عشرة آلاف^١.

و قد أجاد صعصعة بن صوحان العبدي في وصف معاوية عندما طلب منه أن يصفه بالحقّ و العدل فقال: «أنّى يكون الخليفة من ملك الناس قهراً، و دانهم كبراً، و استولى بأسباب الباطل كذباً و مكرّاً ! أما و الله، مالك في يوم بدر مضرب و لا مرمى، و ما كنت فيه إلّا كما قال

^١ - المحامي أحمد حسين يعقوب، نظرية عدالة الصحابة ص ٤٧.

القائل : لا حلّ ولا سبى. ولقد كنت أنت وأبوك في العير والنفير ممّن أجلب على رسول الله ﷺ، وإنّما أنت طليق بن طليق، أطلقكما رسول الله ﷺ فأنتى تصلح الخلافة لطلق^١! و هكذا كانت أصوات الحقّ تجابهه، لأنّهم ليسوا بخلفاء حقّ، لا جاؤوا عن وصيّة نبويّة، ولا شورى، ولا بيعة، ولا باختيار أهل الحلّ والعقد باعتقاد أهل السنّة والجماعة، فهم يرون الخلافة والإمامة يمكن أن تكون بهذه الطرق، أو غيرها. وإنّما سلطانهم جاء عن عصيان و شقاق و بغي فاستأثروا بالحكم، و كما روى أهل السنّة والجماعة عن النبي ﷺ مسنداً إلى سعيد بن جمهان، عن سفينة أنّه قال : «الخلافة في أمّتي ثلاثون سنة ثمّ ملك بعد ذلك». قال سعيد: قلت لسفينة : إنّ بني أميّة يزعمون أنّ الخلافة منهم، قال سفينة : كذبوا بنو الزرقاء، بل هم ملوك من شرّ الملوك، فهم ملوك جاؤوا لدنيا فانية، ورغبات ونزوات ركبتهم من جاهليّتهم، و بقي فيهم حتّى بعد إسلامهم، و لم يكن معاوية إلا وارثاً لأبي سفيان، و راعياً لمزرعته الجاهليّة.

و من هنا يقول مهران : أراد معاوية أن يجعل من الخلافة الإسلاميّة مزرعة أمويّة، و من ثمّ فقد استحدث في الإسلام بدعة وليّ العهد فاستخلف ولده يزيد على سلطان المسلمين من بعده، فغيّر بذلك السنّة الموروثة تغييراً خطيراً الأمر الذي أدّى إلى مذبحة كربلاء التي راح ضحيتها أهل بيت النبي ﷺ و ذبحت ذريّته، فضلاً عن الاستباحة الخليعة لحرم رسول الله ﷺ بالمدينة في يوم الحرّة، والاعتداء على حرم

١- مروج الذهب ٣ : ٤٠.

٢- الجامع الصحيح للترمذي ٤ : ٥٠٣ ح ٢٢٢٦، كتاب الفتن باب: ماجاء في الخلافة، مسند أحمد ٥ : ٢٢١.

الله الآمن بمكة المكرمة^١.

وكان هذا لما أخرج أهل المدينة عامله (أي : يزيد) - عليهم - وهم: عثمان بن محمد بن أبي سفيان، و مروان بن الحكم، وسائر بني أمية، وذلك عند تنسك ابن الزبير و تأله، وإظهار الدعوة لنفسه، وذلك في سنة ثلاث وستين. وكان إخراجهم بني أمية وعامل يزيد عن إذن ابن الزبير، فاغتنمها مروان منهم، إذ لم يقبضوا عليهم و يحملوهم إلى ابن الزبير، فحثوا السير نحو الشام، و وصل فعل أهل المدينة ببني أمية و عامل يزيد، إلى يزيد فسير إليهم بالجيوش من أهل الشام و عليهم مسلم بن عقبة المرّي، الذي أخاف المدينة و نهبها و قتل أهلها، و بايعه أهلها على أنهم عبيد ليزيد، و سماها ننتة، و قد سماها رسول الله ﷺ طيبة... و قال ﷺ: «من أخاف المدينة أخافه الله» فسمي مسلم هذا بمجرم و مسرف، لما كان من فعله و بايع الناس على أنهم عبيد ليزيد، و من أبى ذلك عرضه مسرف على السيف غير علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب السجّاد عليه السلام، و علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب.

و نظر الناس إلى علي بن الحسين السجّاد و قد لاذ بالقبر - قبر النبي ﷺ - و هو يدعو فأتي به إلى مسرف و هو مغتاض عليه، ف تبرأ منه و من آبائه، فلمّا رآه و قد أشرف عليه ارتعد و قام له و أقعده إلى جانبه و قال له : سلني حوائجك، فلم يسأله عليه السلام في أحد ممّن قدّم إلى السيف إلا شفعه فيه ثم انصرف عنه، ف قيل له عليه السلام: رأيناك تحرك شفّتيك، فما الذي قلت؟ قال : «قلت : اللهم ربّ السماوات السبع و ما أظللن، و الأرضين السبع و ما أقللن، ربّ العرش العظيم، ربّ محمد و آله

^١ - محمد بيومي مهران، الإمامة و أهل البيت ١: ١٣٧.

الظاهرين، أعوذ بك من شره وأدراً بك في نحره، أسألك أن تؤتيني خيره، و تكفيني شره». و قيل لمسلم : رأيناك تسبّ هذا الغلام و سلفه، فلمّا أتى به إليك رفعت منزلته؟ فقال : كان ذلك لرأي منّي، لقد ملئ قلبه منه رعباً^١.

السلطة الأموية والحسن عليه السلام

أخذ كلّ إمام معصوم حفظه وقسطه من المعاناة والحقد والجهل القرشيّ الذي امتدّ إلى السلطتين: الأموية والعباسية على يد فراعتها، فنال الحسن عليه السلام ما قدّر له من جرعات السمّ، على يد جعدة بنت الأشعث، بأمر من السلطة الأموية في زمن معاوية بن أبي سفيان عام خمسين للهجرة فرزق الشهادة عن سنّ سبع وأربعين أو ثمان وأربعين سنة بعد أن تخلّى عن السلطة الظاهرية والحكومة الدنيوية، كما أنّه عليه السلام كان قد تلقّى من جهال جيشه ومن عدوّه ما لا يطاق من الأذى^٢. و جرت محاولات عديدة لاغتياله بالسمّ من قبل^٣ إضافة إلى مالاقيه من الشتم والغدر، ومن ذلك أن جهالاً من جيشه قالوا: كفر - والله - الرجل وشدّوا على فسطاطه و انتهبوه حتّى أخذوا مصلاه من تحته، ثمّ شدّ عليه عبدالرحمن بن عبدالله بن جعال الأزدي فتزع مطرفه عن عاتقه فبقي جالساً متقلداً بالسيف بغير رداء ثمّ دعا بفرسه و ركبه، و أحدق به طوائف من خاصّته ومن شيعته ومنعوا منه من أراده فقال عليه السلام: «ادعوا لي ربيعة وهمدان»، فدعوا له فأطافوا به، و أوقفوا الناس عنه و سار عليه السلام و معه شوب من غيرهم. فلمّا مرّ في مظلم ساباط بدر إليه رجل من بني أسد يقال له :

^١ - مروج الذهب للمسعودي ٣: ٦٩.

^٢ - بحار الأنوار ٤٤: ١٣٥؛ أصول الكافي ١: ٤٦١ و ٤٦٢.

^٣ - ينظر جعفر البياتي: ما منّا إلّا مقتول أو مسموم، نشر كوثر كوير ص ٦٣.

الجرّاح بن سنان، وأخذ بلجام بغلته و بيده مغول و قال : الله أكبر، أشركت يا حسن كما أشرك أبوك من قبل، ثمّ طعنه في فخذه فشقه حتّى بلغ العظم، ثمّ اعتنقه الحسن عليه السلام و خرّاً جميعاً إلى الأرض، فوثب إليه رجل من شيعة الحسن عليه السلام، يقال له : عبد الله بن خطل الطائي، فانتزع المغول من يده، وخضخض به جوفه فأكبّ عليه آخر، يقال له: ظبيان بن عمارة، فقطع أنفه فهلك من ذلك، و أخذ آخر كان معه فقتل، و حمل الحسن عليه السلام على سرير إلى المدائن فأنزل به على سعد بن مسعود الثقفي، و كان عامل أمير المؤمنين عليه السلام بها فأقرّه الحسن عليه السلام على ذلك، و اشتغل الحسن عليه السلام بنفسه يعالج جرحه^١.

بهذا الشكل المأساوي يُواجه إمام معصوم و يُشاكس، و كأنّه فارس متمرّد على قومه، أو خرج على إجماع الأمة؟! و نسوا أنّ الجيش الذي كان يقوده بصفته خليفة المسلمين قد أوجده جدّه وأبوه.

فما كان من الحسن عليه السلام إلا أن يجري - مضطراً أو مجبراً - مصالحة ومهادنة مع السلطان الأموي، الذي أعدّ العدة لكي يريق الدماء لاحقاً من أجل إشباع رغبته في الحكم والسلطان، وبعد أن رأى عليه السلام في جيشه فشلاً وتواكلاً عن الحرب فنزل ساباط وقام فيهم خطيباً: «أيّها الناس، إنّي قد أصبحت غير محتمل على مسلم ضغينة، وإنّي ناظر لكم كنظري لنفسي، وأرى رأياً فلا تردّوا عليّ رأيي، إنّ الذي تكرهون من الجماعة أفضل ممّا تحبّون من الفرقة، وأرى أكثركم قد نكل عن الحرب، وفشل عن القتال، ولست أرى أن أحملكم على ما تكرهون^٢». لقد كان الحسن عليه السلام مصيباً في قراره بتلك الظروف لإجراء المصالحة و عقد هدنة

١- الإرشاد الشيخ المفيد ص ١٩٠.

٢- الأخبار الطوال للدينوري ص ٢١٦.

مع سلاطين الجور، لأنه عليه السلام كان يعاني من نارين محدقتين به: النار الأولى: كانت هي النار الأموية، والنار الثانية: كانت في أرضه من صحبه و جيشه الضعيف. فكان عليه السلام في وضع حرج و صعب للغاية لا يسمح له في مواصلة الحرب. ويتحدث الباقر عليه السلام عن محنته مع الأمة والسلطة الأموية فيقول عليه السلام: «و ثب أهل العراق على الحسن عليه السلام حتى طعن بخنجر في جنبه وانتهب عسكره، وعولجت خلاخيل أمهات أولاده فوادع معاوية وحقق دمه و دماء أهل بيته^١». و لم تختتم هذه المعاناة والمأساة التي كان يلاقيها الحسن عليه السلام من جهة الشام والعراق معاً، ولكنه كان يحتسب ويصبر، إلا أن مواجهات و مناقشات كانت تحدث بينه وبين معاوية، لم يكن الحسن عليه السلام يدعها دون أن يصوب سهام الحق يرشق بها جبين معاوية ومن اصطف معه. و حينما قدم معاوية المدينة نال من علي بن أبي طالب عليه السلام، فقام عندها الحسن عليه السلام خطيباً فحمد الله و أثنى عليه ثم قال: «إنه لم يبعث نبي إلا جعل له وصي من أهل بيته، ولم يكن نبي إلا وله عدو من المجرمين، وإن علياً عليه السلام كان وصي رسول الله من بعده، و أنا ابن علي و أنت بن صخر، وجدك حرب، وجدتي رسول الله ﷺ، و أمك هند، و أمي فاطمة عليها السلام، و جدتي خديجة (رضي الله عنها)، وجدتك ثيلة، فلعن الله الأمنا حسباً، و أقدمنا كفرأ، و أحمّلنا ذكراً، و أشدنا نفاقاً» فقال عامة أهل المسجد: آمين، و قطع خطبته. و كان الحسن عليه السلام شوكة في عيون السلطة الأموية وقذى يؤذيهم و يقلقهم، لذا كانت رجالهم تعدّ العدة لنزع هذه الشوكة، ومن ثم كسر هذه الشوكة وإتلافها، فكان لها ما أرادت، ولكن أبناء علي عليه السلام و أبطال

^١ - بحار الأنوار ٤٤ : ٦٨.

^٢ - الاحتجاج للطبرسي ص ٢٨٢.

الرسالة الآخرين سدّوا مسدّ الإمام الثاني العبارة غامضة الذي قضى شهيداً بيد الغدر و الخيانة، ليجدوا خصماً عنيداً آخر اشتبك معهم لم ولن يضعف في مقارعتهم و مقارعة الذين معهم وشاركوهم طغيانهم.

مواجهة السلطة الأموية مع الحسين عليه السلام

كانت السلطة الأموية ترى أنّ المعركة لم تختم فصولها مع علي عليه السلام وآله، مادام الحسين عليه السلام في المدينة مركز الوحي و موطن الصحابة، لكنّها لم تجد سبيلاً عليه ما دام الحسين عليه السلام يحترم المواثيق و العهود، كما أنّ الطرف لم يسمح لكي يتحرّك وفقاً لمتغيّرات الظروف و ما تقتضيه مصلحة المسلمين، إلا أنّها كانت تراقبه عن بعد و تضع الخطط لمواجهته، و ممّا يروى في هذا أنّ معاوية دعا مروان بن الحكم فقال له: «أشر عليّ في الحسين عليه السلام»، فقال مروان: «أرى أن تخرجه معك إلى الشام و تقطعه عن أهل العراق، و تقطعهم عنه»، فقال معاوية: «أردت والله أن تستريح منه و تبثّليني به، فإن صبرت عليه صبرت على ما أكره، وإن أسأت إليه قطعت رحمته»، فأقامه و بعث إلى سعيد بن العاص فقال له: «يا أبا عثمان، أشر عليّ في الحسين»، فقال: «إنك - والله - ما تخاف الحسين إلا على من بعدك، و إنّك لتخلف له قرناً إن صارعه ليصرعته، و إن سابقه ليسبقته، فذر الحسين بمنبت النخلة يشرب الماء، و يصعد في الهواء، و لا يبلغ إلى السماء». وكأنّه أشار عليه بأنّ يتركه و شأنه لكن يضع عليه العيون فترقبه.

و الإبقاء على الحسين عليه السلام في المدينة بعيداً عن العراق و شيعته بمثابة محاصرة و قيد يمنعه من الحركة و الثورة، فلقي الحسين عليه السلام العنت

والضيق من السلطة الأموية التي كانت ترصده و تراقبه بدقّة، و كما ظهر في كتاب كتبه مروان بن الحكم والي معاوية على المدينة والذي جاء فيه: «أما بعد فإن عمرو بن عثمان ذكر أنّ رجالاً من أهل العراق ووجوه أهل الحجاز يختلفون إلى الحسين بن عليّ. و ذكر أنّه لا يأمن وثوبه، و قد بحثت عن ذلك فبلغني أنّه لا يريد الخلاف يومه هذا، ولست آمن أن يكون هذا أيضاً لما بعده، فاكذب إليّ برأيك في هذا والسلام». فكتب إليه معاوية: «أما بعد فقد بلغني و فهمت ما ذكرت فيه من أمر الحسين، فإنّك أن تعرض للحسين في شيء و اترك حسينا ما تركك، فإنّا لا نريد أن نعرض له في شيء ما وفي بيعتنا، و لم ينازعنا سلطاننا، فاكمن عنه ما لم يبد لك صفحته و السلام.

وكتب معاوية إلى الحسين بن عليّ عليه السلام: «أما بعد، فقد انتهت إليّ أمور عنك إن كانت حقاً فقد أظنك تركبها رغبة فدعها، ولعمرك، إنّ من أعطى الله عهده و ميثاقه لجدير بالوفاء، فإن كان الذي بلغني باطلاً فإنك أنت أعزل الناس لذلك، وعظ نفسك فاذكر، وبعدها أوف، فإنك متى ما تنكرني أنكرك، ومتى ما تكدني أكذك، فاتق شق عصا هذه الأمة، وأن يرذهم الله على يديك في فتنة، فقد عرفت الناس وبلوتهم فانظر لنفسك و لدينك ولأمة محمد، ولا يستخفّنك السفهاء و الذين لا يعلمون». فلمّا وصل الكتاب إلى الحسين عليه السلام كتب إليه: «أما بعد، فقد بلغني كتابك تذكر أنّه قد بلغك عني أمور أنت لي عنها راغب، و أنا بغيرها عندك جدير، فإن الحسنات لا يهدي لها ولا يسدّد إليها إلا الله. وأمّا ما ذكرت أنّه انتهى إليك عني، فإنّه إنّما رقاہ إليك الملاقون المشاؤون بالنميم، وما أريد عليك حرباً ولا عليك خلافاً، وایم الله، إنّني لخائف لله في ترك ذلك، وأظنّ الله راضياً بترك ذلك، ولا عاذراً بدون الإعذار فيه إليك، وفي أولئك

القاسطين الملحدين: حزب الظلمة، وأولياء الشياطين.

ألست القاتل حجراً أخا كندة والمصلين العابدين الذين كانوا ينكرون الظلم، ويستعظمون البدع، ولا يخافون في الله لومة لائم، ثم قتلتم ظلماً وعدواناً من بعد ما كنت أعطيتهم الأيمان المغلظة والمواثيق المؤكدة، ولا تأخذهم بحدث كان بينك وبينهم، ولا بإحنة^١ تجدها في نفسك؟

أولست قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله ﷺ العبد الصالح الذي أبلته العبادة، فنحل جسمه، وصفر لونه، بعد ما أمنتته وأعطيته من عهد الله و موثيقه ما لو أعطيته طائراً لنزل إليك من رأس الجبل، ثم قتلته جرأة على ربك واستخفافاً بذلك العهد؟

أولست المدعي زياد ابن سمية المولود على فراش عبيد ثقيف فزعمت: أنه ابن أبيك؛ وقد قال رسول الله ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر» فتركت سنة رسول الله تعمداً، وتبعت هواك بغير هدى من الله، ثم سلطته على العراقيين، يقطع أيدي المسلمين وأرجلهم، و يسمل أعينهم و يصلبهم على جذوع النخل، كأنك لست من هذه الأمة و ليسوا منك؟

أولست صاحب الحضرميين الذين كتب فيهم ابن سمية: أنهم كانوا على دين علي صلوات الله عليه، فكتبت إليه أن: «أقتل كل من كان على دين علي»، فقتلهم ومثل بهم بأمرك؟ ودين علي عليه السلام، والله، الذي كان يضرب عليه أباك و يضربك، و به جلست مجلسك الذي جلست، و لولا ذلك لكان شرفك و شرف أبيك الرحلتين^٢. وقلت فيما قلت: انظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد، و اتق شق عصا هذه الأمة أن تردهم إلى فتنة.

^١ - الإحنة : الحقد و الضغينة. لسان العرب (أحن).

^٢ - يشير عليه السلام إلى سورة قريش و الإيلاف الذي ذكره القرآن في رحلتي الشتاء و الصيف.

وإنِّي لأعلم فتنة أعظم على هذه الأمة من ولايتك عليها، ولا أعلم، نظرا لنفسي و لديني ولأمة محمد ﷺ علينا أفضل من أن أجاهدك، فإن فعلت فإنه قربة إلى الله، وإن تركته فإنِّي أستغفر الله لذنبي، وأسأله توفيقه لإرشاد أمري. وقلت فيما قلت: إنِّي إن أنكرتكَ تنكرني، وإن أكذك تكذني، فكذني ما بدا لك، فإنِّي أرجو أن لا يضرني كيدك فيّ، وأن لا يكون على أحد أضرّ منه على نفسك، لأنك قدركبت جهلك، وتحرّصت على نقض عهدك، و لعمرى ما وفيت بشرط، ولقد نقضت عهدك بقتلك هؤلاء النفر الذين قتلتهم بعد الصلح والأيمان والعهود والمواثيق، فقتلتهم من غير أن يكونوا قاتلوا، و قتلوا و لم تفعل ذلك بهم إلّا لذكركم فضلنا، وتعظيمهم حقنا، فقتلتهم مخافة أمر لعلك لو لم تقتلهم متّ قبل أن يفعلوا، أو ماتوا قبل أن يدركوا.

فابشر يامعاوية بالقصاص، واستيقن بالحساب، واعلم أن الله تعالى كتّابا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وليس الله بناس لأخذك بالظنة، و قتلك أوليائه على التّهم، ونفيك أوليائه من دورهم إلى دار الغربة، وأخذك الناس ببيعة ابنك غلام حدث، يشرب الخمر، ويلعب بالكلاب، لا أعلمك إلا وقد خسرت نفسك و بترت دينك، وغششت رعيّتك، و أخزيت أمانتك، وسمعت مقالة السفية الجاهل، وأخفت الورع التقى لأجلهم والسلام». فهنا أشار الحسين (عليه السلام) إلى موضوع انتقال السلطة ووراثه الحكم بدون دليل شرعيّ ولا حساب لمصالح الأمة، و إنّما كانت رغبة وشهوة جاهليّة قبيّة قديمة تحصر السلطة و نظام الحكم بيد مجموعة من الأبناء، وكأنّه صارت الأمة بمثابة عبيد يُساقون لخدمة الأولاد والأحفاد.

و لم يكن الأمويون أول من أسس نظام الحكم الوراثي في التاريخ العربي، فقبلهم بوقت طويل كانت الغساسنة و المناذرة في الشمال، واليمانيون في جنوب جزيرة العرب قد أسسوا ملكيات وراثية، كما عهدت المجتمعات القبلية العربية ما قبل الإسلام نظاماً مشابهة، كان فيها الزعيم القبلي يورث السلطة إلى أحد أبنائه، أو لأي من كبار قبيلته. وكان العنصر الجديد الذي أدخله الأمويون في هذا النظام؛ هو ولاية العهد التي كانوا هم الذين ابتدعوها كوسيلة لإبقاء الخلافة في ذريتهم من ناحية، ولتقل السلطة بطريقة منظمّة من ناحية ثانية. وكان معاوية بن أبي سفيان هو أول من ابتدع نظام ولاية العهد عندما عيّن سنة ٥٦ هـ، ابنه يزيد في هذا المنصب، ودعا الناس إلى مبايعته^١. و كان معاوية قد عمل على تأكيد هذه البيعة وأخذ الناس بها، ولم تكن موافقة أهل العراق صريحة وواضحة، أو أنهم لم يوافقوا على تولية يزيد، كما أن الحسين عليه السلام كان يرى أنه أحقّ من يزيد بهذا الأمر، وكان على اتصال بأهل العراق زمن معاوية الذين طلبوا إليه الخروج، لكنّه أبى عليهم لأنّه قد عاهد معاوية^٢ و بعبارة أصحّ سكت عليه أو صبر على معاوية انتظاراً للفصول الأخرى.

ثورة الحسين بن علي عليه السلام

ولمّا تمادت السلطة الأموية في غيها وعتوها - و كأنّها تجاهلت ما تعارف عليه المسلمون، من اعتبارات في اختيار الخليفة الذي ينبغي أن يتولّى زمام الأمور العامة للمسلمين - فطرح يزيد بن معاوية خليفة

^١ - الدكتور عصام سخيني: العباسيون في سنوات التأسيس، المؤسسة العربية للدراسات و النشر - بيروت ص ١١١.

^٢ - ثابت إسماعيل الراوي: العراق في العصر الأموي ص ١٦٥.

للأمة، وقالت: ماعلى الأمة إلا أن تباع و تبارك ليزيد الذي وصفه المسعودي: «بأنه صاحب طرب، وجوارح، وكلاب، وقرود، وفهود، ومنادمة على الشراب».

ومن هنا كان هذا الأمر لا يمكن قبوله من مسلم جاهل لاعلم له بالسياسة و أحكام الدين، فكيف يمكن لإمام معصوم كامل، نشأ في بيت الوحي و مهبط الملائكة، أن يظل صامتاً على هذا الوضع من غير أن يعلن احتجاجه و صرخته، فانبرى الحسين عليه السلام يعدّ العدة للقيام بثورة أو انتفاضة يصحّ فيها الأوضاع الشاذّة التي آلت إليها أوضاع المسلمين. وكانت هناك من قبل تحرّكات من قبل الشيعة بالعراق كتبوا فيها إلى الحسين عليه السلام في خلع معاوية والبيعة له، إلا أنه عليه السلام امتنع عليهم و ذكر أن بينه وبين معاوية عهداً وعقداً لا يجوز له نقضه حتّى تمضي المدة، فإذا مات معاوية نظر في ذلك.

فلما مات معاوية، وذلك للنصف من شهر رجب سنة ستين من الهجرة، كتب يزيد إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وكان على المدينة من قبل معاوية، أن يأخذ الحسين عليه السلام بالبيعة له ولا يرخص له في التأخير عن ذلك، فأنفذ الوليد إلى الحسين عليه السلام في الليل فاستدعاه فعرف الحسين عليه السلام الذي أراد، فقال له بعد أن جرى بينهما حوار: «إنّي لا أراك تقنع ببيعتي ليزيد سرّاً حتّى أباعه جهراً فيعرف ذلك الناس» فقال له الوليد: أجل، فقال الحسين عليه السلام «فتصبح وترى رأيك في ذلك» فقال له الوليد: انصرف على اسم الله تعالى حتّى تأتينا مع جماعة الناس^١. فلما كان من الغد أعدّ الحسين عليه السلام عدّته و تهيأ للخروج من المدينة لتكون

^١ - مروج الذهب للمسعودي ٣ : ٦٧.

^٢ - ينظر بحار الأنوار ٤٤ : ٣٢٤.

بداية الثورة الحسينية العارمة في التاريخ.

و كانت سنة إحدى و ستين للهجرة البيان الأول للثورة العلوية الحسينية التي خطّطت وأرادت تصحيح الأوضاع، وقلب نظام الكفر والشرك في دمشق. وفي أرض العراق وعاصمة الإسلام العلوي أعلن الحسين عليه السلام ثالث إمام معصوم بأنّ دولة الباطل و البغي التي أقامت صرحها في دمشق يجب أن تتقوَّض و تزول، ليعود دين محمد صلى الله عليه وآله، كنظام حكم و دولة على الأرض التي أورثها الله عباده الصالحين، ولكن مشيئة الله وغفلة المسلمين لم تكن تسمح بأن تسقط هذه الدولة الطارئة التي طغى فسادها وعلا ظلامها، فتعالت صيحات هنا و هناك، و انتضيت سيوف وعلت رماح مرة أخرى لم تكن مسددة، أولم يكتب لها النصر الذي حجبته الله عن وليّه الحسين عليه السلام في كربلاء، لتظهر سيوف و رماح جديدة تضرب رؤوس النظام الأموي ضربات أخرى أرادها الله.

وكانت سيوف ورماح زيد بن علي بن الحسين عليه السلام المستشهد عام ١٢١هـ أقوى السيوف و أمضاها، لكن المقادير لم تكتب لهذه السيوف والرماح أن تنتصر وتعلو على هامات بني أمية، فظلت دولتهم تنتظر ضربات قاضية تطيح بكيانها الظالم، و ظلّ أبناء علي عليه السلام وغيرهم ممّن عرفوا عدل الإسلام و أنواره يواصلون ضرباتهم على رؤوس النظام الأموي، الذي استبدّ بطغيانه وعلوه وعتوه، بعد أن تداول و توارث أبناؤه و أنصاره دابة الشرك والكفر التي امتطوها السنين الطوال قدروها بألف شهر^١. فلم تنفع معهم موعظة ولا نصيحة، سوى رشقات السهام وضربات السيوف، فعندها أخذت دولة بني أمية تتضعضع، و بدأت أركانها

١- يقول المسعودي: «كان جميع ملك بني أمية إلى أن بويع أبو العباس السفاح ألف شهر كاملة لا تزيد و لا تنقص، لأنهم ملكو تسعين سنة و أحد عشر شهراً و ثلاثة عشر يوماً» مروج الذهب ٣: ٢٣٤.

تتهافت، و سرى الضعف إلى أوصالها بعد حقبة قرشيّة، لم تكن هي آخر حقبة لدولة قريش ولكنها كانت صفحات ممزّقة تنتظر من يقبلها لتأخذ محلّها أوراق جديدة تتصفّحها أيادي القدر المحتوم حتّى كانت سنة سبع وعشرين و مائة، حين ولي مروان بن محمّد بن مروان بن الحكم، فكانت بداية نهاية عهد الحكم الأموي، و الذي أرخ له من عام ٤٠ هـ، بدولة سمّيت باسم أميّة الذي لم يكن يحلم أبناؤه بأن ينالوا وثيقة أمان في حكم الإسلام الذي طرد المشركين و الأوثان التي كان يعكف عليها أبناء أميّة و غيرهم من جهال العرب. و كانت الحقبة الأمويّة الأخيرة - بوصف المؤرخين - قلقة مضطربة لم يزل مروان فيها في تشتّت من أمره واضطراب من كلّ النواحي عليه، و هو مع ذلك يقيم للناس الحجّ إلى سنة ثلاثين و مائة.

فكان ذلك آخر ما أقام بنو أميّة للناس حجّهم و عندها انقضت دولة بني أميّة، لتبدأ حقبة عباسيّة طاغية لم تختلف عن سنين بني أميّة و أيامهم، فتلقّوا درس الماضين منهم في الاضطهاد، والجور، والقمع، والقتل، والتشريد للصلحاء والأخيار حتّى قال بعض المؤرّخين عن هذه الحقبة: «في دولة بني العباس افرقت كلمة الإسلام، و سقط اسم العرب من الديوان، و أدخل الأتراك في الديوان، و استولت الديلم ثم الأتراك، و صارت لهم دولة عظيمة، و انقسمت ممالك الأرض عدّة أقسام، و صار بكلّ قطر قائم يأخذ الناس بالعسف و يملكهم بالقهر. وقالوا في خلفائهم: كان السفّاح سريعاً إلى سفك الدماء. وقالوا في وصف المنصور: قتل خلقاً كثيراً حتّى استقام ملكه. و ينسب إلى عبد الصمد

ابن عليّ أنّه قال للمنصور: لقد هجمت بالعقوبة حتّى كأنّك لم تسمع بالعفو. قال المنصور: لأنّ بني مروان لم تبل رممهم، و آل أبي طالب لم تغمد سيوفهم، و نحن بين قوم قد رأونا أمس سوقة، و اليوم خلفاء، فليس تتمهّد هيبتنا في صدورهم إلا بنسيان العقوبة. و كذلك قالوا عن المنصور: هو أوّل من أوقع الفرقة بين ولد العباس وولد عليّ عليه السلام، و كان قبل ذلك أمرهم واحداً^١.

و يعتبر وضع العلويّين مع الخليفة السّفاح الذي سبق المنصور أفضل نسبياً، حيث ساد عهد الخليفة أبي العباس حالة من المودعة بين العباسيّين و العلويّين، ولكن هذه الحالة لم تدم طويلاً، لأنّ هذه السياسة لاتوافق المنصور الذي أظهر بجلاء أنّ هدفه تثبيت كيان الدولة مهما كان الثمن. و ركّز جهوده على الحركة العلويّة لإدراكه بأنّ هذه الحركة أصبحت رمزاً للمعارضة ضدّ العباسيّين، ذلك لأنّ كلّ الجماعات المتذرّة نقلت ولاءها إلى العلويّين، و أخذت تدعو لهم، سواء كان ذلك بإخلاص، أو بمجرد التظاهر لاتخاذهم واجهة سياسيّة لغايات أخرى مبيّنة^٢. فالخطر العلويّ صار يأتي من ناحيتين:

الأولى: معارضتهم الذاتية للعباسيّين. والثانية: أنّهم أصبحوا رمزاً و ملجأً لكلّ المعارضين و المتذمّرين، سواء كانوا يؤمنون بالقضيّة العلويّة، أم لم يكونوا ممّن يؤمنون بها^٣. و كانت حجّة المعارضين لسلطة العباسيّين ترى بأنّ السلطة الحاكمة لم تكن مؤهلة في قيادة الأمة لطغيان الفسق والفجور في العصر العبّاسي حيث حاز بنو العباس - خصوصاً طغاتهم و

^١ - ينظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٠٨ و ٢١٤ و ٢١٧.

^٢ - فاروق عمر، الخلافة العبّاسيّة في عصر الفوضى العسكرية ص ١٧.

^٣ - خالد عزّام، العصر العبّاسي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ٨١.

سلاطينهم - قصب السبق وفاقوا من سبقهم من أحفاد أبي سفيان ومروان.

و قد شرّع خليفتهم هارون الرشيد قانون إشباع الرغبات الممنوعة، مفتتحاً خلافته بفضيحة رويت عنه، حينما أفضت الخلافة إليه، وكما تقول الرواية: «بأنه وقعت في نفسه جارية من جوارى أبيه المهديّ فراودها عن نفسها، فقالت: لا أصلح لك، إنّ أباك قد طاف بي، فشغف بها فأرسل إلى أبي يوسف الفقيه فسأله: أعندك في هذا شيء؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أوّ كلّما ادّعت أمة شيئاً ينبغي أن تصدّق، لا تصدّقها فإنّها ليست بمأمونة. قال ابن المبارك: فلم أدر ممّن أعجب: من هذا الذي وضع يده في دماء المسلمين وأموالهم يتحرّج عن حرمة أبيه، أو من هذه الأمة التي رغبت بنفسها عن أمير المؤمنين، أو من هذا: فقيه الأرض و قاضيها؟ قال أبو يوسف: اهتك حرمة أبيك، واقتض شهوتك، و صيرّه في رقبتى»^١.

فما كان من هذا الدرس الفقهي للرشيد الذي تعلّمه من فقيه العراق إلا أن يكون حافزاً و داعياً لإشباع شهوة و غريزة ولده المأمون التي ثارت في لحظة أطفالها له أبوه حيث يقول السيوطي: «كان للرشيد جارية، و كان المأمون يهواها، فبينما هي تصبّ على الرشيد من إبريق معها، والمأمون خلفه، إذ أشار إليها بقبلة فزجرته بحاجبها وأبطأت عن الصبّ، فنظر إليها هارون فقال: ما هذا؟ فتلكأت عليه، فقال الرشيد: إن لم تخبريني لأقتلنك، فقالت: أشار إليّ عبد الله بقبلة، فالتفت إليه، و إذا هو قد نزل به من الحياء والرعب ما رحمه منه، فاعتنقه وقال: أتجنّها؟ قال: نعم، قال: قم فادخل بها في تلك القبة فقام، فلمّا خرج قال الرشيد: قل

في هذا شعراً فقال المأمون:

عن الضمير إليه	ظنني كنييت بطرفي
فاعتل من شفتيه	قبلته من بعيد
بالكسر من حاجبيه	ورد أحسن رد
حتى قدرت عليه ^١	فما برحت مكاني

و هكذا يقضون شهواتهم لحظة شأوا بلا ضوابط ولا معايير ولا أحكام شرعية. و ما ندري كيف كانت هذه الجارية، و من كان يملكها، الرشيد نفسه، أم هي ملك مباح وضعت في قصر الرشيد فوهبها استبداداً و استهتاراً بكل قانون؟ لقد عاشوا في لجج اللذائذ، و تمتعوا مع أولادهم من خضرة الدنيا وزهرتها و لاسيما في عهد خليفتهم الرشيد و عصره الداعر الخلع الذي أسموه: العصر الذهبي. و قد لَمَح الدكتور فاروق عمر إلى هذا العصر الذي يحمل في طياته بذور التدهور و الانحلال فقال: «إنَّ عصر الرشيد الذهبي، بكل ما فيه من مظاهر القوة السياسية النسيبة، و المظاهر الحضارية، يمثل بدايات التدهور الإداري و التفكك السياسي و التحلل الحضاري. إنَّ هذا العصر الذهبي كان يحمل في طياته أسباب قوّته و عوامل ضعفه في آن واحد، و يرجع بعض السبب في ذلك إلى شخصية الرشيد نفسه»^٢.

لأنَّ الرشيد بتصرفاته الغير مبالية و إيغاله في حب ذاته، وإرخائه العنان لشهوة الحكم و النفس الجارفة التي عصفت بالدولة والمجتمع، ميع الصلابة والقوة التي كانت عليها الدولة الإسلامية وأوجد حالة من الضعف والحشاشة فككت عرى البيت العباسي و قوّضته فيما بعد كما

^١ - تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٥٨.

^٢ - الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية ص ٢٢.

جرى الحال للبيت الأموي من قبل.

عهد السجاد عليه السلام

كانت ثورة الحسين عليه السلام بمثابة رسالة ختام و توديع للسلطة الأموية، و إن طال زمانها إلى ما يقارب التسعين عاماً حسب الظاهر، لأنّ الحسين عليه السلام بنهضته وصرخته هيأ أذهان المسلمين لينقضوا على هذا الجثمان الميت القابع في دمشق، و الذي كان يترنح و لا يستطيع الثبات، أو أن يمسك العرش المتزلزل. و كان الأئمة المعصومون - منهم: السجاد، و الباقر عليه السلام - يدركون أنّ ثورة و نهضة مثل ثورة الحسين عليه السلام لا يمكن أن تتكرّر، لأنّ الثورة الحسينيّة لها شروطها و مناخها الخاصّ بها، فمعركة كربلاء لا يمكن أن يكون بطلها السجاد عليه السلام أو الباقر عليه السلام من بعده، فلا مبايعة بعد، ولا رجال كرجال زمن الحسين عليه السلام، و إنّما هي تجربة فريدة نسجتّها أحدى ولاية عهد يزيد، وأجّجها بقيّة الصحابة و التابعين، فكانت الإمامة - كمنصب موضوع لقيادة الأمة - ترى أنّ الثورة قد بلغت غايتها و أغراضها و حققت أهدافها التي كانت قائمة آنذاك و بالتالي اختلافها عن ظرف الأئمة اللاحقين.

وإذا كانت الظروف قد سمحت للأئمة الثلاثة: عليّ، و الحسن، و الحسين عليهم السلام بقيادة الحركة الرساليّة بجميع مجالاتها قيادة مباشرة، فإنّها قد تغيّرت في عهد الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام و بقيّة الأئمة عليهم السلام، لذا نجدهم قد التجؤوا إلى الإشراف غير المباشر على سير الأحداث، و خصوصاً الأوضاع السياسيّة و العسكريّة منها، فكانوا يقودون جميع خطوط الحركة الرساليّة في آن واحد، دون أن تصل الحكومة إلى معرفة خطوط الحركة و نشاطاتها التنظيميّة، و مدى قربها و بعدها من الإمام عليه السلام، و مدى إشرافه عليها، و العوامل التي كانت تحدّد أسلوب

التحرّك لديهم تتمثّل بمايلي:

- ١- المصلحة الإسلامية العامة.
- ٢- المصلحة الإسلامية الخاصّة بحركة أهل البيت عليه السلام باعتبارهم مسؤولين عن إصلاح الأوضاع.
- ٣- الظروف العامة والخاصّة من حيث قوّة الحركة و قوّة القاعدة الشعبية.

و بذلك فإنّ الأئمة عليهم السلام قد قادوا جميع النشاطات في آن واحد، بما فيها الحركات المسلمة، ولكن بأسلوب غير مباشر تحيطه السريّة والكتمان، من أجل أن لا يتعرّض الإمام عليه السلام إلى القتل في بداية إمامته، لأنّ إصلاح الأُمّة و تربيتها مقدّم على كلّ شيء، فلو قاد الإمام عليه السلام حركة عسكريّة أو ثوريّة فإنّه سيقتل و تبقى الأُمّة بحاجة إلى من يرفدها بالفكر السليم بإعداد الفقهاء والعلماء، ومن يرفدها ببناء طليعة من العبّاد والزهاد و السياسيين وقادة الحركات الثوريّة.

و بتعبير آخر: أنّ الإمام عليه السلام كان يقود خطّين من خطوط العمل الرسالي هما:

- ١- الخطّ الفكري: ومهمّته طلب العلم ونشره، و أداء مسؤوليّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأسلوب هادئ سلمي.
- ٢- خطّ المواجهة: ومهمّته إعلان التمردّ على الحكومات الجائرة، واستخدام القوّة لإيقاف انحرافها عن النهج الإسلاميّ الأصيل، وهذا الأسلوب يتّضح من خلال سيرة الأئمة عليهم السلام، فالإمام زين العابدين عليه السلام بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام و سبي نسائه اتّبع هذا الأسلوب، لأنّ الظروف السياسيّة قد تغيّرت، إضافة إلى توسّع القاعدة الشعبية لأهل البيت عليهم السلام، واختلاف أتباعه وأنصاره في قدراتهم وطاقاتهم، فالتوابون

ثاروا في عهده، ولكن لم تحصل الحكومة الأموية على دليل واحد تثبت فيه علاقة الإمام عليه السلام بهم، وثار المختار في عهده وفاتحه عمه محمد بن الحنفية حول تأييده للثورة فقال عليه السلام: «يا عم، لو أن عبداً زنجياً تعصب لنا أهل البيت لوجب على الناس مؤازرته، وقد وليتك هذا الأمر فاصنع ما شئت»^١.

و من هذا اتخذت الإمامة بعد شهادة الحسين عليه السلام مساراً آخر في أسلوب المواجهة مع السلطات القائمة آنذاك، ظهر في المظهر الذي يراه ويفهمه إمام كل عصر مع الحكام والملوك الذين عاشوا تلك الحقبة، فقد سلك الإمام زين العابدين عليه السلام رابع الأئمة سلوك المقاومة السلمية و الابتعاد عن الأضواء، وشرع في التفرغ للدعاء و المناجاة في محراب العبادة، فقد روى الباقر عليه السلام «أن علي بن الحسين عليه السلام كان يصلي في اليوم و الليلة ألف ركعة»^٢ ولكنه عليه السلام لم يترك الأمة لوحدها بدون رعاية و توجيه، فعاش سني عمره لم يفصل عن المسلمين بل كان متواصلاً معهم. و ينقل عن أهل المدينة قولهم: «ما فقدنا صدقة السر حتى مات علي بن الحسين عليه السلام». و لما مات عليه السلام في سنة ٧٥ هـ و جردوه للغسل جعلوا ينظرون إلى آثار في ظهره فقالوا: ما هذا؟ قيل: كان يحمل جربان الدقيق على ظهره ليلاً و يوصلها إلى فقراء المدينة سرّاً، كما أنه عليه السلام لم يترك توجيه الأمة و تربيتها وفق المنهج الرسالي «فإنه استثمر شفاء الأمة من مرحلة الشك و إيقاظ ضميرها مرفداً الأمة بالمفاهيم الفكرية و العاطفية عن طريق الدعاء، والتضرع إلى الله لترسيخ المفهوم الإسلامي

١- أعلام الهداية: الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، المجمع العالمي لأهل البيت ص ١٠٥.

٢- بحار الأنوار ٤٦ : ٧٤.

٣- ينظر حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني ٣ : ١٣٦.

في وجدان الأمة، أي: أنه استثمر الحالة النفسية والفكرية لما كانت عليه الأمة بعد ثورة الحسين عليه السلام فاختار الأسلوب الأمثل لمواجهة مثل هذه الحالة^١. لأن السجادة عليه السلام عاش عصراً كانت فيه الأمة مخدوعة ومهزومة وعمياء لاتبصر الحقائق، وعبر عليه السلام عن ذلك بقوله لمنهال بن عمرو حين قال له: كيف أمسيت يا بن رسول الله؟ فأجابته عليه السلام قائلاً: «أمسينا كمثل بني إسرائيل في آل فرعون، يذبحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، يا منهال، أمست العرب تفتخر على العجم بأنّ محمداً صلى الله عليه وآله عربي، وأمست قريش تفتخر على سائر العرب بأنّ محمداً صلى الله عليه وآله منها، وأمسينا معشر أهل بيته، ونحن مغضوبون، مقتولون، مشردون، فإنّا لله و إنّنا إليه راجعون»^٢.

لقد عاش الإمام علي بن الحسين السجادة عليه السلام في عصر قد استسلم الناس فيه لشهواتهم، وطغت عليهم سيرة حكامهم، فابتعدوا عن مفاهيم الرسالة وأخلاق الإسلام وآدابه، ولم يتسنّ له عليه السلام أن يرتقي المنابر ويقف في المجتمعات لإرشاد الناس إلى ما يصلحهم من أخلاق الإسلام وآدابه وأحكامه، وإنقاذهم من أئمة الجور الذين شوّهوا وجه الإسلام بسلوكهم وطغيانهم، وتمادوا في استهتارهم بالقيم وانتهاك الحريات والحرّمات، فجعل عليه السلام ينشر رسالة الإسلام ويدعو الناس إلى الرجوع إلى دينهم وكتابهم وأخلاقهم وسيرة نبيهم، ويدعو الحكّام إلى إحقاق الحق وإقامة العدل وإنصاف المحرومين والمعذّبين، و يلفت الأنظار إلى ما يجب أن يتوفّر في الحكّام، وما لهم على الرعية من حقوق و واجبات في مقابل قيامهم بحفظ الأمن و نشر العدل وحفظ الثغور، ما إلى ذلك ممّا يضمن للدولة حقّها ولكل إنسان كرامته و حقّه في الحياة.

١- عادل الأديب، دور أئمة أهل البيت في الحياة السياسية ص ١٩.

٢- ينظر بحار الأنوار ٤٥ : ١٤٣ و ١٤٥.

و لقد كان الإمام عليه السلام يحرص على أن يضع الناس على اختلاف طبقاتهم و منازلهم تجاه مسؤولياتهم وما يجب عليهم لله وللناس، ولكن بأسلوب يختلف عن أساليب الوعّاظ و المرشدين والقصاصين، لقد استعمل عليه السلام أسلوب الحوار مع الله و مناجاته واستعطافه و تمجيده في ستين دعاءً عرفت: بالصحيفة السجّادية^١.

عهد الباقر عليه السلام

تركت معركة الطفّ الخالدة أثراً كبيراً في أسلوب و منهج الأئمة المعصومين عليهم السلام، و رغم أنّ الإمام الباقر عليه السلام كان صغير السنّ إلا أنّ حجم المعركة و أبعادها كانت محفوظة في ذهنه عليه السلام فروي عنه عليه السلام أنّه قال: «قتل جدّي الحسين عليه السلام ولي أربع سنين، و إنّي لأذكر مقتله وما نالنا في ذلك الوقت»^٢.

و ظلّت أحداث كربلاء الدامية عالقة بذهن العلويين، وكان الباقر عليه السلام مع أبيه السجّاد عليه السلام قد أدركوا وعانوا آثار هذه المصيبة والفاجعة العظيمة، فأثر الباقر عليه السلام سيرة أبيه السجّاد عليه السلام بالابتعاد عن الأحداث السياسيّة و مواجهة الطواغيت بالسلاح، فانبرى الباقر عليه السلام لتأسيس الكيان العلمي في الرواية والحديث، فأمضى الباقر عليه السلام عمره في وضع الأسس العلميّة لمدرسة الحديث والفتيا، فكانت سيرته عليه السلام بين الدرس والعبادة فتمخّضت عن روايات و أخبار جمعها العلماء في مجاميعهم الحديثيّة لتكون بداية المدرسة العلميّة للطائفة الإماميّة التي أفرزت أفضل مدرسة وأكملها في الفقه، والحديث، والكلام، والتفسير، بعد توفّر ظروف

^١- هاشم معروف الحسني، سيرة الأئمة الاثني عشر، دار القلم بيروت ٢: ١٦٦.

^٢- محمّد بيومي مهران، الإمامة و أهل البيت ٣: ١٧.

إيجابية ساعدت على تكوّنها. يقول الإمام محمد أبو زهرة: «في آخر القرن الأول الهجري و نصف القرن الثاني، كان البيت العلويّ مصدر النور والعرفان بالمدينة المنورة. فإنّه منذ نكبة الإسلام بمقتل الشهيد وابن الشهيد وأبي الشهداء: الحسين بن علي عليه السلام انصرف آل علي عليه السلام إلى العلم النبويّ يتدارسون، وفيهم ذكاء آبائهم، وهداية جدّهم، و الشرف الهاشمي الذي علا بهم عن سفساف الأمور، فاتّجهوا إلى معاليها، وبعّدوا عن السياسة، وقد ذاقوا مرارتها و لم يعرفوا حلاوتها، وتوارثوا ذلك الاتّجاه العلمي، فورثوا الإمامة فيه كابرًا عن كابر.

فعليّ زين العابدين عليه السلام كان إمام المدينة نُبلًا و علمًا، و كان ابنه محمد الباقر عليه السلام وريثه في إمامة العلم و نبل الهداية، فكان مقصد العلماء من بلاد العالم الإسلامي، و ما زار أحد المدينة إلا عرج على بيت محمد الباقر عليه السلام يأخذ عنه»^٢.

والظروف التي تهيأت للإمامين الباقر و الصادق عليه السلام لم تنهيا لغيرهما من الأئمة عليه السلام، ذلك لأنّ سني إمامة الباقر عليه السلام قد رافقتها بوادر النعمة العارمة على سياسة الأمويين والدعوة في مختلف الأقطار للتخلص منهم، و كان سوء صنيعتهم مع العلويين من أقوى الأسلحة بيد أخصامهم الطامعين بالحكم، ممّا دعاهم إلى اتّخاذ موقف من الشيعة وأئمّتهم أكثر اعتدالا ممّا كانوا عليه بالأمس، و لمّا جاء الإمام الصادق عليه السلام كانت الدولة الأموية تلفظ أنفاسها الأخيرة وتعاني من انتصارات أخصامها العباسيين هنا وهناك، و بالتالي تقلص ظلّها وتمّ الأمر للعباسيين. و في هذه الظروف الخاصة انطلق الإمامان: الباقر و الصادق عليه السلام لأداء

١- يقال: سفسف عمله، إذا لم يبالغ في إحكامه. ترتيب جمهرة اللغة ٢: ٢٠٦ (سفسف).

٢- تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة و العقائد و تاريخ المذاهب الفقهيّة ص ٢٨٨.

رسالتهما، و تمّ لهما ذلك بين عهديين: عهد تحيط به الكوارث والهزائم، وعهد ظهرت فيه تباشير النصر وأحلام السيطرة على الحكم، وقامت الحكومة الجديدة على حساب العلويين ولم تنهياً مثل هذه الظروف لأحدٍ من أئمة الشيعة.^١ وقيل: «كانت الشيعة قبل أبي جعفر الباقر عليه السلام لا يعرفون مناسك حجّهم وحلالهم وحرامهم، حتّى كان أبو جعفر الباقر عليه السلام ففتح لهم وبين لهم مناسك حجّهم وحلالهم وحرامهم، حتّى صار الناس يحتاجون إليهم من بعد ما كانوا يحتاجون إلى الناس».^٢ ويقال: «لم يظهر من ولد الحسن والحسين عليهما السلام من العلوم ما ظهر منه عليه السلام في التفسير، والكلام، والفتيا، والأحكام، والحلال والحرام».^٣ و يروى أن النبي ﷺ قال في الباقر عليه السلام: «علمه علمي، وحكمه حكمي»^٤ وقال محمد بن مسلم عن الباقر عليه السلام: «سألته عن ثلاثين ألف حديث».^٥ وقال قتادة (فقيه البصرة) للباقر عليه السلام: «والله لقد جلست بين يدي الفقاء وقدام ابن عباس فما اضطرب قلبي قدام واحد منهم ما اضطرب قدامك».^٦

وعاش الباقر عليه السلام عصر الفتوحات الكبيرة وتألق الدولة الأموية و توسّعها، عندما بلغت الفتوحات في تلك الفترة أقصى اتّساعها، حيث تحوّل الفتح إلى عمل عسكريّ مجرد يستهدف الغنيمة الشخصية للقائد أو الخليفة.

١- هاشم معروف الحسني، سيرة الأئمة الاثني عشر ص ٢٠٢.

٢- ينظر بحار الأنوار ٣٣٧: ٦٨.

٣- بحار الأنوار ٤٦: ٢٩٤.

٤- نفس المصد ٣٦: ٣٣٩.

٥- نفس المصد ٤٦: ٢٩٤.

٦- نفس المصد ١٠: ١٥٥.

وبقدر ما دخلت أراض تحت سيطرة المسلمين، فقد دخلت ثقافات أكثر، حملتها معها الأقوام التي فتحت أراضيها، وشكل ذلك تهديداً خطيراً لعقيدة المسلمين، ولعدم قدرة الحاكمين من الخلفاء و أتباعهم على مواجهة هذا التحدي، بل يمكن القول: إن السلطة الأموية كان لها يد في تشجيع الحركات الفكرية المنحرفة الدامية إلى شل حركة المسلمين، كالقول بالجبر، أو تلك الهادفة إلى تغييب المسلمين عن الرقابة على الحاكمين كالقول بالإرجاء. يضاف إلى ذلك أنه كانت الحاجة قائمة لتفصيل أحكام الدين ومواقفه و تشريح أدلته وتفسير كتابه، فكان الإمام الباقر عليه السلام الذي تحدث عنه جلده النبي صلى الله عليه وآله قبل ولادته بأنه يبقر العلم بقرأ، وهو الوارث لعلم جدّه، والحافظ لشريعته في مواجهة تلك الأسئلة الحائرة والتحدي الثقافي كما كان على يده بيان الموقف الصحيح تجاه الحركات الفكرية المختلفة، و عنه انتشر العلم النبوي في العقائد، والتفسير والأحكام.^١ وظلّ عطاؤه يمدّ الأمة حتى بعد وفاته عليه السلام عام ٩٥ هـ، أيام هشام بن عبد الملك.

عهد الصادق عليه السلام

بين أحضان الإمام زين العابدين، وحنان الإمام محمد الباقر عليه السلام، وفي عهد عبد الملك ابن مروان ولد الإمام جعفر الصادق عليه السلام في ليلة الجمعة في السابع عشر من ربيع الأول سنة ٨٢ هـ، و قيل: في غرة رجب، والأمة الإسلامية تلاقى الأحكام القاسية، وقد انتشر فيها دعاة الفساد، و تحكّم أئمة الجور، و في هذه الأجواء نشأ الصادق عليه السلام في وسط مجتمع لا يتصل بالبيت إلّا من طريق الحذر و التكتّم لشدة المراقبة التي

١- محمد فوزي، رجال حول أهل البيت، الموسوعة التاريخية الميسرة، دار الصفوة - بيروت ٢ : ٧.

تحوط بهم من السلطة الأموية، وقد شاهد الصادق عليه السلام طلاب العلم يتصلون بمدرسة جده وأبيه وهم بأشدّ حذر، لأنّ في ذلك الدورلا يستطيع أحد أن يتظاهر بالاتّصال بآل محمّد، ومن عرف في ذلك فإنّما مصيره القبر أو ظلمة السجن، فكان الصادق عليه السلام آنذاك يحرص على تجديد مدرسة آل البيت وإعادة الحياة إليها، إلا أنّ رقابة بني أمية وعسفهم كانت تحول وتمنع المتصلين به، كما جرى ذلك لأبيه و جده عليه السلام. و يروى: «أنّ إبراهيم الكرخي (خ ل : الكوفي) كان يسمع من الصادق عليه السلام حديثاً، إذ دخل رجل من موالي بني أمية فانقطع الكلام، فعاد إلى الصادق عليه السلام إحدى عشرة مرّة لتتمّة الكلام، فما قدر على ذلك إلى أن سمع منه في السنة الثانية»^١. وهذا يعكس لنا شدة النظام الحاكم وعسفه تجاه أهل البيت عليه السلام. ولما دبّ الضعف بالدولة الأموية و أحاطت بها عوامل الانهيار صارت هذه الفترة فترة سعيدة، ولكنها كانت فترة مؤلمة في الوقت نفسه، إذ كان الإمام الصادق عليه السلام يرى ما يصيب الدين الإسلامي من وهن وتشويه وانتهاك فانبرى لفتح أبواب مدرسته، و ليقوم بما يجب عليه من توجيه الناس، و بثّ الأحكام وتعاليم الدين، فهو بين شيخوخة الدولة الأموية وطفولة الدولة العباسية. قام عليه السلام في عصر ازدهار العلم لتعليم الناس، حتّى غدّ تلامذته أربعة آلاف رجل، و كان بيته عليه السلام في تلك الفترة كالجامعة، يزدان على الدوام بالعلماء الكبار في الحديث، والتفسير، والحكمة، والكلام، فكان يحضر مجلس درسه في أغلب الأوقات ألفان، وبعض الأحيان أربعة آلاف من العلماء

١- ينظر أسد حيدر، الإمام الصادق و المذاهب الأربعة : ١ : ٣٥.

٢- ينظر بحار الأنوار : ٤٨ : ١٥ و ٥٢ : ١٢٩.

المشهورين.^١

إنّ المنهج التأسيسي الذي بدأه الإمام الباقر عليه السلام، تكامل و نضج بيد الإمام السادس جعفر الصادق عليه السلام، لذا نسبت مدرسة أهل البيت في الفقه والحديث إلى الإمام الصادق عليه السلام، فاتخذت هذه المدرسة اسم المدرسة الجعفرية أو المذهب الجعفري، باعتبارها مدرسة متكاملة في الفقه والحديث و الكلام و الأصول و التفسير، و في المعارف و العلوم كافة، وبرز أصحاب الإمام الصادق في دنيا العلوم والثقافة كمفسرين و محدثين و فقهاء و متكلمين و فلاسفة و حتّى في العلوم الصرفة، مثل: الكيمياء، والرياضيات، و الفيزياء، و غير ذلك من العلوم. و من المناسب هنا أن نشير إلى جابر بن حيان الكوفي مؤسس علم الكيمياء أو مظهره كعلم له أثره في الحياة العلمية للإنسان. و قد اعترف علماء الشرق والغرب في تاريخ العلوم بأنّ جابر بن حيان قد صنّف موسوعة علمية في هذا الميدان لا يستغني عنها باحث، كما أنّ جابر بن حيان قد تضلّع في ميادين أخرى مثل: الطب، و الصيدلة، و الفيزياء.^٢

و يتحدث مؤرّخو العلوم: بأنّ مكتبات أوربا حوت على كتب كثيرة مترجمة إلى اللاتينية نسبت إلى جابر بن حيان، على الرغم من عدم وجود أصل لها في اللغة العربية.^٣ كلّ ذلك كان من شظايا و نثارات علم الصادق عليه السلام الذي لقطه جابر بن حيان و دوّنه في كتبه فانتقلت إلى أوربا. فعلى الرغم من صعوبة الظروف التي اكتتفت حياة الصادق عليه السلام فلم

^١ - ينظر أسد حيدر، الإمام الصادق و المذاهب الأربعة ١: ٣٨.

^٢ - الدكتور موريس شربل، موسوعة الكيمياء، دار الكتب العلمية بيروت - ص ١٢٩، فهرست ابن الندي. ٤٩٨.

^٣ - محمّد جمال الدين، دراسات في الحضارة الإسلامية ٢: ٢٧٤.

يزل عليه السلام في عطاء و رد للأمة، حيث كانت الفترة التي عاشها الإمام الصادق عليه السلام فترة محنة تمرّ بها الأمة، فقد كان الحكم الأمويّ حكمًا جائرًا، إذ ابتعدت السلطة عن أحكام الإسلام، فكانت نهاية الحكم الأمويّ مثل بداية قيامه، إذ صُغت بالدم نهايته كما كانت بدايته. وقامت دولة بني العباس، وهي تلبس لباس الدين و ترفع شعار الدعوة لمناصرة آل محمد صلوات الله عليهم والانتقام من أعدائهم، وهي تحاول أن تكسب ودّ المسلمين. و بعد أن تكشفت سياسة بني العباس، و زال القناع عن وجه حكمهم، اعتبر الناس عهدهم امتدادًا لحكم بني أمية الجائر، فأصبح المسلمون في معترك عصيب، تحرّكت في جوانحهم الثورة، و تآقت نفوسهم لتحقيق الإصلاح، و كان البيت العلويّ هو محطّ آمال الأمة فساندهم رجال الدين و انضوى بعض الفقهاء تحت رايتهم، و في ذلك المعترك الرهيب برزت شخصيّة الإمام الصادق عليه السلام و هو يحمل للأمة مبادئ الإسلام و ينشر تعاليمه و يرفع صوت الإنكار على الظلم و يدعو للإصلاح بكلّ جهد، و شارك الأمة في محنتها إذ امتزج رجال الفكر و دعاة الإصلاح، فكانت دعوته سلميّة تهدف لتنوير الرأي العامّ والحضّ على التمسك بأحكام القرآن^١.

و أكبر محنة ظهرت للصادق عليه السلام هي شخصيّة المنصور العبّاسي باني الدولة و مؤسسها. و كان المنصور في الحقيقة هو مهندس بنية النظام الذي اتّخذ في عهده شكله النهائي، و كان أحد معالم هذا الشكل صورة الخليفة متلفعًا بعباءة إسلاميّة دينيّة كانت ضروريّة لإسباغ الشرعيّة على وجود العبّاسيّين في السلطة. و يبدو أنّ هذه الصورة بهرت بعض العلماء في البداية. و تظهر رواية منسوبة إلى الإمام مالك بن أنس ثلاثة مواقف

١- أسد حيدر، الإمام الصادق و المذاهب الأربعة ٢: ١٩.

مختلفة من الخليفة تعطي مثلاً واضحاً على نظرة العلماء إلى صورة المنصور هذه التي تعمّد أن يظهر فيها، و قد تراوحت هذه المواقف بين الحياد و الحماس و الرفض. تقول الرواية: «إنّه بعد فترة و جيزة من استخلاف المنصور، و كان آنذاك في المدينة، استدعى إليه مالكا، وقاضي المدينة: ابن سمعان، و عبد الرحمن بن أبي ذئب الذي كان معاصروه يصفونه بأنّه فقيه المدينة، وسألهم المنصور مباشرة: أيّ الرجال أنا عندهم، أمن أئمة العدل أم أئمة الجور؟ و كان موقف مالك حيادياً، إذ طلب من المنصور أن يعفيه من الإجابة. أما القاضي ابن سمعان كما يبدو قد بهرته صورة المنصور الإسلامية فأجاب: أنت و الله، خير الرجال يا أمير المؤمنين، تحجّ بيت الله الحرام، و تجاهد العدو، و تؤمن السبل، و يأمن الضعيف بك أن يأكله القوي، و بك قوام الدين، فأنت خير الرجال و أعدل الأئمة. و اختلف موقف ابن أبي ذئب تماماً فهو لم ير شيئاً في المنصور يستحقّ الإشادة به، فقال له: أنت و الله، عندي شرّ الرجال، استأثرت بمال الله و رسوله و سهم ذوي القربى و اليتامى و المساكين، و أهلك الضعيف و أتعبت القويّ و أمسكت أموالهم». و قد أثبتت التطوّرات اللاحقة صحّة رأي ابن أبي ذئب في الخليفة عندما أخذت شرور النظام تنامي، و مظاهر الفساد تظهر على السطح، ممّا جعل الفقهاء يكتشفون أنّ النظام كان يسير في خطّ معاكس تماماً لما كانوا يعتبرونه حقّاً وفضلاً. و قد عبّرت فتوى زعيما المذهب الحنفيّ و المالكيّ عن استياء فقهاء و علماء عصر المنصور، و عن تسلّط المنصور و جوره على رعيّته في فتواهما المشتركة للناس: «ليس على مكره يمين». و ذلك حينما

سُئِلَا عن بيعتهما للمنصور، و خروجهما عليه بعد البيعة.^١
و كان المنصور العباسي قد كتب إلى الإمام الصادق عليه السلام: «لم لا تغشانا
كما يغشانا سائر الناس؟» فأجابه الصادق عليه السلام: «ليس لنا ما نخافك من
أجله، و لا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك له، و لا أنت في نعمة فنهتلك،
و لا نراها نقمة فنعزبك بها، فما نصنع عندك؟» فكتب المنصور إليه:
«تصحبنا لتنصحننا». فأجابه الصادق عليه السلام: «من أراد الدنيا لا ينصحك، و من
أراد الآخرة لا يصحبك».^٢

و حاول المنصور أن يستميل علماء و فقهاء زمانه بشتى الوسائل، و
مما يروى في هذا أن المنصور لما حجّ أدخل عليه بمنى سفيان الثوري
(المتوفى ١٦١ هـ)، و بعد محاوره معه قال له المنصور: «ارفع إلينا
حاجتك»، فقال سفيان له: «أتق الله، فقد ملأت الأرض ظلماً و جوراً»،
فطأطأ المنصور رأسه ثم رفعه فقال: «ارفع إلينا حاجتك»، فقال سفيان:
«إنما أنزلت هذه المنزلة بسيف المهاجرين و الأنصار، و أبناؤهم
يموتون جوعاً فاتق الله و أوصل إليهم حقوقهم». فقال لسفيان: «ارفع إلينا
حاجتك»، فقال سفيان: «حجّ عمر بن الخطاب فقال لخازنه: كم أنفقت؟
فقال: بضعة عشر درهماً». ثم قال سفيان له: و أرى هنا أموالاً لا تطيق
الجمال حملها، و خرج.^٣ و إشارة سفيان الثوري هنا توحى إلى حجّ
المنصور المكلف.

و كان المنصور معروفاً بميله إلى الاقتصاد في النفقات حتّى امتلأت
بالأموال خزائنه، و لذلك ترك لابنه المهديّ ثروة جعلته مدّة حكمه هادئ

^١ - محمد بيومي مهران، الإمامة و أهل البيت ١: ٢١٤.

^٢ - بحار الأنوار ٤٧: ١٨٤.

^٣ - محمد بيومي مهران، الإمامة و أهل البيت ١: ١١٦.

البال ينفق عن سعة و لا يخشى نفاداً. و المعروف لدى المؤرخين أن المنصور لم يكن يعطي الشعراء تلك العطايا البالغة حد السرف، و إنما كانت أعطياته إلى القلة أميل^١ و حتّى في المصالح العامّة و الضرورية. و من هذا يروي إبراهيم بن محمّد البيهقي «أنّ المنصور قال للمسيّب بن زهير: أحضرني بناءً حاذقاً الساعة، فأحضره فأدخله إلى بعض مجالسه فقال للبناء: ابن لي بإزائه طاقاً يكون شبيهاً بالبيت، فلم يزل يؤتى بالجصّ و الآخر حتّى بناه و جوده، و نظر إليه و استحسّنه و قال للمسيّب: أعطه أجره، فأعطاه خمسة دراهم فاستكثرها و قال: لا أرضى بذلك، فلم يزل حتّى نقّصه درهماً ففرح بذلك و ابتهج كأنّه أصاب مالاً»^٢.

و يروي أنّه قيل للصادق عليه السلام: «إنّ أبا جعفر المنصور لا يلبس منذ صارت الخلافة إليه إلا الخشن و لا يأكل إلا الجشب»، فقال: يا ويحه، مع ما قد مكّن الله له من السلطان و جبي إليه من الأموال! ف قيل: «إنّما يفعل ذلك بخلاً و جمعاً للأموال»، فقال الصادق عليه السلام: «الحمد لله الذي حرّمه من دنياه كما ترك دينه»^٣. و المنصور لم يجعل حداً فاصلاً ما بين بيت ماله الخاصّ و بيت المال العامّ، و لم يميّز ما بين موارده الخاصّة و موارد الدولة، فانسجماً مع النظرة العباسيّة العامّة للخلافة، على أنّها من ممتلكات العباسيّين، نظر المنصور إلى موارد الخلافة الماليّة نظرتّه إلى ممتلكاته الخاصّة. ففي مناسبات عديدة نجده يستخدم تعبير: «ما لي» ليس للإشارة إلى ماله الخاصّ - إن كان لديه - أصلاً، بل إلى موارد الدولة. و هكذا فإنّ الإنفاق من بيت المال أو الخزينة العامّة، كان شأنًا

١- الشيخ محمّد الخضري، الدولة العباسيّة ص ٧٨.

٢- المحاسن و المساوي ص ٢٣٥.

٣- بحار الأنوار ٤٧: ١٨٤.

شخصياً من شؤونه الخاصة دون أن يكون ملزماً به تجاه الآخرين، وهم المحكومون في هذه الحالة. وبهذه النظرة فإنّ تصوّرات و مفاهيم، مثل: رفاهية المجتمع و المصلحة العامة للرعيّة، لا يمكن أن تكون من ضمن اهتمامات الحاكم الرسميّة مادام يعتبر المال في خزينة الدولة ماله الخاصّ. فعندما قام واليه على مصر يزيد بن حاتم بإتفاق بعض الأموال على مشروع لجرّ المياه إلى بلدة في مصر وبّخه المنصور قائلاً: «أنفقت مالي على قومك»^١ و كأنّ أموال الدولة دراهم معدودات كانت في جيبه، والدولة ورجالها تخدم يتحرّكون في زوايا بيته.

و كان لأبي حنيفة محاوره مع المنصور كشف فيها صعلكة المنصور وسوء تصرّفه بالمال العامّ، و ذلك حينما دعاه لتوكلي القضاء، فقال له أبو حنيفة: «لا يصلح للقضاء إلا رجل يكون له نفس يحكم بها عليك وعلى ولدك وقوّادك، و ليست تلك النفس لي»، فقال له المنصور: «فلم لا تقبل صلتني؟» فقال له أبو حنيفة: «ما وصلني أمير المؤمنين بشيء من ماله فرددته. إنّما وصلني أمير المؤمنين من بيت مال المسلمين، ولا حقّ لي في بيت مالهم. إنّني لست ممّن يقاتل من ورائهم فأخذ ما يأخذ المقاتل، ولست من ولدانهم فأخذ ما يأخذه الولدان، ولست من فقرائهم فأخذ ما يأخذه الفقراء»^٢.

فالعلماء والفقهاء بعامتهم كانوا يعيشون في محنة مع المنصور، فقد آذى المنصور خلقاً من العلماء - ممّن خرج مع الأخوين محمّد وإبراهيم ابني عبد الله بن حسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، أو أمر

^١ - عصام سخيني، العباسيون في سنوات التأسيس ص ٢٠٥.

^٢ - الإمام محمّد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر ص ٣٧٢.

بالخروج - قتلاً و ضرباً و غير ذلك، منهم: أبو حنيفة، و عبد الحميد بن جعفر، و ابن عجلان. و كان ممّن أفتى بجواز الخروج مع محمّد على المنصور مالك بن أنس فقيه المذهب المالكي.

و في سنة ثمان و خمسين و مائة أمر المنصور نائب مكّة بحبس سفيان الثوري و عباد بن كثير فحبسا،^١ و كان دأب المنصور السجن أو الضرب أو أمر آخر يراه هو عقاباً للعلماء و الفقهاء الذين يثيرون غضب السلطة أولاً يستجيبون لرغباتها. و كان أبو حنيفة من العلماء الذين أثاروا غضب السلطة العباسيّة لعدم مدهنته لهم، و يقال: إنّ غضب العباسيّين على أبي حنيفة كان حينما سئل: «إذا قيل عن البعض: أنّه وقف ماله للإمام، فمن يكون المستحق؟» فقال أبو حنيفة: «يكون المستحقّ جعفر الصادق عليه السلام، لأنّه هو الإمام بالحق». و كانت هذه الفتوى منه سبباً لقمّة العباسيّين عليه و إنزالهم به بعض المظالم.^٢

و كان الصادق عليه السلام أكثر محنة و بليّة من غيره، لأنّ عيون السلطة كانت مفتوحة عليه. و لطالما استدعوه لملاقاتهم للفتك به إلا أنّ الله تعالى يحفظه من كيدهم، و عندما حلّت سنة ١٤٨ هـ أذن له للقاء الله و أجداده الطاهرين متأثراً بسمّ دسّه إليه المنصور على يد عامله على المدينة: محمّد بن سليمان، على رواية.^٣

و مع كلّ المعاناة و الظروف الشاقّة التي أحاطت بالصادق عليه السلام، من جور الخلفاء و مضايقتهم له، تمكّن الصادق عليه السلام من توطيد مدرسة أهل بيته عليه السلام في المرحلة الانتقاليّة التي عاشها الصادق عليه السلام من عصر الأمويّين

^١ تاريخ الخلفاء للسيوطي بتحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد ص ٢٦١.

^٢ محمّد أمين غالب، تاريخ العلويّين ص ٢٠٠.

^٣ جعفر البياضي، ما ممّا إلّا مقتول أو مسموم ص ٩٧.

إلى العصر العباسي، ولكن مضايقات المنصور العباسي بدأت حين شعر بأن الصادق عليه السلام صار قطب الرضى ومركز العلم النبوي، ولم يكن المنصور حين تولى الخلافة يخاف من الدولة البائدة: دولة الأمويين، لأنه لم تبق لهم بقية يخاف منها، وإنما كان الخوف ينتاب المنصور من ثلاث جهات:

الأولى: منافسة عمه عبدالله بن علي له في الأمر، لما كان له من نباهة الذكر في بني العباس، لأنه كان يدبر أمر جيوش الدولة.

الثانية: من عظمة أبي مسلم الخراساني مؤسس الدولة.

الثالثة: - وهي أقوى الجهات - خوفه من بني عمه آل علي بن أبي طالب عليه السلام، الذين لا يزال لهم في قلوب الناس مكان مكين^١. ولذا كان الصادق عليه السلام يعاني و يكابد من ظنون المنصور، فقد كان يهمل بقتل الصادق عليه السلام غير مرة، بفعل الدسائس التي كان يحوكها الواشون لقتله. و كان المنصور إذا بعث إليه ليقترله فإذا نظر إليه هابه و لم يقتله، غير أنه منع الناس عنه، و منعه من القعود للناس، و استقصى عليه أشد الاستقصاء، حتى أنه كان يقع لأحدهم مسألة في دينه: في نكاح، أو طلاق، أو غير ذلك، فلا يكون علم ذلك عندهم، ولا يصلون إليه، فيعتزل الرجل و أهله، فشق ذلك على شيعته وصعب عليهم حتى ألقى الله في روع^٢ المنصور أن يسأل الصادق عليه السلام ليتحفه بشيء من عنده، لا يكون لأحد مثله، فبعث إليه الصادق عليه السلام بمخصرة^٣ كانت للنبي صلى الله عليه وآله طولها ذراع ففرح بها فرحاً شديداً، و أمر أن تشق له أربعة أرباع و قسمها في أربعة

١- محمد الخضري، الدولة العباسية، دار المعرفة - ط السابعة ص ٥٤١.

٢- الروع: النفس و ما خطر فيها، يقال: وقع في روعي، أي في خلدي. ترتيب جمهرة اللغة ٩٩:٢ (روع).

٣- المخصرة: عصا أو قضيب يشير به الخطيب و يأخذه الملك بيده يشير به إذا خاطب. ترتيب جمهرة اللغة ١: ٥٢٧ (مخصرة).

مواضع ثم قال له: «ما جزأوك عندي إلا أن أطلق لك، و تفشي علمك لشيعتك، ولا أتعرض لك و لا لهم، فاقعد غير محتشم و أفت الناس، ولا تكن في بلد أنا فيه»، ففشا العلم عن الصادق عليه السلام.^١ و هكذا كان علم الصادق عليه السلام يظهر و بدأ ينتشر من ذلك الحين.

عهد الكاظم عليه السلام

لسبع خلون من صفر لعام ١٢٨ هـ، شعت الأبواء^٢ بالنور السابع و النجم الساطع موسى بن جعفر الصادق عليه السلام، من أبوين عالمين زقا ولدهما العلم والمعرفة، فأبوه الصادق عليه السلام كان عالم الأمة وسيدها في العصرين: الأموي والعباسي، و أمه كانت مرجعا لنساء زمانها في العلم و الفتيا، و هي حميدة المصفاة من الأدناس، كسيكة الذهب التي حرسها الأملاك كرامة للصادق عليه السلام بعلمها وللكاظم عليه السلام ولدها.^٣ و كان الصادق عليه السلام يأمر النساء بالرجوع إليها. و حين سأل الصادق عليه السلام عبد الرحمن بن الحجاج عن حج الصبي المولود أمره عليه السلام أن يقول لأمه بأن تسأل حميدة في ذلك^٤ فنشأ عليه السلام ينهل من ينبوع صافٍ أفاض منه علما على أصحابه وأهل زمانه.

وكان خاصة الكاظم عليه السلام من أهل بيته وشيعته يحرصون على تدوين حديثه عليه السلام فكانوا يحضرون مجلسه ومعهم في أكماتهم ألواح أبنوس^٥ لطاف و أميال، فإذا نطق عليه السلام بكلمة و أفتى في نازلة أثبت القوم ما سمعوا

١- بحار الأنوار ٤٧: ١٨٠.

٢- الأبواء: منزل بين مكة و المدينة. البحار ٤٨: ١.

٣- ينظر أصول الكافي ٤٧٧: ح ٢؛ بحار الأنوار ٤٨: ٦؛ تهذيب الأحكام ٦: ٨١.

٤- ينظر جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام كتاب الحج، كيفية إحرام غير المميز و المجنون ١٧: ٢٣٥.

٥- الأبنوس: من شجر الجبال و يقال له: الساسم أيضا. ينظر لسان العرب (سسم).

منه ذلك اليوم.^١ وكان عليه السلام أعبد أهل زمانه، وأفقههم وأسماهم كفاً، وأكرمهم نفساً. وروي: «أنه كان يصلي نوافل الليل و يصلها بصلاة الصبح، ثم يعقب حتى تطلع الشمس، ويخرّ الله ساجداً فلا يرفع رأسه من السجود والتحميد حتى يقرب زوال الشمس. وكان عليه السلام يتفقد فقراء المدينة في الليل فيحمل إليهم الزبيل فيه العين، والورق، والأدقة، و التمور فيوصل ذلك إليهم ولا يعلمون من أي جهة هو».^٢ و سخاؤه عليه السلام كان يضرب به المثل فكانوا يقولون: «عجباً لمن جاءته صرة موسى عليه السلام فشكا القلة!» و كان عليه السلام يصل بالمائتي دينار إلى الثلاثمائة، وكان عليه السلام إذا بلغه عن الرجل ما يكره بعث إليه بصرّة دنانير.^٣

ومع كلّ هذا العطاء الذي كان يقدمه الإمام عليه السلام للأمة، فإنّ الخلفاء الذين عاشوا عصره لم يكن يروق لهم هذا التفاعل والتواصل الذي عرف به عليه السلام في حياته.

فابتلي الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بسلاطين ثلاثة من بني العباس هم: المهدي، والهادي، وهارون الرشيد، وكان الثالث أشدهم عليه، فقد كانت الدولة العباسية في عصرها الذهبي وفي أوج عزّها، و تألّقت الدنيا وزهت لأبنائها، فأنستهم زخارفها وزينتها كلّ شيء، فانغمسوا بالشهوات، وركبوا شهوات الحرمات، وكرعوا من كؤوس الغانيات الفاتنات، و جعلوا من بغداد قبلة الفجّار والعاهرات، و دارت رؤوسهم بخمرة الزهو والغرور، وامتألت جيوبهم بالنقود والجواهر، و علّقوا على

١- بحار الأنوار ٤٨: ١٥٣.

٢- نفس المصد ٤٨: ١٠١.

٣- نفس المصد ٤٨: ١٠٢ و ١٠٤ و ٢٤٨.

جيد الغواني والجواري اللآلئ و الدرّ الوفير، و لم يسمعوا نداء المسجد و المؤذن، بل كانت آذانهم تسمع نقر العود والطنبور، فغرقت دولة بني العباس ورجالها في بحار النزوات.

و كانت بداية الانحلال و التفسّخ الذي عرف به خلفاء بني العباس تظهر في خلافة المهديّ بن المنصور، فمما يروى في ذلك أنّ يعقوب بن داود وزير المهديّ قد ضجر بموضعه قبل حبسه، و كان أصحاب المهديّ يشربون عنده فكان يعقوب ينهائهم عن ذلك و يعظه و يقول: ليس على هذا استوزرتني، ولا عليه صحبتك، أبعد الصلوات الخمس في المسجد الجامع يُشرب عندك النبيذ! فضيّق عليه المهديّ العباسي حتّى قيل:

فدع عنك يعقوب بن داود جانبا و أقبل على صهباء طيبة النشر
و قال يعقوب يومًا للمهديّ في أمر أراده: هذا والله السرف! فقال
المهدي: ويحك، يا يعقوب، إنّما يحسن السرف بأهل الشرف، ولو لا
السرف لم يعرف المكثرون من المقلّين! هكذا يفهمون الأمور و كأنّها
ملكهم فيتصرفون بها.

وقد نسب إلى الشاعر الأعمى بشّار بن برد هجاءً في المهديّ العباسي قوله:

خليفة يزني بعمّاته يلعب بالدبوق^٢ و الصولجان
أبد لنا الله به غيره و دسّ موسى في حر الخيزران
وقد سحرت المهديّ جارية و سلبته عقله حينما دخل بعض دوره
يومًا فإذا جارية له نصرانيّة، و إذا جيبها واسع وقد انكشف عمّا بين

١- الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥: ٢٥٣.

٢- الدبوق: لعبة يلعب بها الصبيان. لسان العرب (دبق).

ثديها، وإذا صليب من ذهب معلق في ذلك الموضع فاستحسنه فمدَّ إليه يده فجذبه فأخذه فولولت الجارية على الصليب فقال المهدي في ذلك: يوم نازعتها الصليب فقالت ويح نفسي أما تحلّ الصليباً وكأنه ينظر إلى حكمة، أو آية شريفة وجدها في جدار مسجد أو مشهد تقدّسه الملائكة؟! مشهد

وكان الرشيد وفيّاً لأبيه المهدي في التبعّد بمحراب الغانيات، وكانت غادر واحدة منهنّ، حيث يروى الحافظ بن كثير الدمشقي عن جارية كانت تسمّى: غادر، كانت لموسى الهادي، وكان يحبّها حبّاً شديداً، وكانت تحسن الغناء، فبينما هي يوماً تغنّيه، إذ أخذته فكرة غيّته عنها وتغيّر لونه، فسأله بعض الحاضرين: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: أخذتني فكرة: إنّي أموت وأخي هارون يتولّى الخلافة بعدي، و يتزوّج جاريّتي هذه، ففدّاه الحاضرون ودعوا له بطول العمر، ثمّ استدعى أخاه هارون فأخبره بما وقع، فعوّذه الرشيد في ذلك، فاستحلفه الهادي بالأيمان المغلّظة من الطلاق و العتاق و الحجّ ماشياً حافياً، أن لا يتزوّجها، فحلف له واستحلف الجارية كذلك فحلفت له، فلم يكن إلا أقلّ من شهرين حتّى مات، ثمّ خطبها الرشيد، فقالت: كيف بالأيمان التي حلفناها أنا وأنت؟ فقال: إنّي أكفر عنيّ و عنك، فتزوّجها وحظيت عنده جدّاً، حتّى كانت تنام في حجره فلا يتحرّك خشية أن يزعجها، فبينما هي ذات ليلة نائمة إذ انتهت مذعورة تبكي، فقال لها: ما شأنك؟ فقالت: يا أمير المؤمنين رأيت الهادي في منامي هذا و هو يقول:

أخلفت عهدي بعد ما جاورت سكّان المقابر
و نسيتني و حشّت في أيمانك الكذب الفواجر

و نكحت غادرة أخي صدق الذي سمّاك غادر
 أمسيت في أهل البلى و عددت في الموتى الغوابر
 فقالت للرشيد: فكأنما كتبت هذه الأبيات في قلبي، ثمّ مازالت ترتعد
 وتضطرب حتّى ماتت.^١ لتنتظر القصاص على غدرها في عالم القبر و
 البرزخ، و تترك الرشيد في مغامراته و لياليه يستمتع من حلالها و حرامها.
 و من هنا كانت معاناة موسى بن جعفر عليه السلام مع هذا التفسّخ و
 الانحلال كبيرة، فهو يرى ولاة الأمة و مدّعي إمامتها بهذا المستوى من
 التدهور و السقوط، و لا يمكنه أن يأمرهم بمعروف لجبروتهم، أو ينهاهم
 عن منكرهم لغيهم، بل قيّده و سجنوه. و أوّل من بدأ بسجنه هو
 الخليفة المهديّ بن المنصور، لكنّه أطلقه، لأنّه لم يجد سبيلاً له عليه. و
 يتحدث ابن الأثير عن هذا الحدث بالقول: قال الربيع: رأيت المهديّ
 يصليّ في بهو له في ليلة مقمرة، فما أدري أهو أحسن أم البهو أم القمر
 أم ثيابه؟ فقرأ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطُّوا
 أَرْحَامَكُمْ﴾.^٢

فأتمّ صلاته ثمّ التفت إليّ و قال: يا ربيع، قلت: لبيك، قال: موسى،
 فقلت في نفسي: من موسى ابنه، أم موسى بن جعفر، و كان محبوساً
 عندي، فجعلت أفكر فقلت: ما هو إلا موسى بن جعفر، فأحضرته فقطع
 صلاته ثمّ قال: يا موسى، إنّي قرأت هذه الآية فخفت أن أكون قد قطعت
 رحمك، فوثّق لي أنّك لا تخرج عليّ. قال: نعم، فوثّق له فخلاه.^٣
 أمّا الخليفة موسى الهادي فلم يكن حسن الظنّ بالكاظم عليه السلام، فكان

١- البداية و النهاية لابن كثير ١: ١٧٥.

٢- محمد: ٢٢.

٣- الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥: ٢٦٢.

يعتقد بأنّ الحسين بن عليّ بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب (صاحب فخ)، الذي خرج وثار على سلطة العباسيين عام ١٦٩هـ، كان بأمر وتوجيه من الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام)، و لذلك لمّا قتل صاحب فخ وحمل رأسه والأسرى من أصحابه إلى بغداد قال: والله ما خرج حسين إلا من أمره، لأنّه صاحب الوصيّة في أهل هذا البيت، قتلني الله إن أبقيت عليه، ولو لا ما سمعت من المهديّ فيما أخبر به المنصور بما كان به جعفر من: الفضل المبرّز عن أهله في دينه، وعلمه، وفضله، وما بلغني عن السّفاح فيه من: تقيّظه، وتفضيله، لنبشت قبره و أحرّقته بالنار إحراقاً، فقال أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي، و كان جريئاً عليه: ليس هذا مذهب موسى بن جعفر، ولا مذهب أحد من ولده، ولا ينبغي أن يكون هذا منهم، و أكّد ذلك بالأيمان المغلّظة، ولم يزل يرفق به حتّى سكن.

و كتب عليّ بن يقطين إلى موسى بن جعفر (عليه السلام) بصورة الأمر: فلمّا ورد الكتاب أحضر (عليه السلام) أهل بيته وشيعته فأطلعهم على ما ورد من الخبر فقال لهم: ما تشيرون في هذا الأمر؟ فقالوا: نشير عليك - أصلحك الله - و علينا معك أن تباعد شخصك عن هذا الجبار فإنّه لا يؤمن شرّه و عاديته و غشمه، سيّما و قد توعدك و إيانا معك، فتبسّم موسى بن جعفر (عليه السلام) وتمثّل ببيت كعب بن مالك:

زعمت سخنية أن ستغلب ربّها
فليغلبن مغالب الغلاب
ثمّ أقبل على مواليه و أهل بيته فقال: «ليفرخ روعكم^١ إنّه لا يرد أول كتاب من العراق إلا بموت موسى بن المهديّ و هلاكه»، ثمّ قال: «و

١- يقال ذلك للرجال عند الفرع، أي: لن تراع. ترتيب جمهرة اللغة ٣: ٢٤ (فرخ).

حرمة هذا القبر مات في يومه هذا ! ﴿إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ﴾^١ سأخبركم بذلك: بينما أنا جالس في مصلاي بعد فراغي من وردي، و قد تنوّمت عيناى، إذ سنع جدّي رسول الله في منامي فشكوت إليه موسى ابن المهدي، و ذكرت ماجرى منه في أهل بيته و أنا مشفق من غوائله، فقال لي: لتطب نفسك يا موسى، فما جعل الله لموسى عليك سبيلاً، فبينما هو يحدثني، إذ أخذ بيدي و قال لي: قد أهلك الله أنفأً عدوك فليحسن لله شكرك، ثم استقبل عليّ القبله و رفع يديه إلى السماء يدعو. يقول راوي الخبر: ثم قمنا إلى الصلاة و تفرّق القوم فما اجتمعوا إلا لقراءة الكتاب الوارد بموت موسى بن المهدي والبيعة لهارون الرشيد؛ يالها من بيعة، كانت بيعة جرّت ندماً و سدماً على الأمة، و على آل عليّ عليه السلام!

فلقد كانت هذه البيعة طوقاً ثقيلاً على البيت العلوي و بداية حرب شعواء ضدهم، و من هنا بدأت محنة موسى بن جعفر عليه السلام مع هارون العباسيين، فقد كان هذا يخاف و يضطرب من شخصية الإمام عليه السلام و يتوجّل منه، لما تصله من أخبار سعاة السوء و حسّاده عليه السلام. و يتحدث الإمام عليه السلام نفسه عن بليّته به قائلاً: «لَمَّا أُدْخِلْتُ عَلَى الرَّشِيدِ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ ثُمَّ قَالَ: يَا مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ، خَلِيفَتَانِ يُجْبَى إِلَيْهِمَا الْخَرَاجُ؟ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أُعِيدُكَ بِاللَّهِ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَ إِثْمِكَ، فَتَقْبَلَ الْبَاطِلَ مِنْ أَعْدَائِنَا عَلَيْنَا، فَقَدْ عَلِمْتَ بِأَنَّهُ قَدْ كَذَبَ عَلَيْنَا مِنْذُ قَبْضِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَمَا عَلِمَ ذَلِكَ عِنْدَكَ؟ فَإِنْ رَأَيْتَ بِقَرَابَتِكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ تَأْذَنَ لِي أُحَدِّثَكَ بِحَدِيثٍ أَخْبَرَنِي بِهِ أَبِي عَنْ آبَائِهِ عَنْ جَدِّي رَسُولِ

١- الذاريات : ٢٣.

٢- بحار الأنوار ٤٨ : ١٥٠ و ٩٤ : ٣١٧.

الله ﷺ فقال: قد أذنت لك. فقلت: أخبرني أبي، عن آبائه، عن جدي رسول الله ﷺ أنه قال: إن الرحم إذا مسّت الرحم تحرّكت واضطربت فناولني يدك، جعلني الله فداك. قال: ادن منّي، فدنوت منه فأخذ بيدي ثمّ جذبني إلى نفسه وعانقني طويلاً ثمّ تركني وقال: اجلس يا موسى، فليس عليك بأس، فنظرت إليه فإذا به قد دمعت عيناه، فرجعت إليّ نفسي فقال: صدقت وصدق جدك ﷺ، لقد تحرّك دمي واضطربت به عروقي حتّى غلبت عليّ الرقة وفاضت عيناى، وأنا أريد أن أسألك عن أشياء تتلجّج في صدري منذ حين، لم أسأل عنها أحداً، فإن أنت أجبتني عنها خلّيت عنك، و لم أقبل قول أحد فيك، وقد بلغني أنّك لم تكذب قطّ فأصدقني فيما أسألك ما في قلبي، فقلت: ما كان علمه عندي فإنّي مخبرك به إن أنت أمتنتني. قال: لك الأمان إن صدقتني و تركت التقيّة التي تعرفون بها معاشر بني فاطمة، فقلت: ليسأل أمير المؤمنين عمّا يشاء، قال: أخبرني لم فضّلتكم علينا ونحن و أنتم من شجرة واحدة، و بنو عبد المطلب ونحن و أنتم واحد، إنا بنو عبّاس و أنتم ولد أبي طالب و هما عمّا رسول الله ﷺ و قرابتهما منه سواء؟ فقلت: نحن أقرب. قال: وكيف ذاك؟ قلت: لأنّ عبد الله و أبا طالب لأب و أم، و أبوكم العبّاس ليس هو من أمّ عبد الله و لا من أمّ أبي طالب. قال: فلم ادّعيتكم أنكم ورثتم النبي ﷺ و العمّ يحجب ابن العمّ، و قبض رسول الله ﷺ و قد توفّي أبو طالب قبله و العبّاس عمّه حي؟ فقلت: إن رأى أمير المؤمنين أن يعفيني عن هذه المسألة، و يسألني عن كلّ باب سواه يريده، فقال: لا، أو تجيب. قلت: فأمّني. قال: أمتك قبل الكلام، فقلت: إنّ في قول عليّ بن أبي طالب عليه السلام: إنّهُ ليس مع ولد الصلب ذكراً كان أو أنثى لأحد سهم إلاّ الأبوين و الزوج و الزوجة، و لم يثبت للعمّ

مع ولد الصلب ميراث، و لم ينطق به الكتاب العزيز و السنة إلا أن تيمًا و عديًا و بني أمية قالوا: العمّ والد، رأيًا منهم بلا حقيقة ولا أثر عن رسول الله صلى الله عليه وآله، و من قال بقول عليّ من العلماء قضاياهم خلاف قضايا هؤلاء، هذا نوح بن دراج يقول في هذه المسألة بقول عليّ عليه السلام و قد حكم به، و قد ولاه أمير المؤمنين المصّرين: الكوفة، و البصرة و قضى به، فأنهى إلى أمير المؤمنين فأمر بإحضاره و إحضار من يقول بخلاف قوله، منهم: سفيان الثوري و إبراهيم المازني، و الفضيل بن عياض، فشهدوا أنه قول عليّ عليه السلام في هذه المسألة، فقال لهم فيما بلغني بعض العلماء من أهل الحجاز: لم لا تفتون و قد قضى نوح بن دراج؟ فقالوا: جسر و جبنًا. و قد أمضى أمير المؤمنين قضيته بقول قدماء العامة عند النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: أقضاكم عليّ، و كذلك عمر بن الخطاب قال: عليّ أقضانا و هو اسم جامع، لأنّ جميع ما مدح به النبي صلى الله عليه وآله أصحابه من القرابة و الفرائض و العلم داخل في القضاء. قال: زدني يا موسى، قلت: المجالس بالأمانات و خاصّة مجلسك. فقال: لا بأس به، فقلت: إن النبي صلى الله عليه وآله لم يورث من لم يهاجر، و لا أثبت له ولاية حتّى يهاجر. فقال: ما حجّك فيه؟ قلت: قول الله تبارك: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا﴾^١ و إنّ عمّي العباس لم يهاجر، فقال لي: إنّي أسألك يا موسى، هل أفتيت بذلك أحداً من أعدائنا، أو أخبرت أحداً من الفقهاء في هذه المسألة بشي؟ فقلت: اللهم لا، و ما سألتني عنها إلا أمير المؤمنين. ثمّ قال لي: جوّزتم للعامة و الخاصّة أن ينسبوكم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله و يقولوا لكم: يا بني رسول الله و أنتم بنو عليّ، و إنّما ينسب المرء إلى أبيه، و فاطمة إنّما هي وعاء و النبي جدكم من قبل أمّكم؟

فقلت: يا أمير المؤمنين، لو أن النبي ﷺ نشر فخطب إليك كريمتك هل كنت تجيبه؟ قال: سبحان الله! ولم لا أجيبه، بل أفتخر على العرب والعجم وقريش بذلك. فقلت له: لكنّه لا يخطب إليّ ولا أزوجه. فقال: ولم؟ فقلت: لأنّه ولدني ولم يلدك. فقال: أحسنت يا موسى، ثمّ قال: كيف قلت، إنّ ذريّة النبي والنبي لم يعقب وإنّما العقب الذكر لا الأنثى، وأنتم ولد الابنة ولا يكون ولدها عقباً له. فقلت: أسألك بحق القرابة والقبر ومن فيه إلا أعفيتني عن هذه المسألة. فقال: لا أو تخبرني بحجّتك في يا ولد عليّ، وأنت يا موسى يعسوبهم وإمام زمانهم، كذا أنهي إليّ، ولست أعفيك في كلّ ما أسألك عنه حتّى تأتيني فيه بحجّة من كتاب الله، وأنتم تدعون معشر ولد عليّ أنّه لا يسقط عنكم منه شيء ألف ولا واو إلا تأويله عنكم، واحتججتكم بقوله عزّ وجلّ: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾^١ واستغنيتم عن رأي العلماء وقياسهم، فقلت: تأذن لي في الجواب؟ قال: هات. فقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ^٢ من أبو عيسى يا أمير المؤمنين؟ فقال: ليس لعيسى أب. فقلت: إنّما ألحقناه بذراري الأنبياء ﷺ من طريق مريم ﷺ، وكذلك ألحقنا بذراري النبي ﷺ من قبل أمنا فاطمة ﷺ.

أزيدك يا أمير المؤمنين؟ قال: هات. قلت: قول الله عزّ وجلّ ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى

١- الأنعام: ٣٨.

٢- الانعام: ٨٤ و ٨٥.

الكاذبين»^١ و لم يدع أحد أنه أدخله النبي ﷺ تحت الكساء عند مباهلة النصارى إلا علي بن أبي طالب عليه السلام و فاطمة و الحسن و الحسين، «أبناءنا»: الحسن و الحسين، و «نساءنا»: فاطمة، و «أنفسنا»: علي بن أبي طالب عليه السلام. على أن العلماء قد أجمعوا على أن جبرئيل قال يوم أحد: يا محمد، إن هذه لهي المواساة من علي. قال: لأنه مني و أنا منه. فقال جبرئيل: و أنا منكما يا رسول الله. ثم قال: لا سيف إلّا ذوالفقار و لا فتى إلا علي، فكان كما مدح الله عزّ وجلّ به خليله عليه السلام إذ يقول ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾^٢. إنا نفتخر بقول جبرئيل: إنه منا. فقال: أحسنت يا موسى! ارفع إلينا حوائجك. فقلت له: إن أول حاجة لي أن تأذن لابن عمك أن يرجع إلى حرم جدّه و عياله. فقال: ننظر إن شاء الله»^٣.

فما كان من هارون إلا أن يدعه في غياهب السجن، و كأنّه كافأه على هذه الحجج الدامغة، و المحاورّة الهادئة التي كانت بينهما، فما كان من موسى بن جعفر عليه السلام إلا الشكر و السجود لله في محبسه الذي أعدّه واختاره له هارون، و كان عليه السلام يسجد كلّ يوم سجدة بعد ابضاض الشمس إلى وقت الزوال، فكان هارون ربّما صعد سطحاً يشرف منه على الحبس الذي حبس فيه موسى بن جعفر عليه السلام فكان يرى الإمام عليه السلام ساجداً، فقال للربيع: ما ذاك الثوب الذي أراه كلّ يوم في ذلك الموضع؟ قال: يا أمير المؤمنين ما ذاك بثوب، و إنّما هو موسى بن جعفر له كلّ يوم سجدة بعد طلوع الشمس إلى الزوال. قال الربيع: فقال هارون: أما

١- آل عمران: ٦١.

٢- الأنبياء: ٦٠.

٣- الاحتجاج للطبرسي ص ٣٨٩ - ط الأعلمي بيروت.

إِنَّ هَذَا مِنْ رَهْبَانِ بَنِي هَاشِمٍ ! قُلْتُ : فَمَا لَكَ فَقَدْ ضَيَّقتَ عَلَيْهِ فِي الْحَبْسِ ؟! قَالَ : هِيَ هَاتِ لَا بَدْءَ مِنْ ذَلِكَ .^١ وَكَأَنَّ هَارُونَ كَانَ يَعْلَمُ قَدْرَ الْإِمَامِ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِلرَّشِيدِ يَوْمًا : «أَنَا إِمَامُ الْقُلُوبِ وَ أَنْتَ إِمَامُ الْجَسُومِ»^٢ فَهَذِهِ هِيَ مَنْزِلَتُهُ وَ لَذَا كَانَ يَخَافُهُ هَارُونَ وَ يَخْشَى مَعْرِفَةَ النَّاسِ بِأَحْقَاةِ الْإِمَامِ وَ سُلْطَتِهِ الْمَنْصُوصَةِ مِنْ قَبْلِ السَّمَاءِ فَآثَرَ مَضَايِقَتَهُ حَتَّى آلَ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ يَقْتُلَهُ بِالسَّمِّ غَدْرًا .

وَ كَانَ هَارُونَ يَأْمُلُ مِنَ الْإِمَامِ الْكَاضِمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَخْضَعَ لَهُ خُضُوعَ الْعَبِيدِ ، وَ أَنْ يَلْتَمِسَ مِنْهُ الْعَفْوَ وَ الرَّحْمَةَ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ أَوْ ذَنْبِهِ وَ جَرَمٍ أَجْرَمَهُ ، فَقَدْ رَوَى الشَّيْخُ الطُّوسِيُّ : «أَنَّ الرَّشِيدَ بَعَثَ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ إِلَى الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السَّجْنِ أَنْ يَقُولَ لَهُ : إِنِّي لَا أَخْلِيكَ حَتَّى تَقْرَأَ لِي بِالْإِسَاءَةِ وَ تَسْأَلَنِي الْعَفْوَ عَمَّا سَلَفَ»^٣ وَ كَانَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَأْبَى ذَلِكَ ، وَ مَازَالَ دَأْبُهُ مَعَهُ حَتَّى قَتَلَهُ ، وَلَكِنْ بَقِيَتْ سِيرَتُهُ وَ عِبَادَتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَوْضِعَ تَعْجَبٍ وَ انْدِهَاشٍ سَاجِنِيهِ . لَقَدْ كَانَ الرَّشِيدُ يَتَصَوَّرُ بِأَنَّ اعْتِقَالَهُ وَ حُجْبَهُ عَنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ يَمْنَعُ ضَوْءَهُ وَ تَأْثِيرَهُ الْقَوِيَّ الْفَاعِلَ فِي نَفُوسِ الْأُمَّةِ ، لَذَا أَبْعَدَهُ إِلَى الْبَصْرَةِ أَوَّلَ أَمْرِهِ ، وَ أَرْسَلَ إِلَى عَيْسَى بْنِ جَعْفَرٍ وَ الْيَاسَرَةِ وَ الْيَاسَرَةِ وَ الْيَاسَرَةِ وَ الْحَبَشَةِ وَ يَحْجِبُهُ عَنْ أَتْبَاعِهِ وَ شِيعَتِهِ ، فَحَبَسَهُ عَيْسَى سَنَةً كَامِلَةً ، ثُمَّ كَتَبَ إِلَى الرَّشِيدِ : أَنْ خُذْهُ مَنِّي وَ سَلِّمْهُ إِلَيَّ مِنْ شَتَّى وَ إِلَّا خَلَيْتُ سَبِيلَهُ ، فَإِنِّي اجْتَهَدْتُ بِأَنْ أَجِدَ عَلَيْهِ حُجَّةً فَمَا قَدَرْتُ عَلَى ذَلِكَ ، حَتَّى إِنِّي لَأَتَسَمَّعُ عَلَيْهِ إِذَا دَعَا فَأَقُولُ لَعَلَّهُ يَدْعُو عَلَيَّ أَوْ عَلَيْكَ فَمَا أَسْمَعُهُ يَدْعُو إِلَّا لِنَفْسِهِ يَسْأَلُ الرَّحْمَةَ

^١ - بحار الأنوار ٤٨ : ٢٢٠ ؛ عيون أخبار الرضا ١ : ٩٥ .

^٢ - الإنحاف بحب الأشراف ص ١٥٠ .

^٣ - الغيبة للطوسي ص ٢٠ .

و المغفرة^١.

لقد فتن هذا الوالي العباسي بصبره عليه السلام وسعة صدره و صفاء قلبه حتى أنه لم يسمعه يدعو على ظالميه و ساجنيه، و كان ينبغي للرشد أن يكسر القيود و يعيد هذا العبد الصالح إلى مدينته و أسرته، ولكن الجبروت و الاستبداد الذي تملكه دفعه إلى أن يعيده إلى سجنه و يبعده عن المدينة، لكنه لم يجد سبباً أو سبيلاً عليه، بل لا بد أن يدبر أمراً لكي ينقله إلى بغداد ليعيده في سجنه المظلمة من جديد. و من المحتمل أن تكون زيارة الرشد للمدينة و قبر النبي صلى الله عليه و آله كان ليدبر خطة السجن له عليه السلام، يقول ابن الأثير في ذلك : كان سبب حبسه عليه السلام أن الرشد اعتمر في شهر رمضان من سنة تسع و سبعين و مائة فلما عاد إلى المدينة، على ساكنها الصلاة و السلام، دخل إلى قبر النبي صلى الله عليه و آله يزوره و معه الناس، فلما انتهى إلى القبر وقف الرشد فقال : السلام عليك يا رسول الله يا بن عم، افتخاراً على من حوله، فدنا موسى بن جعفر عليه السلام فقال : السلام عليك يا أبت،

فتغير وجه الرشد و قال : هذا الفخر يا أبا الحسن جداً! ثم أخذه معه إلى العراق فحبسه عند السندي بن شاهك، و تولى حبسه أخت السندي بن شاهك^٢.

إلا أن هذا الحبس كان درجة له عليه السلام و فضيحة لظلم الرشد و استبداده و طغيانه، و لم يكن السجن كافياً للطفة حتى قتلوه في سنة ١٨٣ هـ مسموماً^٣ معجلين له جنات النعيم، و رحل عنهم لكي تتحدث

١- مشير الأحزان للشيخ، شريف الجواهري ص ٢٥٢.

٢- الكامل في التاريخ ٥: ٣١٩.

٣- ينظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن عماد الحنبلي ١: ٣٠٤.

عنه وثائق التاريخ عن رجل صالح فاق العباد والزهاد في زمانه. و كان حديث عبادته قد وصلنا من عناصر البلاط العباسي و مقرّبيه، قبل محبّيه و شيعته، فقد حكّت أخت السندي بن شاهك عن موسى بن جعفر عليه السلام في حبسه لديها فقالت : كان إذا صلّى العتمة حمد الله ومجّده، و دعاه إلى أن يزول الليل، ثمّ يقوم فيصلّي حتّى يصلّي الصبح، ثمّ يذكر الله تعالى حتّى تطلع الشمس، ثمّ يقعد إلى ارتفاع الضحى، ثمّ يرقد يستيقظ قبل الزوال، ثمّ يتوضأ و يصلّي حتّى يصلّي العصر، ثمّ يذكر الله حتّى يصلّي المغرب و العتمة. فكان هذا دأبه إلى أن مات. و كانت أخت السندي إذا رآته قالت : خاب قوم تعرّضوا لهذا الرجل الصالح! ولكنهم تعرّضوا له و سقوه السمّ فخابت آخرتهم، و أعدّوا العدة ليما رسوا دور القاتل الخائب مع وصّيه و وارثه عليّ بن موسى الرضا عليه السلام الذي تجرّع كأس السموم و الغموم منهم على يد المأمون ثمّ قتله.

السياسة العباسية مع العلويين

كان الخلفاء الذين سبقوا الرشيد لا يعلنون عدواتهم و لا يجاهرون بها، و إنما يكتمون هذا عن الناس و يظهررون لهم بأنهم يودّون آل عليّ عليه السلام، حتّى روى الخلفاء العباسيون بعض فضائل عليّ عليه السلام و فضائل الأئمة من ذريته، و كان السفّاح و المنصور يسعيان إلى التودّد الظاهري إلى الأئمة عليهم السلام، و من هذا يروى بأنّ أبا جعفر المنصور خرج في يوم جمعة متوكّناً على يد الصادق عليه السلام، فقال رجل يقال له : رزام مولى خالد بن عبد الله : من هذا الذي بلغ من خطره ما يعتمد أمير المؤمنين على يده؟ ف قيل له : هذا أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق صلّى الله عليه.. ثمّ قام فوقف بين يدي المنصور فقال له : أسأل يا أمير المؤمنين؟ فقال له المنصور : سل هذا، فقال : إنّي أريدك بالسؤال، فقال المنصور : سل هذا، فالتفت رزام إلى الصادق عليه السلام فسأله و أجابه الصادق عليه السلام عن سؤاله، فالتفت المنصور إلى الصادق عليه السلام مخاطباً له : يا أبا عبد الله، لا نزال من بحرك نغترف و إليك نزدلف، تبصّر من العمى، و تجلو بنورك الطخياء،

فنحن نعوم في سبحات قدسك و طامي بحرك.^١
هكذا كان يقول المنصور بلسانه و ربّما بقلبه، ولكنّ غرور الحكم و
سكرة الملك لم تدعه يصفو مع الصادق عليه السلام و ليّ الله في أرضه و حجته
على عباده، بل كان يتجاهل ذلك، و هو يعلم قدره عليه السلام، و ظلّ يعيش
المنصور في دوامة من نشوة سلطانه و طغيان كبريائه، و كأنّ الزمان قد
خدعه، فلقد عاشت دولة بني العباس أزهى عصورها و تألّقت الدنيا في
عيونهم منذ أن استلم زمام هذه الدولة أبو جعفر المنصور الدوانيقي الذي
أسّس و وطّد دعائم هذه الدولة الفتية بأعمدة من حديد صلبة، لم يكن
يأبه بانيتها لنصح و لا لرجل دين أو حكمة، بل كان جلّ همّه أن يعلو
صرح بني العباس شامخاً، حتّى و لو كانت رمال و تراب هذا الطين
و الحجر العالي من دماء أبناء علي عليه السلام و رفات أجسادهم.
لقد كان المنصور جلداً جافاً شأنه شأن أي حاكم دنيويّ سلطوي،
لبس لباس الملوك و سار بسيرتهم في القوة و الحزم و الجدّ و البأس، إلا
أنّه خالط هذا الحزم و السطوة بقطرات من دموع باردة لم تسخن يذرفها
حين يضربه سوط الزمان. و ينسب له قوله: «إنّ من نازعنا عروة
هذا القميص أجزرناه خبي هذا الغمد». أي أنّه من ينازعنا الخلافة أخذناه
بحدّ السيف.^٢

و مع هذا الحرص و التكالب على أن لا تتفكّلت من يده دابة الحكم و
السلطة يبدو و كأنّه رجل دين زاهد في مواقع تنسّكه أو في لحظات
خلوته مع ربّه حين ينجيه و في موقع له خطب به في مدينة السلام

^١ - ينظر بحار الأنوار ٤٧: ١٨٥؛ فلاح السائل لابن طاووس ص ٢٣؛ كنز الكراحي ٢: ٢٢٣ - ط بيروت.

^٢ - محمّد جاسم الحديشي، وصايا الخلفاء و الأمراء السياسية و الإدارية في العصر العباسي - ط
المجمع العلمي بغداد ٢٠٠٢ ص ٩٧.

سنة ١٥٢ هـ، قائلاً: «يا عباد الله، لا تظلموا فإنها مظلمة يوم القيامة، و الله لو لا يد خاطئة و ظلم ظالم لمشيت بين أظهركم في أسواقكم، و لو علمت مكان من هو أحق بهذا الأمر مني لأتيته حتى أدفعه إليه». فهنا يبدو المنصور و كأنه حكيم زاهد مجبر على لبس لباس الملوك و السير بسيرتهم، و كأنه لم يستطع أن يكتشف أو يجد السلطان الذي ينبغي أن يسلم إليه السلطة. ولكن الخليفة وجد الرجل المناسب الذي ينبغي أن تنقاد له دولته، و هو الصادق عليه السلام إلا أنه كابر الزمان و كابر الحق. و لو لا بقية من رحم هاشمية لبطش بالصادق عليه السلام بطشة كبرى كما يبطش بالآخرين من عباد الله، ولكن حينه إلى ماضٍ عتيد رده بعض الشيء عن الفتك بالصادق عليه السلام.

فالمنصور في الظاهر يحتفظ بمسكة عاطفة هاشمية و خيط مهلهل من رحم لم يحفظ حرمتها أولاده. من بعده، و كأنهم قطعوا خيوط الرحم الهاشمي و نسيجه.

و حين استشار المنصور رجلاً من قيس عيلان في أمر إبراهيم و محمد بن عبد الله بن الحسن، اللذين كانا يعدان لثورة للانقضاء على المنصور و دولته، قال هذا الرجل: أرى أن تستعمل رجلاً من ولد الزبير أو طلحة، فإنهم يطلبونهما بزحل و يخرجونهما إليك، فقال المنصور: «قاتلك الله ما أجود ما رأيت! و الله ما خفي عليّ هذا، ولكنني أعاهد الله لا أنقم من بني عمي و أهل بيتي بعدوي و عدوهم، ولكنني أبعث عليهم صعلوكاً من العرب يفعل بهم ما قلت»^٢ فجرى ما جرى عليهما، و كذا يظهر من قول أحدهم للمنصور حين استشاره: فابعث بهم إلى وادي

١- تاريخ الطبري ٨: ٨٨

٢- البداية و النهاية لابن كثير الدمشقي ١٠: ٩٣.

القرى يمنعونهم من ميرة الشام، فيموت - أيّ محمّد بن عبد الله - هو ومن معه جوعاً، فإنّه ببلد ليس فيه مال ولا رجال ولا كراع ولا سلاح^١ وعندها سيّر إلى حرب محمّد بن عبد الله ابن أخيه عيسى بن موسى وقال له: فإن ظفرت بالرجل فاغمد سيفك وابدل الأمان، وإن تغيب فضمّنتهم إياه فإنّهم يعرفون مذهبهم. ومن لقيك من آل أبي طالب فاكتب إليّ باسمه، ومن لم يلقك فاقبض ما له. وكان جعفر الصادق عليه السلام تغيب عنه فقبض ما له^٢ ومن ذلك عين أبي زياد التي كانت للصادق عليه السلام. ولما حشر الصادق عليه السلام مع بني الحسن إلى العراق قال الصادق عليه السلام للمنصور: اردد عليّ عين أبي زياد أكل من سعتها.

فغضب المنصور وقال: إياي تكلم بهذا الكلام! والله لأزهقنّ نفسك، فقال الصادق عليه السلام له: قد بلغت ثلاثاً وستين، وفيها مات أبي و جدّي عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فعليّ كذا وكذا إن أذيتك بنفسي أبداً، وإن بقيت بعدك إن أذيت الذي يقوم مقامك. فرق له المنصور^٣. وفي رواية أخرى: «لما أدخل الصادق عليه السلام مع الحسن بن زيد على المنصور بعد مقتل إبراهيم بن عبد الله بن الحسن قال له المنصور: أنت الذي يعلم الغيب؟ قال عليه السلام: لا يعلم الغيب إلّا الله، ثمّ قال: أنت الذي يجبي إليك هذا الخراج؟ قال عليه السلام: إليك يجبي الخراج، يا أمير المؤمنين. فقال له المنصور: أتدرون لم دعوتكم؟ قال عليه السلام: لا، قال المنصور: أردت أن أهدم رباعكم وأغور قلوبكم وأعقر نخلكم وأنزلكم بالشرّة، لا يقرّبكم أحد من أهل الحجاز وأهل العراق فإنّهم لكم مفسدة، فقال الصادق عليه السلام

^١ - الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥: ١٥٦.

^٢ - نفس المصدرين.

^٣ - بحار الأنوار ٤٧: ٢١١.

له: يا أمير المؤمنين، إنَّ سليمان أُعطي فشكر، و إنَّ أيُّوب ابتلي فصبر، و إنَّ يوسف ظلم فغفر، و أنت من ذلك النسل. فتبسّم المنصور و قال للصادق عليه السلام: أعد عليّ، فأعاد عليه ما قال. فقال له: مثلك فليكن زعيم القوم، و قد عفوت عنكم، و وهبت لكم جرم أهل البصرة»^١.

و شخص مثل المنصور في حزمه و شدة شوكته على رعيته لا يمكن إرضاءه و إقناعه بسهولة، أو الإفلات من رصد عيونه الذين بثهم في أرجاء الدولة العباسية، و لذا هو يعلم علم اليقين أنَّ الإمام الصادق عليه السلام لم يكن في ركاب ثورة محمّد ذين النفس الزكية، و الذي حاول هو مع أبيه أن يستثمر شخصية الإمام الصادق عليه السلام لدعم حركته و تقويتها فلم يفلح في ذلك. و مع هذا حصلت للإمام عليه السلام استفزازات و مضايقات من قبل السلطة استطاع الإمام عليه السلام أن يتجاوزها بصبره و حلمه و لجوئه إلى ربّ العالمين مستجيراً به منهم. فقد كانت سلطة المنصور تحصي الأنفاس، و تتبّع كل صغيرة وكبيرة، و كل شاردة و واردة، فقد تعجّب الإمام مالك بن أنس من سعي المنصور لجمع الأخبار و تسقطها على العباد و علمه بتفصيلات و دقائق أمور لا يمكن لكل أحد أن يطلع عليها، تقول هذه الرواية: «بأنّ مالك بن أنس قد جمعه ذات يوم مجلس مع المنصور فقال له المنصور: أليست إذا بكت ابتك من الجوع تأمر بحجر الرحي فيتحرّك لكي لا يسمع الجيران بكاءها؟ فقال مالك: و الله ما علم أحد بهذا إلا الله! فقال المنصور: أأعلم بهذا و لا أعلم أحوال ريعتي؟!»^٢ فهكذا كان المنصور يلاحق كلّ شخص في بيته و حياته الخاصّة و يجمع الأخبار عنه من هنا وهناك، فكيف يفوته أحوال شخص

^١ - مقال الطالبين ص ٢٧٣.

^٢ - ثامر العميدي، واقع التقيّة عند المذاهب و الفرق الإسلامية من غير الشيعة الإمامية ص ١٤٤.

كالإمام الصادق عليه السلام، ولكنه أراد إرعاب وإزعاج الصادق عليه السلام وكبحه وتصغيره وتهوينه و وضعه في دوامة من القلق والتوتر وإبهامه بعقاب ينتظره كظله. ولكن الصادق عليه السلام ظل يمارس دوره مع قدره المرسوم له من سلطان زمانه. وكذا سائر الأئمة عليه السلام وأهل البيت لقوا ما لقوا من سلاطين زمانهم. وأسوأ وأبشع ما لقي أهل البيت عليه السلام وبقية العلويين وشيعتهم هو ظلم المتوكل العباسي وجرأته على الحرم الحسيني حين أمر سنة ست وثلاثين ومائتين بهدم قبر الحسين عليه السلام وهدم ما حوله من الدور، ومنع الناس من زيارته، فتألم المسلمون من ذلك، وكتب أهل بغداد شتمه على الحيطان والمساجد، وهجاه الشعراء، فمما قيل من شعر في ذلك :

بالله إن كانت أمية قد أتت	قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد أتاه بنو أبيه بمثله	هذا لعمرى قبره مهودما
أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا	في قتله فتبّعوه رميما ^١

عصر الرضا عليه السلام

امتدت حياة الرضا عليه السلام إلى مساحة نصف قرن من عصور الدولة العباسية الأولى. وما بين النصف الثاني من القرن الثاني الهجري إلى إطلالة القرن الثالث الهجري اعتركت أيادي الزمن مع دولة فتية أمدها الدهر بالمال والرجال فاخضرت هذه الدولة بالأموال الساحرة والفتن العارمة، والقوة والجبروت، فتبصر عيون الرضا عليه السلام هذه الدولة بفتنتها وفتوتها، وزهوها بين الدول فتبتسم لها مدن الشرق والغرب مفتونة طائعة وعاشقة لها باسطة أيديها بالعطاء الشر الذي أطغى هذه الدولة وأسكرها حتى جعلها تترنح بنشوتها. ويمثل العصر العباسي الأول، الذي

^١ - تاريخ الخلفاء للسيوطي بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ص ٣٤٧.

يمتدّ ما بين السنوات ١٣٢ إلى ٢٤٧ هـ، والذي يؤرّخ من خلافة أبي العباس السفّاح إلى مقتل المتوكّل العبّاسي، مرحلة النضج السياسي والاقتصادي للدولة التي حكمت باسم الدين. و يعتقد كثير من الباحثين أنّ هذا النضوج النسبي عزّزه حدود آمنة مستقرّة وجيش منظم قوي، مكّن الدولة أن تتّجه من دولة عسكريّة إلى دولة مدنيّة انصرفت جهودها نحو الثقافة والعلوم والفنون والآداب، و اتّجهت نحو الازدهار الاقتصادي نتيجة تعاظم واردات الدولة ونموّها المتلاحق في القطاع الزراعي و التجاري^١ وبداية نهوضها الصناعي، وتشكّل القطاع الحرفي الصناعي إن صحّ التعبير أو جازلنا أن نعبر عن فترة التقدّم الحضاري الذي حصل آنذاك.

و كان للصناعة نصيب كبير من عناية خلفاء العصر العبّاسي الأوّل الذين عنوا باستعمال موارد الثروة المعدنيّة، فاستخرجوا الفضة والنحاس والرصاص والحديد من مناجم فارس وخراسان. وكان بالقرب من بيروت مناجم للحديد ساعد وجودها على نموّ بعض الصناعات المعدنيّة. كما استخرجوا الخزف والمرمر من تبريز، و الملح و الكبريت من شمال فارس، والغاز و النفط من بلاد الكرج. واشتهرت البصرة بصناعة الصابون والزجاج، كما اشتهرت مصر في ذلك الوقت بصناعة المنسوجات.

واشتهرت بلاد الشام بصناعة الزجاج و الخزف.. و كان ببغداد عدد كبير من دور الصناعة، وقد قيل: إنه كان بها أربعمئة رحى مائيّة، و أربعة آلاف معمل لصنع الزجاج، و ثلاثون ألف معمل لصنع الخزف.. واشتهرت بغداد بالصياغة التي نبغ فيها الفرس، وبلغت صناعتهم شأواً

١- ينظر موفّق سالم نوري، العلاقات العبّاسيّة البيزنطيّة ٢٥، ٣٠.

بعيداً في الدقة والجمال.. واشتهرت مصر من عهد الفراعنة بصناعة المعادن، ولاسيما صياغة الذهب والفضة، وضربوا بسهم وافر في صناعة الأدوية والعقاقير.^١ وقد شهدت المدن الإسلامية نمواً كبيراً في العمران والتطور الحضاري والتجاري معاً، فالكوفة بلغت أوجها في الأهمية والنشاط و الإزدهار خلال العصر العباسي الأول، العصر الذي ازدهرت فيه حياة المدن العربية الإسلامية في المجالات الاقتصادية والتجارية. ومن هذا يذكر البلدانون موقع المدينة بالنسبة إلى طرق المواصلات التجارية السائدة آنذاك. فكانت المحطة التجارية للتجار الروس الخارجين من الأندلس بعد مرورهم بدمشق ومنها يتوجهون إلى بغداد ثم إلى البصرة ثم إلى بلاد فارس^٢ و صارت المدن الإسلامية مدن غنية تعجّ بالمال و الثروات الاقتصادية المتنوعة فأمدت الدولة بالأموال الطائلة التي أغنت الدولة العباسية و أترفها ويتحدث المؤرخون بأنه كانت خزائن العباسيين تفيض بالأموال التي كانت تجبي من الضرائب، و قد بلغت في أيام الرشيد ما يقارب من اثنين و أربعين مليون دينار، عدا الضريبة العينية التي كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب حتى قيل: إن الرشيد كان يستلقي على ظهره و ينظر إلى السحابة المارة ويقول: اذهبي حيث شئت يأتيني خراجك،^٣ فامتألت جيوبهم و جيوب أتباعهم بهذا الأموال العظيمة فشملت الخاصة وبعض العامة حالة من الرخاء والانتعاش الاقتصادي، فظهر في زيّ و مظهر و لباس العصر و أثائه و زينته، و حتى تجلّى و انعكس في فنونه و آدابه.

^١ - حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي و الديني و الاجتماعي و الثقافي ٣: ٣٠٨.

^٢ - عبد الجبار ناجي، دراسات في المدن العربية الإسلامية ص ٢٠٠.

^٣ - الدكتور حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي و الديني و الاجتماعي و الثقافي ٣: ٣٠٢.

ويقول نوري: غير أن ذلك لا يعني صفاء الجوّ وخلوّه من عوامل الاضطراب والقلق السياسي، إذ عانى الوسط السياسي الداخلي للدولة العباسيّة من الكثير من حركات المعارضة التي أطلق عليها المؤرّخون القدامى في أحيان كثيرة صفة الثورة. مع أنّها لا تمت إلى مفهوم الثورة بصلة. والأفضل أن يطلق على هذه الحركات صفات أخرى مثل: هياج، فتن، تمرد، عصيان مسلّح، حركة معارضة، أو حتّى مغامرات تعبّر عن طموحات شخصيّة لا غير^١ لأنّ الثورة الوحيدة التي شهدتها تاريخ الحقبة الأمويّة و العباسيّة هي ثورة الحسين عليه السلام فهي الثورة الحقيقيّة الصادقة، وما عداها تدرج تحت عنوان : هياج، فتن، تمرد.. و لا يعني إحجامنا عن إطلاق مصطلح الثورة على المواجهات التي قام بها مخالفو النظام العباسي أنّها كانت باطلاً كلّها، و إنّما لم تمل شرف الثورة ودرجتها كما نالت ثورة الحسين عليه السلام، أو أنّ بعضها كانت أدنى ثوريّة من دلالات معنى الثورة ومعطياتها. والثورة في معنى مقارب لها تعني حدوث انقلاب سياسي اقتصادي اجتماعي، يرمي إلى إبدال نظام قديم من سلطة جديدة تحوّل علاقات الإنتاج و التراتب في مجتمع معيّن.. وتتميّز الثورة عن التمرد بتنظيمها و بوعي الأهداف الوضعيّة المنشودة يتعدّى تدمير النظام القائم^٢ و مهما اتّخذت التسميات المعارضة للنظام العباسي في عنوانها، فإنّها حقّقت بعض الأهداف المعلنة و غير المعلنة، و أسهمت في ضعضة وهلهلة النظام العباسي.

ولم تكن هذه الخطوط المعارضة وحدها التي أضعفت الدولة العباسيّة و أربكتها، و إنّما كانت هناك خطوط و شعب من داخل البيت العباسي

١- ينظر موفّق سالم نوري، العلاقات العباسيّة البيزنطيّة ص ٣٠.

٢- ينظر خليل أحمد خليل، مفاتيح العلوم الإنسانيّة ص ١٤٧، رقم ٤٩٧.

أدخلت الدولة الواسعة و المترامية الأطراف في فوضى و اضطراب. وأكبر فتنة شهدتها الدولة العباسية هي فتنة الأمين و المأمون في أواخر القرن الثاني الهجري، و قد شاع بين الناس حالة من الاستياء و التذمر من البيت العباسي، و من خلال محاوراة المأمون مع القاضي يحيى بن أكثم يكتشف القارئ تفسخ أجهزة الدولة العباسية و طغيانها و استياء الناس من ذلك الوضع، حيث يروي ابن عماد الحنبلي: «أنَّ المأمون قال ليحيى بن أكثم : من الذي يقول:

قاضي يرى الحد في الزنا و لا يرى على من يلو ط من بأس
قال يحيى بن أكثم : أما تعرف يا أمير المؤمنين من قاله؟ قال المأمون:
لا، قال يحيى: يقوله الفاجر أحمد بن أبي نعيم الذي يقول :
لا أحسب الجور ينقضي و على الأمة و ال من آل عباس
فأطرق المأمون حياء و خجلاً^١ لأنه أدرك عمق المصيبة و المأساة التي تبدأ من رأس الدولة الذي أوجد موظفين وقضاة وقادة فاسدين يدير بهم أمور الدولة.

و قد اضطربت الدولة العباسية اضطراباً هائلاً حين دخلت سنة ثلاث و تسعين و مائة، ففيها مات الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك في الحبس بالرقّة.. و كان يقول : ما أحب أن يموت الرشيد، لأنَّ أمري قريب من أمره. و كان موته قبل الرشيد بخمسة أشهر و هو ابن خمس و أربعين سنة. و أما الرشيد فمات و عمره سبع و أربعون سنة. و كانت حكومته تزيد على ثلاث و عشرين سنة. و في هذه السنة ابتدأ الاختلاف بين الأمين و المأمون ابني الرشيد، و كان سبب ذلك أنَّ الرشيد لمّا سار نحو خراسان و أخذ البيعة للمأمون على جميع من في عسكره من القواد

١- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ٢: ٤١.

وغيرهم أقرّ له بجميع ما معه من الأموال وغيرها، عظم ذلك على الأمين. ثمّ بلغه شدة مرض الرشيد فأرسل بكر بن المعتمر وكتب معه كتباً، وجعلها في قوائم صناديق المطبخ، وكانت منقورة^١ وألبسها جلود البقر وقال: لا تظهرن أمير المؤمنين ولا غيره على ذلك حتّى يموت أمير المؤمنين ولو قتلت. فإذا مات فادفع إلى كلّ إنسان منهم ما معك، فلما قدم بكر بن المعتمر طوس بلغ هارون قدومه فدعا به وسأله عن سبب قدومه، فقال بعثني الأمين لآتيه بخبرك.

قال الرشيد: فهل معك كتاب؟ قال: لا، فأمر بما معه ففتّش، فلم يصيبوا شيئاً فأمر به فضرب فلم يقرّ بشيءٍ فحبسه وقيّده ثمّ أمر الفضل ابن الربيع بتقريره، فإن أقرّ وإلا ضرب عنقه، فقرّره فلم يقرّ بشيء، ثمّ غشي على الرشيد فصاح النساء فأمسك الفضل عن قتله، وحضر عند الرشيد فأفاق، وهو ضعيف، قد شغل عن بكر وغيره ثمّ مات. وكان بكر قد كتب إلى الفضل يسأله أن لا يعجل في أمره بشيء فإنّ عنده أشياء يحتاج إلى عملها، فأحضره الفضل وأعلمه بموت الرشيد وسأله عمّا عنده فخاف أن يكون الرشيد حيّاً، فلمّا تيقّن موته أخرج الكتب التي معه، وهي كتاب إلى أخيه المأمون يأمره بترك الجزع وأخذ البيعة على الناس لهما ولأخييهما المؤمن. ولم يكن المأمون حاضراً وكان بمرو. وكتاب إلى أخيه صالح يأمره بتسيير العسكر واستصحاب ما فيه، وأن يتصرف هو ومن معه برأي الفضل بن الربيع. وكتاب إلى الفضل بن الربيع يأمره بالحفظ والاحتياط على ما معه من الحرم والأموال وغير ذلك. وأقرّ كلّ من كان إليه عمل؛ كصاحب الشرطة والحرس والحجابة، فلمّا قرؤوا الكتب تشاوروا هم والقواد بالحق بالأمين. فقال الفضل بن

١- منقورة: مكتوبة. و النقر: الكتابة. لسان العرب (نقر).

الربيع: لا أدع ملكاً حاضراً لآخر ما أدري ما يكون من أمره، و أمر الناس بالرحيل فرحلوا محبةً منهم لأهلهم و وطنهم، و تركوا العهود التي كانت أخذت عليهم للمأمون.^١

و هكذا اشتعلت أزمة كبيرة بين أفراد البيت العباسي الواحد هتكت و مزقت الدولة العباسية شرّ تمزيق، و أنهرت دماء رعيّتها في حروب و فتن أرهقت الدولة و الأمة مُعاً، فالتفت المأمون عندها إلى منقذ و طريق للخلاص من هذه المعضلة، فلم يجد غير الالتفات إلى ركن و ثيق و شخص كريم قويّ يمنع البناء العباسي من أن يتهافت و يندثر في هذه الفتنة العباسية العمياء، فيمّم نظره نحو المدينة ليستغيث و يلوذ بالعمود العلويّ الذي كان هو و أبأوه ملاذاً للأمة و خلاصاً لها، و كأنّ المأمون كان على ميعاد مع رجل الرحمة ليهطل على نار الفتنة العباسية التي ألهبها أبوه و أخوه، راجياً من قطرات الغيث العلوي الرضوي إطفاء هذه النيران فهل كان له ما أراد؟

الرضا عليه السلام من الولادة إلى الإمامة

شعت أنوار الرضا عليه السلام في مدينة كانت مهاجر النبي ﷺ و موطن أنصاره و أصحابه، في عام ١٤٨ هـ، و يقال: كانت ولادته لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة يوم الجمعة سنة ثلاث و خمسين و مائة، و قيل: يوم الخميس^٢ و قيل: في سنة إحدى و خمسين و مائة.^٣

و كأنّ هذه الأنوار كانت حبيسة في صلب النبي ﷺ من زمان هجرته، ولكنّها لم تنطلق أو يؤذن لها في أن ترى حتّى هذه الأعوام، عندها

^١ - الكامل في التاريخ ٥: ٣٥٩.

^٢ - إعلام الوري بأعلام الهدى ص ٣٠٢.

^٣ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ٢: ٦.

أضاءت المدينة و تسمّت شعابها بعد أن غطّت جذرانها و نخيلها غبار الدولة العباسيّة التي وضعت أحجارها و ترابها على ركامات دولة الأمويّين التي تهدّمت بمعاول الثائرين، و كانت شجرة النبوة غرست بذور أبنائها هناك لتورق لنا أوراق خضراء غضة طرية هي أوراق الإمامة، و كانت الورقة الثامنة التي تشرّفت أم سمراء بحملها هي الخيزران المرسية أو شقراء النوبيّة أو سكن النوبيّة، و كانت تسمّى أيضاً: أروى أو نجمة أو تكتم، و كانت تحمل في سحتها ملامح المغرب العربيّ الذي لوّحته الشمس بفحمة الغروب^١ و وصلت إلى بيت النبوة بانتظار أن تحمل وديعة إلهيّة تشرّفت و تطهرت بأنفاسهم الطاهرة.

حينها شهدت المدينة الزاهية المورقة بحديث النبي صلى الله عليه وآله ولادة غصن طريّ من الشجرة المحمّدية النابتة في رمال المدينة العابقة بعطر الوحي و الرسالة، و المظلّلة بأجنحة الملائكة و سحب الغيث و الرحمة، فازدانت بهاءً و جلالاً بهذا الوليد المتدبّر بأنواره، متفتقاً من أكمّام هذه الجارية المغربيّة التي كانت تنتظرها طيبة في الحجاز العربيّ المشرق لتكتحل عيون الجزيرة بأطياف الإمامة العلويّة الواعدة.

و ظهرت تباشير البرعم العلويّ الجديد المورق بالخير و العطاء الوارف لما اشترت حميدة المصفاة — وهي أم أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام، و كانت من أشرف العجم — جارية مولدة كانت من أفضل النساء في عقلها و دينها، و عرفت بإعظامها لمولاتها حميدة المصفاة، حتّى أنّها ما جلست بين يديها منذ ملكتها إجلالاً لها، فقالت حينها لابنها موسى عليه السلام: يا بنيّ، إنّ تكتّم جارية ما رأيت جارية قطّ أفضل منها، و لست أشكّ أنّ الله تعالى سيظهر نسلها، إن كان لها نسل، و قد وهبتها لك

١- ينظر بحار الأنوار ٤٩: ٢ و ٣.

فاستوص بها خيراً، فكانت تحمل الأنوار التي تمتدّ إلى خير الخلق
 محمد ﷺ.

و ذكرت حميدة: أنّها رأت في المنام رسول الله ﷺ يقول لها: يا
 حميدة هبي نجمة - وهو اسم آخر لها - لابنك موسى فإنه سيولد له
 منها خير أهل الأرض، فلمّا ولدت الرضا عليه السلام سمّاها الطاهرة^١، و حقّاً
 هي كانت طاهرة فاتّصلت ببيت الطهر النبوي.

و كانت لها أسماء أخرى منها: سكن، و سمّان، و تكتّم آخر أساميها.
 و كان الرضا عليه السلام يرتضع كثيراً، و كان تامّ الخلق، فقالت: أعينوني
 بمرضعة، فقيل لها: أنقص الدرّ؟ فقالت: والله ما نقص، ولكن عليّ ورد
 من صلاتي و تسبيحي و قد نقص منذ ولدت^٢.

و كانت تقول لمّا حملت با بني عليّ: لم أشعر بثقل الحمل، و كنت
 أسمع في منامي تسبيحاً و تهليلاً و تمجيداً من بطني فيفزعني ذلك و
 يهولني، فإذا انتهت لم أسمع شيئاً، فلما وضعت وقع على الأرض واضعاً
 يده على الأرض رافعاً رأسه إلى السماء يحرك شفّتيه، كأنه يتكلّم، فدخل
 إليّ أبوه موسى بن جعفر عليه السلام فقال لي: هنيئاً لك يا نجمة كرامة ربك،
 فناولته إياه في خرقة بيضاء فأذن في أذنه اليمنى و أقام في اليسرى، و
 دعا بماء الفرات فحنّكه به، ثمّ رده إليّ و قال: خذيه فإنه بقيّة الله تعالى
 في أرضه^٣.

و من ألقابه: سراج الله، نور الهدى، و قرّة عين المؤمنين، و مكيدة
 الملحدين، كفو الملك، و كافي الخلق، و ربّ السرير، و ربّاب التدبير، و

١- إعلام الوري بأعلام الهدى، للطبرسي ص ٣٠٢.

٢- ينظر بحار الأنوار ٤٩: ٧ و ٨.

٣- عيون أخبار الرضا ١: ٢٠١.

الفاضل، و الصابر، و الوفي، و الصديق، و الرضي. و سَمِيَ الرضا لأنَّه كان رضىَّ الله تعالى في سمائه، و رضىَّ لرسوله و للأئمة عليهم السلام بعده في أرضه. و قيل : لأنَّه رضي به المخالف و المؤلف، و قيل: لأنَّه رضي به المأمون.^١ و عن الجواد عليه السلام : لأنَّه رضي به المخالفون كما رضي به الموافقون من أوليائه، و لم يكن ذلك لأحد من آبائه عليه السلام، فلذلك سَمِيَ الرضا،^٢ و كان نقش خاتمه : وليّ الله.^٣

و كان موسى الكاظم عليه السلام يسمي ولده علياً عليه السلام الرضا، و كان يقول : ادعوا لي ولدي الرضا، و قلت لولدي الرضا. و قال لي ولدي الرضا، وإذا خاطبه قال : يا أبا الحسن.^٤

النصّ على الرضا عليه السلام

روى المفضل بن عمر قال: «دخلت على أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام و عليّ ابنه عليه السلام في حجره و هو يقبله و يمصّ لسانه، و يضعه على عاتقه و يضمّه إليه و يقول : بأبي أنت و أمي ما أطيب ريحك و أظهر خلقك، و أبين فضلك ! قلت : جعلت فداك، لقد وقع في قلبي لهذا الغلام من المودة ما لم يقع لأحد إلا لك، فقال لي: يا مفضل، هو منّي بمنزلي من أبي عليه السلام ذرية بعضها من بعض و الله سميع عليم. قال : قلت : هو صاحب هذا الأمر من بعدك؟ قال : نعم، من أطاعه رشد و من عصاه كفر».^٥

١- بحار الأنوار ٤٩ : ١٠.

٢- علل الشرائع للصدوق ص ٢٣٧ باب ١٧٢.

٣- بحار الأنوار ٤٩ : ٧.

٤- عيون أخبار الرضا ١ : ١٤.

٥- نفس المصدر ١ : ٣٢.

و روى داود الرقي قال: «قلت لأبي إبراهيم عليه السلام: جعلت فداك، إنه قد كبر سني فخذ بيدي وأنقذني من النار، من صاحبنا بعدك؟ قال داود: فأشار إلى ابنه أبي الحسن علي الرضا عليه السلام فقال: هذا صاحبكم من بعدي»^١. و روى نعيم القابوسي عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: «ابني علي أكبر ولدي، وأبرهم عندي، وأحبهم إلي، وهو ينظر معي في الجفر، ولم ينظر فيه إلا نبي أو وصي نبي».

و روى محمد بن إسحاق بن عمار قال: «قلت لأبي الحسن الأول عليه السلام: ألا تدلني على من آخذ ديني؟ فقال عليه السلام: هذا ابني علي، إن أبي أخذ بيدي وأدخلني إلى قبر رسول الله ﷺ وقال: بني، إن الله عز وجل قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^٢ وإن الله تعالى إذا قال قولاً وفى به».

و روى زياد بن مروان القندي: قال: «دخلت على أبي إبراهيم عليه السلام وعنده ابنه أبو الحسن عليه السلام فقال: يا زياد، هذا ابني كتابه كتابي، وكلامه كلامي، ورسوله رسولي، وما قال فالقول قوله»^٣.

و روى محمد بن سنان قال: «دخلت على أبي الحسن عليه السلام قبل أن يحمل إلى العراق بسنة وعلي ابنه عليه السلام بين يديه، فقال لي: يا محمد، قلت: لبيك، قال: إنه سيكون في هذه السنة حركة فلا تجزع منها، ثم أترك ونكت بيده في الأرض ورفع رأسه إلي وهو يقول: يضل الله الظالمين ويفعل ما يشاء، قلت: وما ذاك جعلت فداك؟ قال: من ظلم ابني هذا حقه و جحد إمامته من بعدي كان كمن ظلم علي بن أبي طالب عليه السلام حقه و

^١ - إعلام الوری بأعلام الهدى للطبرسي ٣٠٤.

^٢ - البقرة: ٣٠.

^٣ - إعلام الوری بأعلام الهدى للطبرسي ص ٣٠٣.

جحد إمامته من بعد محمد عليه السلام. فعلمت أنه قد نعى إليّ نفسه و دلّ على ابنه»^١.

و روى عليّ بن يقطين قال: «قال لي أبو الحسن عليه السلام: يا عليّ، هذا أفقه ولدي و قد نحلته كنيّتي، و أشار بيده إلى عليّ ابنه»^٢.

و روى داود الرقيّ قال: «قلت لأبي إبراهيم عليه السلام: جعلت فداك، إنّي قد كبرت سنّي فخذ بيدي و انقذني من النار، من صاحبنا بعدك؟ فأشار إلى أبي الحسن عليه السلام فقال: هذا صاحبكم من بعدي»^٣.

و قد أجمع أصحاب أبيه موسى عليه السلام على أنّه نصّ عليه و أشار بالإمامة إليه إلا من شذّ منهم من الواقفة و المسمّين: الممطورة^٤. فأنكروا إمامته و جحدوا حقّه. و السبب الظاهر في ذلك طمعهم فيما كان في أيديهم من الأموال المرسلة إليهم في مدّة حبس أبي الحسن موسى عليه السلام، و ما كان عندهم من ودائعهم فحملهم ذلك على إنكار وفاته و ادّعاء حياته، و دفع خليفته بعده عن الإمامة، و إنكار النصّ عليه ليذهبوا بما في أيديهم ممّا وجب عليهم أن يسلموه إليه^٥.

١- عيون أخبار الرضا ١: ٣٢.

٢- بحار الأنوار ٤٩: ٢٣. و النصوص على إمامته عليه السلام كثيرة انتخبنا منها باقية ذكرناها و من أراد التوسّع فليراجع بحار الأنوار الجزء ٤٨ و ٤٩.

٣- بحار الأنوار ٤٩: ٢٣. و النصوص على إمامته عليه السلام كثيرة انتخبنا منها باقية ذكرناها و من أراد التوسّع فليراجع بحار الأنوار الجزء ٤٨ و ٤٩.

٤- الممطورة : هم الواقفّة لقّبوا بذلك لأنهم لكثرة ضررهم على الشيعة و افتتانهم بهم كانوا كالكلاب التي أصابها المطر و ابتلت و مشّت بين الناس، فلا محالة يتنجّس الناس بها، فكذلك هؤلاء في اختلاطهم بالإماميّة و افتتانهم بهم. و قد غلب عليها هذا اللقب و شاع في الناس و كان سبب ذلك أنّ عليّ بن إسماعيل الميثمي و يونس بن عبد الرحمن ناظرا بعضهم فقال له عليّ بن إسماعيل و قد وقع بينهم: ما أنتم من الشيعة و إنّما أنتم كلاب ممطورة. المقالات و الفرق للأشعري ص ٩٢؛ بحار الأنوار ٨٢: ٢٠٣.

٥- إعلام الوري بأعلام الهدى للطبرسي ص ٣٠٣.

قال الصدوق: «لم يكن موسى بن جعفر عليه السلام ممّن يجمع المال، ولكنّه حصل في وقت الرشيد، و كثر أعداؤه، و لم يقدر على تفريق ما كان يجتمع لديه إلا على القليل ممّن يثق بهم في كتمان السرّ، فاجتمعت هذه الأموال لأجل ذلك. و أراد أن لا يحقّق على نفسه قول من كان يسعى به إلى الرشيد و يقول: إنّه تحمل إليه الأموال، و يعتقد له الإمامة، و يحمل على الخروج عليه، و لو لا ذلك لفرّق ما اجتمع من هذه الأموال على أنّها لم تكن أموال الفقراء، و إنّما كانت أموالاً يصله بها مواليه ليكون له إكراماً منهم له و برّاً منهم به عليه السلام». ^١ فاستبدّوا بهذه الأموال و أظهروا الوقف على موسى بن جعفر عليه السلام و أنكروا الحجّة الثامنة علي بن موسى الرضا المرتضى عليه السلام، ولكن الله سبحانه و تعالى أبطل مقالتهم و أظهر إمامته عليه السلام بالأدلة و البراهين و النصوص المتواترة عليه، فما كان من هذه الفرقة إلا الضياع و التلاشي و الاضمحلال في متاهات الزمن الذي يضيع فيه المبطلون.

^١ - عيون أخبار الرضا ١: ١١٤.

العمل مع السلاطين و الحكام

كانت سيرة المعصومين عليهم السلام هي النأي عن حاكم الجور و البغى و الظلم، و الأئمة عليهم السلام يستندون إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾^١. و إلى أحاديث جدّهم عليه السلام، و أبيهم علي عليه السلام. و من ذلك قوله عليه السلام: «يقول الله عزّ وجلّ: اشتدّ غضبي على من ظلم من لا يجد ناصرًا غيري»^٢.

و قوله عليه السلام: «إياكم و الظلم، فإنّ الظلم عند الله هو الظلمات يوم القيامة»^٣.

و قوله عليه السلام: «أوحى الله تعالى إليّ: أن يا أخا المرسلين، يا أخا المنذرين أنذر قومك لا يدخلوا بيتاً من بيوتي و لأحدٍ من عبادي عند أحدٍ منهم مظلمة، فإنّي ألعنه مادام قائماً يصلّي بين يديّ حتّى يردّ تلك المظلمة فأكون سمعه الذي يسمع به»^٤. و في حديث المناهي عنه عليه السلام

^١ - هود : ١١٣.

^٢ - أمالي الطوسي ٢ : ١٩.

^٣ - الخصال للصدوق : ١٧٦ ح ٢٣٥.

^٤ - عدة الداعي لابن فهد الحلبي : ١٢٩.

قال: «من مدح سلطاناً جائراً و تخفّف و تخضع له طمعاً فيه كان قرينه إلى النار.» و قال ﷺ: «من دلّ جائراً على جور كان قرين هامان في جهنم.» و قال ﷺ: «من توكّل خصومة ظالم أو أعان عليها ثمّ نزل به ملك الموت قال له: أبشر بلعنة الله و نار جهنم و بئس المصير.» و قال ﷺ: «ألا و من علّق سوطاً بين يدي سلطان جائر، جعل الله ذلك السوط يوم القيامة ثعباناً من النار، طوله سبعون ذراعاً يسלט عليه في نار جهنم و بئس المصير»^١.

و كان عليّ عليه السلام يقول: «العامل بالظلم و المعين عليه و الراضي به شركاء ثلاثة»^٢.

و من كلام لعليّ عليه السلام: «و الله لئن أبيت على حسك السعدان^٣ مسهداً، و أجرّ في الأغلال مصفداً أحبّ إليّ من أن ألقى الله و رسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد و غاصباً لشيء من الحطام»^٤.
و يروي عبد الغفار بن القاسم من أصحاب الباقر عليه السلام أنّه قال: قلت للباقر عليه السلام: ما تقول في الدخول على السلطان؟

قال عليه السلام: لا أرى لك ذلك، قلت: إنّي ربّما سافرت إلى الشام فأدخل على إبراهيم بن الوليد، قال: «يا عبد الغفار، إنّ دخولك على السلطان يدعو إلى ثلاثة أشياء: محبة الدنيا، و نسيان الموت، و قلة الرضا بما قسم الله»^٥. ولكنّ المسلمين وجدوا من بعض العلماء و الفقهاء رخصاً و معاذير

^١ - أمالي الصدوق ص ٣٤٥.

^٢ - الخصال للصدوق ص ١٠٧ ح ٧٢.

^٣ - السعدان: نبت، و لهذا النبت شوك إذا وطئه الماشي عقر رجله شوكه، يقال له: حسكة السعدان. لسان العرب (سعد).

^٤ - نهج البلاغة ٣٤٦ رقم ٢٢٤.

^٥ - كفاية الأثر في النصّ على الأنمة الأثني للخزّاز عشر ص ٢٥١.

في مهادنة السلاطين و الوقوف على أبوابهم، فقد عمد بعض علماء السنة إلى تبرير الخضوع للحاكم الجائر و الفاسق و إطاعته منعاً للشغب و الاقتتال على السلطة. كما عمدوا إلى إضفاء الشرعية على الممارسات الفعلية للقيادة السياسية المتمثلة في البيت الأموي و العباسي.

فجوز الماوردي ولاية الاستيلاء. ثم جوز؟ جماعة من بعده إمامة الاستيلاء. كما غض كثير من فقهاء الجمهور الطرف عن عهد الخليفة لابنه و أخيه. و كتب الإمام الغزالي الرسالة المستنصرية ليضفي الشرعية على حكم المستنصر بالله الخليفة العباسي و يصحح ولايته؛ رغم فقدان المستنصر لشروط الخلافة التي وضعها متقدمو الغزالي من الفقهاء، متذرعاً بالوظيفة التي يؤديها الخليفة من حفظ الأمن و تطبيق الشرع. إلا أن السيرة العامة للمعصومين عليه السلام و علماء الشيعة بعدهم ترى بأن السكوت على الجور و الطغيان يدفع الحاكم على التمادي و الاستمرار بمحق الحقوق، و من ثم تكون الممارسات الظالمة شرعاً يُسنّ، و سنة باطل تتبع، فالاقتراب منهم يقود إلى مشاكل كثيرة لا يمكن السيطرة عليها أو دفعها.

و على العموم التردد على أبواب السلاطين يضعف إرادة العالم و الفقيه، بل مجرد الدخول هو ضعضة و إغراء للعالم على تقديم تنازلات لهم و من ثم المداينة و الخضوع للحكام. و مما يروى هنا: أن شريكاً دخل على المهدي العباسي فقال له: لا بدّ من ثلاث: إما أن تلي القضاء، أو تؤدّب ولدي و تحدثهم، و إما أن تأكل عندي أكلة، ففكر شريك ساعة ثم قال: الأكلة أخفّ عليّ، فأمر المهديّ بعمل ألوان من المخ المعقود بالسكر و غير ذلك، فأكل، فقال الطباخ: لا يفلح بعدها، فقبل:

حدثهم بعد ذلك، و علّمهم العلم، و ولي القضاء لهم.^١ و لمّا لقي سفيان الثوري شريكاً بعد ما استقضى فقال له : يا أبا عبد الله بعد الإسلام والفقّه و الصلاح تلي القضاء! فقال له : لا بدّ للناس من قاض، فقال سفيان : ولا بدّ للناس من شرطي.^٢ و في هذا يروى: أنّه كتب شريك بأرزاقه إلى الجهيد^٣ و ضايقه في النقص، فقال له الجهيد : إنّك لم تبع بزّاً! قال شريك: بلى و الله، لقد بعث أكبر من البر، لقد بعث ديني.^٤ و من هذا المنطلق كان الأئمة المعصومون (عليهم السلام)، و من بعدهم علماء الشيعة، يرون حرجاً كثيراً و ذنباً كبيراً، لمن وضع يده بيد الحاكم الجائر الذي يهضم حقوق الناس، و يسحق العباد بأقدامه، و يأكل أخضرهم و يابسهم ظلماً و عدواناً. و حينما سأل شيخ من شيوخ النخع أبا جعفر الباقر (عليه السلام) قائلاً : إنّني لم أزل و الياء منذ زمن الحجاج إلى يومي هذا، فهل لي من توبة؟ فسكت الإمام الباقر (عليه السلام)، ثم أعاد عليه، فقال الإمام الباقر (عليه السلام) : لا، حتّى تؤدّي إلى كلّ ذي حقّ حقّه.^٥

و روى عليّ بن أبي حمزة قال : كان لي صديق من كتاب بني أميّة فقال لي : استأذن لي على أبي عبد الله (عليه السلام)، فاستأذنت له، فلمّا دخل و سلّم و جلس قال : جعلت فداك، إنّني كنت في ديوان هؤلاء القوم فأصبت من دنياهم مالا كثيراً و أغمضت في مطالبه، فقال أبو عبد

١- تاريخ الخلفاء للسيوطي بتحقيق محيي الدين عبد الحميد ص ٢٧٥.

٢- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧ : ٦٧.

٣- الجهيد : العارف بالقنود و المتوكلي تقسيمها. ينظر المعجم الوسيط (جهيد).

٤- البر : السلاح، يدخل فيه الدرع و المغفر و السيف. ترتيب جمهرة اللغة ١ : ١٣١ (بزر).

٥- مروج الذهب ٣ : ٣١٠.

٦- الأصول من الكافي ٢ : ٣٣١ ح ٣.

الله عليه السلام: لو لا أن بني أمية وجدوا من يكتب لهم و يجبي لهم الفىء و يقاتل عنهم و يشهد جماعتهم، لما سلبونا حقنا، و لو تركهم الناس و ما في أيديهم ما وجدوا شيئا إلا ما وقع في أيديهم، فقال الفتى: جعلت فداك، فهل لي من مخرج منه؟

قال: إن قلت لك تفعل؟ قال: أفعل، قال: اخرج من جميع ما كسبت في دواوينهم، فمن عرفت منهم رددت عليه ماله، و من لم تعرف تصدقت به، و أنا أضمن لك على الله الجنة. فأطرق الفتى طويلاً فقال: قد فعلت جعلت فداك. قال ابن أبي حمزة: فرجع الفتى معنا إلى الكوفة، فما ترك شيئاً على وجه الأرض إلا خرج منه، حتى ثيابه التي كانت على بدنه. فقسمناه له قسمة و اشترينا له ثياباً و بعثنا له بنفقة، فما أتى عليه أشهر قلائل حتى مرض فكنا نعوده، فدخلت عليه يوماً و هو في السياق ففتح عينيه ثم قال: يا عليّ و فى - و الله - صاحبك. ثم مات فولينا أمره، فخرجت حتى دخلت على أبي عبد الله عليه السلام، فلمّا نظر إليّ قال: يا عليّ، و فينا - و الله - لصاحبك، فقلت: صدقت جعلت فداك، هكذا قال لي - و الله - عند موته.^١

و روى زياد بن أبي سلمة قال: دخلت على أبي الحسن موسى عليه السلام فقال لي: يا زياد، إنك لتعمل عمل السلطان؟ قال: قلت: أجل، قال عليه السلام لي: و لم؟ قلت: أنا رجل لي مروءة و لي عيال، و ليس وراء ظهري شيء، فقال لي: يا زياد، لئن أسقط من حالك فأقطع قطعة قطعة أحب إليّ من أن أتوكى لأحد منهم عملاً أو أطأ بساط رجل منهم، إلا لماذا؟ قلت: لا أدري جعلت فداك، قال: إلا لتفريج كربة عن مؤمن، أو فك أسره، أو قضاء دينه، يا زياد، إن أهون ما يصنع الله بمنّ توكى لهم عملاً أن

١- المناقب لابن شهر آشوب ٤: ٢٤٠؛ بحار الأنوار ٧٥: ٣٧٥.

يضرب عليه سرادق من نار إلى أن يفرغ الله من حساب الخلائق، يا زياد، فإن و كيت شيئاً من أعمالهم فأحسن إلى إخوانك.^١

و روى صفوان الجمال قال : دخلت على أبي الحسن الكاظم عليه السلام فقال لي: يا صفوان، كلّ شئ منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً، قلت: جعلت فداك أيّ شيء؟

قال: إكراؤك جمالك من هذا الرجل - يعني هارون - قلت : و الله، ما أكريته أشراً و لا بطراً و لا للصيد و لا للهو، ولكن أكريته لهذا الطريق - يعني طريق مكة - و لا أتولاه بنفسي ، ولكنني أبعث معه غلماني، فقال لي: يا صفوان، أيقع كراؤك عليهم؟ قلت: نعم، جعلت فداك، فقال لي: أتحبّ بقاءهم حتّى يخرج كراؤك؟ قلت: نعم، قال: فمن أحبّ بقاءهم فهو منهم، و من كان منهم كان ورد النار.

قال صفوان : فذهبت و بعث جمالي عن آخرها، فبلغ ذلك إلى هارون الرشيد، فدعاني فقال لي : يا صفوان، بلغني أنّك بعث جمالك! قلت: نعم، فقال: ولمّ؟ فقلت: أنا شيخ كبير، و إنّ الغلمان لا يفون بالأعمال، فقال: هيهات هيهات، إنّني لأعلم من أشار عليك بهذا، أشار عليك بهذا موسى بن جعفر، قلت: مالي و لموسى بن جعفر، فقال: دع هذا عنك، فوالله، لو لا حسن صحبتك لقتلتك.^٢

^١ - الفروع من الكافي ٥: ١٠٩ ح ١: بحار الأنوار ٤٨: ١٧٢.

^٢ - رجال الكشي ص ٤٤٠ ح ٨٢٨.

المأمون و محنة الرضا عليه السلام بولاية العهد

لقي الرضا عليه السلام في عصره من الغموم والهموم التي كانت تلاحقه وتحصره وتؤذي قلبه، فشحته بالآلام والأحزان التي ما انفكت تلازمه في كل موقف ومشهد يواجهه مع دولة بني العباس، وأصعب موقف عرض له عليه السلام هو مطالبة المأمون له بأن يكون وليّ عهده والقائم بأمر الدولة في حياته ومن بعده موته. وهنا حصلت بليّة له عليه السلام من جهتين:

الجهة الأولى: هي السلطة العباسيّة وأتباعها، والجهة الثانية: هي جهال أصحابه وشيعته إضافة إلى جهل الأمة ورجالها الذين لم يفهموا صعوبة الموقف الذي ابتلي به الرضا عليه السلام، ولم يكونوا يفهمون رؤية الرضا عليه السلام للأمر وموازنته للأحداث التي كان يوازن بها الأمور التي ابتلي بها فلم تكن تناسب سياسته عليه السلام إدراك أفراد الأمة وعيهم السياسي للأحداث، وحتى الأصحاب والأتباع لم تكن لهم المعرفة والدراية الكافية لكي يفهموا هذا القرار الصعب الذي أجبر عليه الرضا عليه السلام في التعامل مع السلطة العباسيّة، فالرضا عليه السلام يضع نصب عينيه أحاديث وسيرة آبائه المعصومين عليه السلام في التعامل مع الحكّام الظلمة،

فلم يكن يأذن لأصحابه و أتباعه أن يضعوا أيديهم بأيدي الطغاة والجبابرة حتى أن الحسن بن الحسن الأنباري قال : كتبت اليه - أي الرضا عليه السلام - أربع عشرة سنة أستأذنه في عمل السلطان، فلمّا كان في آخر كتاب كتبتّه إليه أذكر: أنّي أخاف على خبط عنقي، و أنّ السلطان يقول لي : إنّك رافضيّ و لسنا نشكّ في أنّك تركت العمل للسلطان للرفض. فكتب إلي أبو الحسن عليه السلام : قد فهمت كتابك و ما ذكرت من الخوف على نفسك، فإن كنت تعلم أنّك إذا وليت عملت في عملك بما أمر به رسول الله ﷺ، ثمّ تصيّر أعوانك و كتابك أهل ملّتك، فإذا صار إليك شيء و اسيت به فقراء المؤمنين حتّى تكون واحداً منهم، كان ذا بذا و إلا فلا. فالرضا عليه السلام كان يمارس كفاحاً سلبياً لردع الطغاة و إيقافهم عند حدودهم، و هذا الأسلوب يسمّى في العصر الحديث بالعصيان المدني الذي تمارسه الجماعة المعارضة في البلدان المتقدّمة. و العصيان المدني: هو الابتعاد عن الإدارة الحكوميّة و تركها لوحدها تواجه مصيرها. و كان أصحابه و أتباعه عليه السلام يتناقلون مواقفه و أحاديثه في هذا الأمر، إلا أنّ الرضا عليه السلام قد ابتلى بولاية مفروضة عليه حينما أجبره المأمون على أن يكون وليّ عهده و القائم بأمره و أمر الدولة في حياة المأمون و بعد وفاته. و قد أخبر الريّان عنه عليه السلام ذلك الأمر بقوله : قلت: يا بن رسول الله، إنّ الناس يقولون : إنّك قبلت ولاية العهد مع إظهارك الزهد في الدنيا؟ فقال عليه السلام : قد علم الله كراهتي لذلك، فلمّا خيّر بين قبول ذلك، و بين القتل، اخترت القبول على القتل.

ويحهم أما علموا أنّ يوسف عليه السلام كان نبياً رسولاً، فلمّا دفعته الضرورة إلى تولّي خزائن العزيز، قال له: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي

حَفِظْتُ عَلَيْهِمْ^١ و دفعتني الضرورة إلى قبول ذلك على إكراه و إجبار بعد الإشراف على الهلاك، على أنني ما دخلت في هذا الأمر إلا دخول خارج منه، فإلى الله المشتكى، و هو المستعان.^٢ وقد قبل الرضا عليه السلام ولاية العهد للمأمون بعد أن تهدده بالقتل و ألح عليه مرة بعد أخرى، في كلِّها يأبى عليه حتى أشرف من تأتبه على الهلاك. فقال عليه السلام: اللهم إني قد نهيتني عن الإلقاء بيدي إلى التهلكة، وقد أشرفت من قبل عبد الله المأمون على القتل متى لا أقبل ولاية عهده، و قد أكرهت و اضطررت كما اضطر يوسف و دانيال عليه السلام. إذ قبل كل واحد منهما الولاية من طاغية زمانه، اللهم لا عهد إلا عهدك، و لا ولاية إلا من قبلك، فوقفتني لإقامة دينك، و إحياء سنة نبيك، فإنك أنت المولى و النصير و نعم المولى أنت و نعم النصير. ثم قبل بعد ذلك ولاية العهد من المأمون و هو باكٍ حزين على أن لا يولِّي أحداً، و لا يعزل أحداً، و لا يغيّر رسماً و لا سنة، و أن يكون في الأمر مشيراً من بعيد، فأخذ المأمون له البيعة على الناس الخاص مناهم و العام.^٣ و يتحدث الريان بن الصلت عن هذه البيعة بالقول: «أكثر الناس في بيعة الرضا عليه السلام من القواد و العامة، و من لا يحب ذلك فقالوا: إن هذا من تدبير الفضل بن سهل ذي الرئاستين، فبلغ المأمون ذلك فبعث إليّ في جوف الليل فصرّت إليه فقال: يا ريان، بلغني أن الناس يقولون: إن بيعة الرضا عليه السلام كانت من تدبير الفضل بن سهل، فقلت: يا أمير المؤمنين، يقولون هذا، قال: ويحك يا ريان، أيجسر أحد أن يجيء إلى خليفة قد استقامت له الرعية و القواد، و استوت له الخلافة فيقول له:

١- يوسف : ٥٥.

٢- عيون أخبار الرضا ٢: ١٢٩؛ بحار الأنوار ٤٩: ١٣٠.

٣- بحار الأنوار ٤٩: ١٣١؛ عيون أخبار الرضا ١: ١٩.

ادفع الخلافة من يدك إلى غيرك؟ أيجوز هذا في العقل؟! قلت له : لا، والله، يا أمير المؤمنين ما يجسر على هذا أحد، قال : لا، والله، ما كان كما يقولون، ولكن سأخبرك بسبب ذلك : أنه لما كتب إليّ محمد أخى يأمرني بالقدوم عليه فأبيت عليه، عقد لعليّ بن عيسى بن ماهان وأمره أن يقيّدني بقيد و يجعل الجامعة في عنقي فورد عليّ بذلك الخبر، وبعثت هرثمة بن أعين إلى سجستان و كرمان و ما والاها فأفسد عليّ أمري، و انهزم هرثمة و خرج صاحب السرير و غلب على كور خراسان من ناحيته، فورد عليّ هذا كله في أسبوع. فلما ورد عليّ ذلك لم يكن لي قوة بذلك، و لا كان لي مال أتقوى به، و رأيت من قوادي و رجالي الفشل و الجبن فأردت أن ألحق بملك كابل، فقلت في نفسي : ملك كابل رجل كافر و يبذل محمد له الأموال فيدفعني إلى يده، فلم أجد وجهاً أفضل من أن أتوب إلى الله عزّ وجلّ من ذنوبي، و أستعين به على هذه الأمور، و أستجير بالله عزّ وجلّ فأمرت بهذا البيت - و أشار إلى بيت تكنس - و صببت عليّ الماء، و لبست ثوبين أبيضين و صليت أربع ركعات قرأت فيها من القرآن ما حضرني، و دعوت الله عزّ وجلّ واستجرت به، و عاهدته عهداً و ثيقاً بنّة صادقة : إن أفضى الله بهذا الأمر إليّ و كفاني عاديته، و هذه الأمور الغليظة، أن أضع هذا الأمر في موضعه الذي وضعه الله عزّ وجلّ فيه. ثمّ قوي فيه قلبي فبعثت طاهراً إلى عليّ بن عيسى بن ماهان فكان من أمره ما كان، و رددت هرثمة إلى رافع بن أعين فظفر به و قتله، و بعثت إلى صاحب السرير فهادنته وبذلت له شيئاً حتّى رجع، فلم يزل أمري يقوى حتّى كان من أمر محمد ما كان، و أفضى الله إليّ بهذا الأمر و استوى لي، فلما وافى الله عزّ وجلّ لي بما عاهدته عليه أحببت أن أفي الله تعالى ما عاهدته، فلم أر

أحداً أحقّ بهذا الأمر من أبي الحسن الرضا عليه السلام، فوضعتها فيه فلم يقبلها إلّا على ما قد علمت، فهذا كان سببها». و جاء في خبر أبي الصلت الهروي : «بأنّ المأمون قال للرضا عليه السلام: يا بن رسول الله، قد عرفت فضلك و علمك و زهدك و ورعك و عبادتك، و أراك أحقّ بالخلافة منّي، فقال الرضا عليه السلام: العبوديّة لله عزّ وجلّ، و أفتخر بالزهد في الدنيا أرجو النجاة من شرّ الدنيا، و بالورع عن المحارم أرجو الفوز بالمغانم، و بالتواضع في الدنيا أرجو الرفعة عند الله فقال المأمون : إنّي قد رأيت أن أعزل نفسي عن الخلافة و أجعلها لك و أبايعك. فقال الرضا عليه السلام : إن كانت هذه الخلافة جعلها الله لك فلا يجوز لك أن تخلع لباساً البسكه الله و تجعله لغيرك، و إن كانت الخلافة ليست لك فلا يجوز لك أن تجعل لي ما ليس لك، فقال المأمون : لا بدّ من قبول هذا الأمر، فقال الرضا عليه السلام : لست أفعل طائعا أبداً. فما زال يجهد به أياماً حتّى يئس من قبوله، فقال المأمون له : فإن لم تقبل الخلافة و لم تحبّ مبايعتي فكن لي وليّ عهدي لتكون لك الخلافة من بعدي، فقال الرضا عليه السلام : و الله لقد حدثني أبي عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله ﷺ : أنّي أخرج من الدنيا قبلك مقتولاً بالسّمّ مظلوماً تبكي عليّ ملائكة السماء و ملائكة الأرض، و أدفن في أرض غربة إلى جنب هارون الرشيد، فبكى المأمون ثمّ قال له : يا بن رسول الله، و من الذي يقتلك أو يقدر على الإساءة إليك و أنا حيّ؟ فقال الرضا عليه السلام : أما إنّي لو أشاء أن أقول: من الذي يقتلني لقلت، فقال المأمون: يا بن رسول الله، إنّما تريد بقولك هذا التخفيف عن نفسك، و دفع هذا الأمر عنك، ليقول الناس : إنّك زاهد في الدنيا. فقال الرضا عليه السلام : و الله ما كذبت منذ خلقتني ربّي عزّ وجلّ، و ما زهدت في

الدنيا للدنيا، و إنني لأعلم ما تريد، فقال المأمون : و ما أريد؟ قال عليه السلام: الأمان على الصدق. قال المأمون : لك الأمان، قال : تريد بذلك أن يقول الناس : إن عليّ بن موسى لم يزهد في الدنيا، بل زهدت الدنيا فيه، ألا ترون كيف قبل ولاية العهد طمعاً في الخلافة، فغضب المأمون ثم قال : إنك تتلقاني أبداً بما أكرهه، و قد أمنت سطوتي، فبالله أقسم لئن قبلت ولاية العهد و إلا أجبرتكَ على ذلك، فإن فعلت و إلا ضربت عنقك. فقال الرضا عليه السلام: قد نهاني الله عزّ وجلّ أن ألقى بيدي إلى التهلكة، فإن كان الأمر على هذا، فافعل ما بدا لك، و أنا أقبل ذلك، على أنّي لا أولي أحداً و لا أعزل أحداً، و لا أنقض رسماً و لا سنة، و أكون في الأمر من بعيد مشيراً. فرضي منه بذلك، و جعله ولي عهده كراهة منه عليه السلام لذلك^١. وهكذا كانت ولاية عهد الرضا عليه السلام بالتهديد و الإكراه، إلا أنه عليه السلام كان يعرف أن أوزار السلطة العباسية ثقيلة، و أنّ الأساس الذي بنيت عليه، سواء في تقاليد الدولة العباسية أو رسوماتها السياسية، أم في اختيارها لرجال الدولة، كان أساساً غير صحيح و لا يستند على ضوابط شرعية، لذا أثر الإمام الرضا عليه السلام أن يكون مشيراً لهم عن بعد، و على قدر الضرورة التي تتطلبها مصالح المسلمين، لأنّه عليه السلام يعرف أن البناء السياسي و الأساسي لهم على مدى سنين الحكم و إدارة شؤون الدولة كان قائماً على باطل.

و كان الرضا عليه السلام يعلم بأنّ المأمون يخادع الأمة و يناور من أجل كسب الوقت لتعزيز سلطته. و يرى بعض الباحثين بأنّ المأمون كان يهدف من هذه الولاية إلى :

١- نزع سلاح المعارضة من يد الإمام الرضا عليه السلام، و من يد العلويين

^١- علل الشرائع للصدوق ص ٢٣٧ باب ١٧٣.

باعتبار أن سيدهم هو ولي العهد، و أن يكون الإمام الرضا عليه السلام دائماً إلى جانبه تحت المراقبة. ٢ - إسقاط الصورة المثالية الموجودة لدى الناس عن أهل البيت عليه السلام، و إقناع الناس أن أهل البيت إنما يزهدون في الدنيا، لأنهم لم يحصلوا عليها، أما إذا حصلوا عليها فإنهم يقبضون عليها، و أيضاً إشعار الناس أن الأوضاع بقيت فاسدة، مع أن الإمام الرضا عليه السلام و هو كبير البيت العلوي في سدة الحكم.

٣ - الاستقواء بالإمام الرضا عليه السلام داخلياً، ذلك أن المأمون كان يعيش في دائرة ضعف في بداية الأمر، و ذلك أنه كان ابن أمة فارسية، و كان صغير السن، و قد قتل أخاه لتوّه فكان يحتاج إلى ظهر يستند إليه، و لم يكن هناك خير من الإمام الرضا عليه السلام. ' كل هذه العوامل و غيرها من العوامل التي كانت تزدهم في ذهن المأمون جعلته يتشبث و يعول على هذه الولاية الصورية التي كان يعتبرها ملاذه الأخير و خلاصه من الشدائد التي كانت تعصف بالدولة العباسية و به شخصياً.

و هذه الملابس و الظروف التي اكتنفت أمر البيعة و الولاية حققت بعض الأثر الإيجابي للشيعه، لأن دوافع المأمون غير النزيهة لم تخف على الإمام الرضا عليه السلام، كما لم تخف عليه متطلبات الظرف الذي كان يعيشه صلوات الله عليه، و قد أكره على قبول ولاية العهد، ولكنه فوت الفرص الذهبية التي كان يطمح المأمون بتحقيقها من خلال إكراهه على قبول ولاية العهد، فاغتنم الإمام الرضا عليه السلام هذا الظرف الذهبي الذي جاءت به ولاية العهد على الوجه الأكمل، بهدف نشر معالم الإسلام الحق و تثبيت دعائم أطروحة أهل البيت عليه السلام متحدياً كل الخطوط

الفكرية و المذهبية المنحرفة آنذاك^١

و ذهب الشيخ محمد باقر المجلسي في تحليل قوله عليه السلام لمحمد بن عرفة، حين سأله عن سبب قبوله عليه السلام ولاية العهد حين قال للرضا عليه السلام: ما حملك على الدخول في ولاية العهد؟ فقال الرضا عليه السلام: ما حمل جدتي أمير المؤمنين عليه السلام على الدخول في الشورى - إلى القول - : لئلا يئأس الناس من خلافتنا، و يعلموا بإقرار المخالف أن لنا في هذا الأمر نصيباً.

و يحتمل أن يكون التشبيه في أصل الاشتمال على المصالح الخفية^٢، منها: إظهار علم من أعلام الإمامة في الحياة السياسية و العامة للمسلمين، لأن الأئمة المعصومين عليهم السلام كانوا مبعدين عن الأمة، و عاشوا في ظل الحياة السياسية منسيين، و لم تتح الفرصة الكافية للأئمة من الاحتكاك المباشر بهم و بالتالي تكتسب الأمة من فيض علومهم و هداهم، فكانت الأمة لا تعرف عن قادتها الحقيقيين، و هنا تجربة جديدة أتاحت فيها الظروف في أن تنهل الأمة من علم من أعلام النبوة، لأن أجهزة الدولة العباسية كانت مجبرة للإعلان عن شخصية ولي العهد و التعريف بخصائصه، فلا يمكنها من تغييب معالم شخصية كبيرة و ذات خطر حسب اعتقادهم عن ذهن المسلمين، فلذلك وقفت جموع المسلمين و غيرهم على صورة الإمام المعصوم و معالم شخصيته العظيمة بشكل علني و مباشر، و كما ظهرت في المجالس و الاحتجاجات^٣ و بعض المناظرات التي كانت تعقدها الحكومة العباسية، و التي كانت في ظاهرها التعريف بشخص الرضا عليه السلام، و في الحقيقة أن الهدف كان الإيقاع بالإمام

^١ - أعلام الهداية: الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، المجمع العالمي لأهل البيت قم ص ١٨.

^٢ - بحار الأنوار ٤٩ : ١٤٠.

^٣ - ينظر تفاصيل هذه الاحتجاجات و المجالس في بحار الأنوار ١٠ : ٢٩٩ - ٣٥١.

و التهوين به، فظهرت مقدرة الرضا عليه السلام و علميته الفائقة و سعة اطلاعه، و بالنتيجة تعزّزت و برزت شخصية الرضا عليه السلام و ارث النبوة و كإمام معصوم و حجة فرضته الشريعة على العباد في الأرض.

و قد أتاح المأمون من حيث لا يشعر فرصة ذهبية لظهور علم الإمام عليه السلام و بروزه إلى الساحة الاجتماعية و تحدّيه لكل العلماء الذين جمعهم لتضعيف الإمام و تسقيطه من خلال المواجهة العلمية التي جمع من أجلها علماء الفرق و الأديان.^١ و هذه المناظرات و اللقاءات التي عقدت هيأت وضعًا و مناخًا مساعدًا للثقافة و العقائد الشيعية، و التي لولاها ما كانت تظهر الثقافة و العقائد الإمامية إلا في هذه اللقاءات و المناقشات التي كانت تحدث بين الرضا عليه السلام و أصحاب الأديان و الأفكار و الفلسفات المختلفة و المتباينة.

و كان من أثر هذا الوضع أن انتشرت علوم الأئمة عليهم السلام و أخبارهم في جميع ممالك المسلمين، و تمكّن علماء أهل السنة و الجماعة من رواية حديثهم عليهم السلام و فضائلهم من مصدر من مصادرهم و هو الإمام الرضا عليه السلام، و بذلك ساعد هذا الوضع و المناخ الجديد على دخول أحاديث و أخبار الشيعة في كتب أهل السنة و الجماعة، و من ثمّ تحقّق إنجاز علمي و ثقافي كبير، لأنّ فترة التسلّط الأموي و العباسي أبعدت الثقافة الشيعية و علماءهم من المجتمع الإسلامي و لم تأذن لعامة العلماء و المحدثين من رواية حديثهم و أخبارهم قبل ذلك. و قد أكّد الأستاذ عليّ حسين رستم في بحث التقيّة عند أهل السنة، تقيّة الحسن البصري في روايته عن عليّ عليه السلام، إذ روى حديث عليّ عليه السلام ولكنّه لم يسنده إليه بل رفعه

١- أعلام الهداية، الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام المجمع العالمي لأهل البيت قم ، ص ٢٣٦.

إلى النبي ﷺ تقيّة من ظلم الأمويّين.^١ وكان الحسن البصري إذا أراد أن يحدث في زمن بني أميّة عن عليّ عليه السلام قال : قال أبو زينب؛ تقيّة منهم.^٢ ومن هذا قال محمّد بن الحسن بن أبي خالد شينولة لأبي جعفر الثاني محمد الجواد عليه و على آبائه التحية والسلام: «إنّ مشايخنا رووا عن أبي جعفر و أبي عبدالله عليه السلام، و كانت التقيّة شديدة فكتبوا كتبهم فلم ترو عنهم، فلمّا ماتوا صارت الكتب إلينا، فقال الجواد عليه السلام: حدّثوا بها فإنّها حقّ». ^٣ فهنا نلاحظ الخشية والخوف من انتشار أخبارهم و أحاديثهم عليه السلام مدة ليست بالقصيرة. وقد أشار الرضا عليه السلام إلى هذا الوضع بقوله عليه السلام: «الحمد لله الذي حفظ منّا ما ضيّع الناس و رفع منّا ما وضعوه، حتّى لقد لعنّا على منابر الكفر ثمانين عاماً، و كتمت فضائلنا، و بذلت الأموال في الكذب علينا، و الله تعالى يأبى لنا إلا أن يعلي ذكرنا، و يبيّن فضلنا، و الله ما هذا بنا، و إنّما هو برسول الله ﷺ و قرابتنا منه، حتّى صار أمرنا و ما نروي عنه أنّه سيكون بعدنا من أعظم آياته و دلالات نبوته».^٤

^١ - ثامر هاشم العميدي، واقع التقيّة عند المذاهب و الفرق الإسلامية من غير الشيعة الإماميّة ص ١٤٣.

^٢ - بحار الأنوار ٤٢ : ٤٦.

^٣ - نفس المصد ٢ : ١٦٧.

^٤ - عيون أخبار الرضا ٢ : ١٦٤ ح ٢٦.

الوزارة في العصر العباسي

كان للوزارة في التاريخ السياسي للمسلمين حضور مهمّ و واضح في تشكيل الأحداث و رسمها، وكان الوزير يأتي في الأهميّة بعد الخليفة في إدارة شؤون الدولة. ولكن هذا المنصب لم يظهر حتّى قيام الدولة العبّاسيّة، على الرغم من معرفة العرب بمعنى هذا المصطلح و المنصب، حيث عهدوه في بعض الدول التي كانت تحكم المنطقة قبل الإسلام.^١ و يقول ابن خلدون : الوزارة هي أمّ الخطط السلطانيّة و الرتب الملوكيّة، لأنّ اسمها يدلّ على مطلق الإعانة، فإنّ الوزارة مأخوذة إمّا من المؤازرة، و هي المعاونة، أو من الوزر، و هي الثقل^٢ و من هنا فالوزير : معين الملك ومدبّر أمره و مديره^٣. و يقول الطريحي : الذي يحمل ثقله و يعينه، و المؤازرة على العمل : المعاونة و منه سمّي الوزير وزيراً^٤. و برز مع

^١ - تاريخ الحضارة العربيّة الإسلاميّة للتليسي و الذويب ص ٨٢

^٢ - تاريخ ابن خلدون ١: ٢٤٩.

^٣ - تحفة الوزراء للثعالبي بتحقيق حبيب الراوي و ابتسام الصفّار ص ٥٧.

^٤ - مجمع البحرين و مطلع النيرين ٣: ٥١٠ (وزر).

الدولة العباسية و اشتداد شوكتها أعلام أسندت لهم هذه الوظيفة الخطيرة، لعبوا أدواراً كبيرة و مهمة غيّرت تاريخ المسلمين و عطفته، و أبرز علم وزاري جدير بالبحث و الدراسة هو الفضل بن سهل ذوالرئاستين، الذي ولج إلى الأسرة و الدولة العباسية من باب الدين الإسلامي الحنيف، و إظهار الطاعة و الولاء للبيت العباسي.

و كان أول من وقع عليه اسم الوزارة في دولة بني العباس أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال الهمداني، مولى لسبيع، و كان في نفس أبي العباس منه شيء، لأنه كان قد حاول في ردّ الأمر عنهم إلى غيرهم، فكتب أبو مسلم إلى السفاح يشير عليه بقتله و يقول له : قد أحلّ الله لك دمه، لأنه قد نكث و غيّر و بذل، فقال السفاح: ماكنت لأفتح دولتي بقتل رجل من شيعتي، لا سيما مثل أبي سلمة، و هو صاحب هذه الدعوة، و قد عرض نفسه، و بذل مهجته، و أنفق ماله، و ناصح إمامه، و جاهد عدوه. و كلمه أخوه أبو جعفر و عمه داود بن عليّ في ذلك، و قد كان أبو مسلم كتب إليهما يسألهما أن يشيرا على السفاح بقتله. فقال أبو العباس : ما كنت لأفسد كثير إحسانه، و عظيم بلائه و صالح أيامه بركة كانت منه، و هي خطرة من خطرّات الشيطان، و غفلة من غفلات الإنسان. فقالا له : فينبغي يا أمير المؤمنين أن تحترس منه، فإننا لا نأمنه عليك، فقال : كلا إنني لأمنه في ليلي و نهاري و سرّي و جهري و وحدتي و جماعتي. فلما اتّصل هذا القول من أبي العباس بأبي مسلم أكبره و أعظمه، و خاف من ناحية أبي سلمة أن يقصده بمكره، فوجه جماعة من ثقات أصحابه في أعمال الحيلة في قتل أبي سلمة حتّى قتله.^١ وهكذا انتهت حياة أول وزير لآل العباس مكافأة و تقديرًا للخدمات

^١ - مروج الذهب للمسعودي ٣: ٢٧٠.

الجليلة التي يقدمها لصبيان و عتاة بني العباس، ثم ليأتي دور البرامكة، ثم دور الفضل بن سهل. فكانوا قرابين البيت العباسي الذين سَمَّاهم المؤرخون: وزراء الدولة، و في الواقع كانوا عبيداً أرقاء لا حول لهم و لا قوة حتّى في دفع أذى بني العباس عنهم.

و يرى عدّة من الباحثين أن العباسيين هم الذين ابتدعوا منصب الوزير الذي بدأ كمشاور للخليفة ثم أصبح وسيطاً بين الخليفة — الذي عزل نفسه — و بين الرعيّة. و لم تكن الوزارة محتكرة على جنس معيّن، بل كان اختيار الوزراء من الموالين المرتبطين بالخلافة العباسيّة برباط الولاء و الإخلاص^١. فعرف الوزراء و رجال الدولة أن ترشيحهم لأيّ مقام و منصب سيخضع إلى إعلان الإسلام الظاهري و خدمتهم لبني العباس، ولحرمهم و لأولادهم، و من هؤلاء الخدام البرامكة^٢.

و من شاكلتهم أبناء سهل : الفضل و الحسن، و هما معتمدا الدولة في زمن المأمون، و من المعروف لدى المؤرخين أن أكثر وزراء الدولة العباسيّة لم يكونوا مسلمين، و كان دخولهم للإسلام بدافع الطمع و المصلحة الدنيويّة و السياسيّة.

وزارة الفضل و دورها في رسم الأحداث

لم يقف المؤرخون عند وزارة قويّة أثّرت في رسم سياسة بني العباس و برمجة دولتهم و نظمها، غير وزارة البرامكة الذين كانوا يشاركون الخليفة قراراته، و كانوا يوجّهون الأمور وفقاً لرؤيتهم و مصالحهم التي

١- فاروق عمر، الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية ص ٤٦.

٢- البرامكة كانوا ينسبون إلى البرموك، و هو جدّهم الذي كان موكلاً بالنوبهار ببلخ، و هو معبد بناء منشهر، و برمك جدّ يحيى بن خالد البرمكي كان مجوسياً قدم إلى الرصافة مع ابنه خالد، و كان قد تعلّم العلم في جبال كشمير، و هو برمك الأصغر. ينظر مروج الذهب ٢: ٢٢٨؛ سفينة البحار ١: ١٨٨ (برمك).

رتّبوها لهم، و أكثر ما كان يفكر به البرامكة هو الرجال و الصنائع التي كانوا يحدثونها و يزرعونها في جسم الدولة العباسية لتكون إرادتهم فاعلة و مستمرة. و قد ظهر هذا التفكير في صنع عائلة ذي الرئاستين، فالفضل و أبوه و أخوه كانوا من صنيعه البرامكة، و يجرون بإرادتهم إن صحّ التعبير، و يمكن أن تكون الحوادث الأخيرة للمائة الثانية من الهجرة دليلاً مساعداً للباحث على هذا الرأي، فيتحدّث ابن الأثير عن أحداث سنة ١٩٠ هـ قائلاً: و فيها أسلم الفضل بن سهل على يد المأمون. و قيل: بل أسلم أبوه سهل على يد المهديّ و كان مجوسياً. و قيل: أسلم الفضل و أخوه الحسن على يد يحيى بن خالد، فاختره يحيى لخدمة المأمون، فلهذا كان الفضل يرعى البرامكة و يثني عليهم، و لقّب بذي الرئاستين لأنّه تقلّد الوزارة و السيف، و كان يتشيع، و هو الذي أشار على المأمون بالعهد لعليّ بن موسى الرضا عليه السلام.^١

و من هذا الأساس ظهر تيّار من المؤرخين يذهبون إلى أن الفضل بن سهل هو المدبّر لأمر البيعة و لولاية العهد للرضا عليه السلام في الدولة العباسية فأورثها اضطراباً و شقاقاً كبيراً ترك أثراً واضحاً في تغيير و رسم مجرى الأحداث في مجملها.

يقول السيّد حسن الأمين: إنّ الفضل بن سهل هذا كان المشجّع الأوّل للمأمون على اتّخاذ القرار الخطير الذي اتّخذه بمبايعة الإمام الرضا بولاية العهد، لذلك فقد كان يرى نفسه مسؤولاً عمّا يمكن أن تؤدّي إليه هذه المبايعة من نتائج سلبية أو إيجابية. و من هنا كان عندما وصلته أنباء ثورة بغداد و خلع المأمون فيها و مبايعة إبراهيم بن المهدي، كان يوصل هذه الأنباء مخفّفة إلى المأمون ممّا يوهم أنّ الأمر ليس أمر ثورة و خلع

١- الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥: ٣٤٢.

و تولية، بل مجرد تمرّد لا خطر فيه، لا سيّما و أنّ المتوكلي لإخماد تلك الثورة هو أخوه الحسن بن سهل، الذي كان مطمئناً إلى كفاءته و حسن تدبيره، فهو يريد له أن ينجح وحده في القضاء على الثوّار^١ و تشجيع الفضل للمأمون لهذا الأمر لم يكن بدافع الحرص و الإخلاص للدولة الإسلامية، و إنّما ينطوي على أهداف و نوايا خطيرة ظهرت بعض منها في سطور المؤرّخين، فلقد كان قرار تعيين الرضا عليه السلام وليّ عهد المأمون من وجهة نظر سياسيّة، هو نقل سلطة إلى أسرة أخرى، مع ما يتبعه من فقدان العباسيّين و شيعتهم لامتيازاتهم، فضلاً عن أنّ بقاء الخليفة في مرو و معه الفضل بن سهل الفارسي معناه نقل مقرّ الخلافة من بغداد و العراق إلى مرو و خراسان، و هو ما عارضه أهل بغداد، لذلك اختاروا عمّ الخليفة إبراهيم بن المهديّ ليكون خليفة و ذلك في محرّم عام ٢٠٢ هـ، و لقّب بالمبارك، و هرب الحسن بن سهل من بغداد إلى واسط و يصف ابن الأثير سبب هذه الأحداث بأنّه إنكار الناس لولاية الحسن بن سهل و البيعة لعلي بن موسى الرضا عليه السلام^٢.

و اتّهام أهل بغداد للفضل بأنّه صاحب النفوذ القويّ في الحكم، هو الذي أدّى إلى الإشاعة بين الناس بأنّ الفضل هو صاحب الفكرة و مهندسها، لأنّهم يعلمون أنّ صاحب النفوذ قد يسيطر على موازين الحكم. و قد تكون هذه فكرة الفضل يغرسها بين الناس ليعطي لنفسه حجماً أكبر فيكون له وزن عند العامّة، و يدّعي لنفسه بأنّه صاحب الفكرة و ليس المأمون باعتباره صاحب النفوذ القويّ على تصرّفات

١- الرضا عليه السلام و المأمون و ولاية المهدي و صفحات من التاريخ العباسي ص ١٥٥ دار الجديد بيروت ط الأولى ١٩٩٥ م.

٢- الكامل في التاريخ لابن الاثير ٥: ٤٤١، ٤٢٨، ٤٣٢.

المأمون، لذا تراه يقارن نفسه دائماً بأبي مسلم الخراساني و يتبجح بأنه سينقل الخلافة من بيت إلى بيت ليرمي لسامعيه بأنه صاحب الفكرة، و المأمون يؤكد لنا بأنه هو صاحب الفكرة بعد أن سمع من القواد و العامة بأن الفضل هو المدبر^١ كما روى الريان بن الصلت بأن المأمون أخبره بأنه كان قد عاهد الله على ذلك.^٢ و أخبر الشيخ المفيد عن جماعة من أصحاب الأخبار و راوة السير بأن المأمون حدث نفسه بذلك و أحضر الفضل بن سهل على ذلك و أمره بالاجتماع مع أخيه الحسن بن سهل للبحث في هذا الأمر، فجعل الحسن يعظم ذلك عليه و يعرفه ما في إخراج هذا الأمر من أهله عليه، و يصف الشيخ المفيد بعد ذلك أو ينقل المحاورة: بأن المأمون قال له : إني عاهدت الله أنني إن ظفرت بالمخلوع أخرجت الخلافة إلى أفضل آل أبي طالب. و ما أعلم أحداً أفضل من هذا الرجل على وجه الأرض. فلما رأى الفضل و الحسن عزيمة على ذلك أمسكا عن معارضته فأرسلهما إلى الرضا عليه السلام فعرضاً عليه ذلك.^٣

و قد تكون مشاركة الفضل بن سهل برأيه في هذا الأمر لسيده المأمون و عدم معارضته للفكرة أقرب للواقع، فالفضل بن سهل حديث عهد بالإسلام، و هو غير عارف بشخصية الرضا عليه السلام، و مضايقة السلطة العباسية للعلويين كانت قائمة مما ظهر على سطح الأحداث، و خصوصاً في عهد الرشيد لا يقدح ذهن الفضل في هذا الأمر، و الفضل من صنائع آل برمك. و البرامكة كانوا يغرون الرشيد بقتل الأئمة المعصومين عليهم السلام و الفتك بهم و ملاحقتهم تحت كل حجر و مدر. و من هذا روى الصدوق

^١- حسن طاهر الياسري: ولاية العهد للإمام الرضا عليه السلام، دار المرتضى بيروت ص ١١٦.

^٢- بحار الأنوار ٤٩: ١٣٧. و تقدم الخبر في بحث سابق ص ١٥٨.

^٣- بحار الأنوار ٤٩: ١٤٥: الإرشاد للمفيد ٢: ٢٥٢.

بإسناده عن موسى بن مهران قال: «سمعت جعفر بن يحيى يقول: سمعت عيسى بن جعفر يقول لهارون حيث توجه من الرقة إلى مكة: اذكر يمينك التي حلفت بها في آل أبي طالب، فإنك حلفت: إن ادعى أحد بعد موسى الإمامة ضربت عنقه صبراً، وهذا ابنه علي يدعي هذا الأمر! و يقال ما يقال في أبيه، فنظر إليه مغضباً فقال: و ما ترى؟ تريد أن أقتلهم كلهم! قال موسى: فلمّا سمعت ذلك صرت إليه - أي الرضا عليه السلام - فأخبرته، فقال عليه السلام: مالي و لهم، و الله لا يقدرون على شيء»^١.

و روى صفوان بن يحيى قال: «أخبرنا الثقة أن يحيى بن خالد قال للطاغي: هذا علي ابنه قد قعد و ادعى الأمر لنفسه، فقال: ما يكفيننا ما صنعنا بأبيه! تريد أن تقتلهم جميعاً! و لقد كانت البرامكة مبغضين لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله و مظهرين العداوة لهم»^٢ و كان الرضا عليه السلام يعرف و يعلم بعداوة البرامكة لهم. و روي أنّه كان الرضا عليه السلام يدعو عليهم بعرفة، و قد سئل عليه السلام عن علّة دعائه، فقال عليه السلام: «إني كنت أدعو الله عزّ وجلّ على البرامكة بما فعلوا بأبي عليه السلام فاستجاب الله لي اليوم فيهم. فلمّا انصرف لم يلبث إلا يسيراً حتّى بطش بجعفر و يحيى و تغيّرت أحوالهم»^٣ يقول الصدوق رحمة الله عليه: كانت البرامكة مبغضين لآل رسول الله صلى الله عليه وآله مظهرين العداوة لهم.

و بالجملة فالفضل بن سهل كان امتداداً لأحاسيس و هوى البرامكة، فهو غرس غرسه البرامكة في تربة الدولة العباسيّة، فمن أين يأتي الودّ و الحسن العلويّ الصادق! مع ما كان منه من مضايقات و مؤامرات كان

١- بحار الأنوار ٤٩: ١١٣؛ عيون أخبار الرضا ٢: ٢٢٦.

٢- بحار الأنوار ٤٩: ١١٣؛ عيون أخبار الرضا ٢: ٢٢٦.

٣- عيون أخبار الرضا ٢: ٢٢٥؛ بحار الأنوار ٤٩: ٨٥.

يحيكها للنيل من الرضا عليه السلام.

علل و أسباب عدااء الفضل للرضا عليه السلام

كانت مقدمات العداوة و الانزعاج الذي بدأ يحسّه الفضل بن سهل ظهرت من دخول الرضا عليه السلام على المأمون، و من ذلك ما رواه الصدوق بقوله: و أظهر ذو الرئاستين عداوة شديدة لأبي الحسن الرضا عليه السلام و حسده على ما كان المأمون يفضّله به.

فأول ما ظهر لذي الرئاستين من أبي الحسن عليه السلام أن ابنة عمّ المأمون كانت تحبّه و يحبّها، و كان يفتح باب حجرتها إلى مجلس المأمون، و كانت تميل إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام و تحبّه و تذكر ذا الرئاستين و تقع فيه، فقال ذو الرئاستين حين بلغه ذكرها له: لا ينبغي أن يكون باب دار النساء مشرعاً إلى مجلسك، فأمر المأمون بسدّه. و كان المأمون يأتي الرضا عليه السلام يوماً و الرضا عليه السلام يأتي المأمون يوماً. و كان منزل أبي الحسن عليه السلام بجانب منزل المأمون، فلمّا دخل أبو الحسن عليه السلام إلى المأمون و نظر إلى الباب مسدوداً، قال: يا أمير المؤمنين: ما هذا الباب الذي سدّدته؟ فقال المأمون: رأى ذلك الفضل و كرهته. فقال عليه السلام: إنّنا لله و إنّنا إليه راجعون، ما للفضل و الدخول بين أمير المؤمنين و حرمة! قال المأمون: فما ترى؟ قال عليه السلام: فتحه و الدخول على ابنة عمّك، و لا تقبل قول الفضل فيما لا يحلّ و لا يسع، فأمر المأمون بهدمه و دخل على ابنة عمّه، فبلغ الفضل ذلك فغمّه^١.

و تبدو كأنّ هذه الحادثة الصغيرة قد أو غرت صدر الفضل و حرّكت في قلبه أحاسيس غير إيجابيّة تجاه الرضا عليه السلام، لأنّ الفضل يريد أن

١- عيون أخبار الرضا ٢: ١٥٣ ح ٢٢؛ بحار الأنوار ٤٩: ١٣٩.

يستبدّ حتّى بالأوضاع الشخصية و العائلية للمأمون، و هذه حركة من الفضل كانت غير مقبولة في نظر الرضا عليه السلام، و هنا توسيع لصلاحيات الوزير الذي أريد له أن يمارس دوراً و وظيفة أكبر و أهمّ من هذه المسائل و الوقائع، فالوزير له مسؤولياته و وظائفه الكبيرة التي ينبغي أن تنتهي عند حدود بيت الخليفة و حياته الخاصة.

كما أن الفضل بن سهل أظهر عداوة شديدة للرضا عليه السلام و بدأ بمشاكسته و الحدّ من دوره في تقديم المشورة، أو التأثير على ما كان المأمون يفضّل به الرضا عليه السلام، أو إخراجهم من الدائرة المحيطة بالمأمون على الأقلّ فلم يكثرث المأمون له فحسده الفضل لذلك^١ و كما ظهر في كثير من مواقفه، و سعى الفضل أيضاً لتحريك المأمون و دفعه لتصفية أصحاب الإمام الرضا عليه السلام الذين كانوا من قادة و رجال الدولة البارزين، و منهم: هرثمة بن أعين حيث قتله في الحبس سرّاً سنة ٢٠٠ هـ - على ما يروى - بعد أن أغرى المأمون به^٢ و كان الفضل يعدّ و يهيئ عينا على الرضا عليه السلام ليراقبه و يضيق عليه فاتّصل الفضل بهشام بن إبراهيم، و كان هذا ينقل أخبار الرضا عليه السلام إلى ذي الرئاستين و المأمون فنال حظوة لديهما، و كان لا يخفي عليهما من أخباره عليه السلام فوّلاه المأمون حجابة الرضا عليه السلام، و كان لا يصل إلى الرضا عليه السلام إلا من أحبّ، و ضيق على الرضا عليه السلام فكان من يقصده من مواليه لا يصل إليه، و كان لا يتكلّم الرضا عليه السلام في داره بشيء إلا أوردته هشام على المأمون و ذي الرئاستين.

١- أشار الرضا عليه السلام على المأمون أن ينقل العاصمة إلى المدينة كما في عيون الأخبار ٢: ١٦٠، و سيأتي هذا الخبر لاحقاً.

٢- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ١: ٣٥٨، هكذا ورد الخبر، و هناك أخبار تفيد أنّ هرثمة عاش بعد شهادة الرضا عليه السلام كما جاء في خبر الصدوق الذي أوردته في عيون الأخبار ٢: ٢٥٤ باب ٦٤.

وبلغ موضعه لديهم أن جعل المأمون ابنه العباس في حجر هشام وقال له: أذبه فسمي هشام العباسي^١ و كان هشام بن إبراهيم هذا يزعم الرضا عليه السلام و ينال منه و يستخف به و قد وصفه الرضا عليه السلام بالزنديق^٢. و قد اصطحب الفضل لتدبير مؤامرة قلب نظام الدولة^٣.

و لم يكن الرضا عليه السلام آنذاك يفكر يوماً أو يدعو إلى قلب نظام الدولة، أو إضعافها لأسباب كثيرة، الرغم من أنه هو الأولى والأجدر بإدارتها. و من هذه الأسباب أنه عليه السلام ليس من طبعه الختل أو الخداع، كما وأنه عليه السلام يعتبر نفسه مصلحاً و هادياً و مرشداً للدولة و الأمة. و يصف المؤرخ الذهبي إخلاص الإمام الرضا عليه السلام للدولة الإسلامية و غش و خداع الفضل بن سهل للدولة و الخليفة فيما كان يكتُم من أخبار البلاد عن المأمون فقال: إن علي بن موسى الرضا عليه السلام حدث المأمون بما فيه الناس من القتال و الفتن منذ قتل الأمين، و بما كان الفضل بن سهل يستره عنه من الأخبار، و أن أهل بيته و الناس قد نعموا عليه أشياء...

و أنهم يقولون: إنك مسحور أو مجنون، و قد بايعوا عمك إبراهيم، فبين له أن الفضل قد كتبه و غشه، فقال المأمون له: و من يعلم هذا، فقال الرضا عليه السلام: يحيى بن معاد و عبد العزيز بن عمران و عدة من أمرائه، فأحضرهم المأمون فسألهم فأبوا أن يخبروا إلا بأمان من الفضل، و أن لا يعرض لهم، فضمن المأمون ذلك، و كتب لكل واحد بخطه كتاباً فأخبروه بما فيه العامة من البلاء... و أخبروه بأمر هرثمة، و إنما هرثمة جاء لنصحته و لتدارك الأمر، و أن الفضل دس إلى هرثمة من قتله، و أن

^١ - ينظر عيون أخبار الرضا ٢: ١٥٣ ح ٢٢؛ بحار الأنوار ٤٩: ١٣٩.

^٢ - ينظر معجم رجال السيد الخوئي ١٩: ٣١٩ رقم ١٣٣٢٢؛ بحار الأنوار ٤٩: ٢٦٣.

^٣ - ينظر بحار الأنوار ٤٩: ١٦٣.

طاهراً لو كان ببغداد لضبط الملك. و لما علم الفضل بذلك ضرب بعضهم و حبس البعض.^١ فمن المؤكّد أنّ إطلاع الرضا عليه السلام على هذه الأوضاع و عرضها على المأمون كان يزعج الفضل و لا ينسجم مع خططه التي وضعها لتدبير أمر ما، أو على الأقلّ كان هذا الأمر فضحاً لتقصيره في إدارة و تدبير الأمور، أو ربّما لخيانته و عدم نهوضه بهذا كوزير، و الذي يعدّ معيناً و مؤازراً للحاكم العامّ للبلاد.

فمن هذا قد يكون، أو قد يعتبر البعض الفضل بن سهل خائناً و متآمراً على أمن الدولة و مستقبلها، فما كان من الإمام الرضا عليه السلام إلا أن يقوم بدوره الديني و السياسي، فهو إمام أراد الله أن يكون خليفة له في الأرض، كما و أنّ دوره السياسي كمستشار للدولة، أو على حدّ اعتقادهم كوليّ للعهد أو الحاكم المستقبلي لبلاد المسلمين، فهنا يحصل التصادم و التقابل بين شخص الرضا عليه السلام و الفضل بن سهل الذي أهمل وظيفته كوزير للدولة المسلمين و مؤتمن الحاكم و الرعيّة معاً. و بالتالي أدّى هذا إلى إزدياد و تضخّم الحسّ العدائي لدى الفضل ممّا دفعه للتفكير أو كان يفكر في الانتقام أو صنع الدسائس للكيد بالإمام الرضا عليه السلام و إنهائه.

مؤامرة البيعة و ولاية العهد

اختلف نظر الباحثين و المؤرّخين في الجهة أو الشخص الذي يقف وراء البيعة و ولاية العهد للرضا عليه السلام، و هناك من يرى أنّ المأمون نفسه هو صاحب الرأي لما وجد نفسه محاصراً من أخيه الأمين، و رأى ميل العباسيين و القادة و الأمراء لأخيه، فخطّط لهذا الأمر وحده و شاركه الفضل في ذلك، أو شجّعهُ أو قبل ذلك على مضض منه، و لم يمكنه من

^١ - للذهبي تاريخ الإسلام و وفیات المشاهير و الأعلام ٥: ١٠.

معارضته أو الوقوف بوجهه. وعلى العموم بما أن الفضل كان من المشكوكين بولائه للرضا عليه السلام ولم يكن صادقاً معه - وكما أشرنا - فقد برزت آراء متباينة في تفسير دوافع البيعة للرضا عليه السلام لدى المؤرخين ومع كل الشكوك التي أثارها علماء الشيعة حول الفضل بن سهل و سوء نيته مع الرضا عليه السلام فقد ذكر الشيخ الصدوق رحمه الله بأن جماعة تعتقد بأن الفضل بن سهل أشار على المأمون بأن يجعل عليّ بن موسى الرضا عليه السلام وليّ عهده، و منهم: أبو عليّ الحسين بن أحمد السلمي فإنه ذكر ذلك في كتابه الذي صنّفه في أخبار خراسان، فقال: كان الفضل بن سهل ذو الرئاسة وزير المأمون و مدبّر أموره، و كان مجوسياً فأسلم على يدي يحيى بن خالد البرمكيّ و صحبه. و قيل: بل أسلم والد الفضل على يدي المهدي، و أنّ الفضل اختاره يحيى بن خالد البرمكيّ لخدمة المأمون، و ضمّه إليه فتغلّب عليه و استبدّ بالأمر دونه.

و إنّما لقّب بذي الرئاسة لأنّه تقلّد الوزارة و رئاسة الجند.^١ و قال الجهشيارى: معنى ذلك رئاسة الحرب و رئاسة التدبير.^٢

و قال الفضل حين استخلف المأمون يوماً لبعض من كان يعاشره: أين يقع فعلي فيما أتيت من فعل أبي مسلم فيما أتاه. فقال: إنّ أبا مسلم حولها من قبيلة إلى قبيلة، و أنت حولتها من أخ إلى أخ، و بين الحالتين ما تعلمه. قال الفضل: فإنّي أحولها من قبيلة إلى قبيلة ثمّ أشار على المأمون بأن يجعل عليّ ابن موسى الرضا عليه السلام وليّ عهده فبايعه و أسقط بيعة المؤتمن أخيه.^٣

١- عيون أخبار الرضا ٢: ١٦٥.

٢- الوزراء و الكتاب: ٣٠٥.

٣- بحار الأنوار ٤٩: ١٤٢؛ عيون أخبار الرضا ٢: ١٦٥.

و كان الرشيد قد أخذ البيعة على محمد الأمين لعبد الله المأمون و القاسم المؤتمن على النسخة التي أخذها عليه بمكة. و جعل أمر القاسم المؤتمن في خلعه و إقراره إلى عبد الله المأمون إذا أفضت إليه الخلافة.^١ و كان الرشيد في سنة خمس و سبعين و مائة قد عقد لابنه محمد بن زبيدة بولاية العهد، و لقبه الأمين و أخذ له البيعة و عمره خمس سنين. و كان الرشيد قد ولى الأمين العراق و الشام و إلى آخر المغرب، و ضمّ إلى المأمون من همدان إلى آخر المشرق، ثمّ بايع لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون و لقبه المؤتمن و ضمّ إليه الجزيرة و الثغور و العواصم.^٢

و هذا التوزيع الجغرافي و السياسي للسلطة بهذا الشكل المعقد و المضطرب لا يمكن السيطرة عليه بسهولة، فدوافع السيطرة و التسلط الناشئة في نفوس أولاد الأمراء و السلاطين لا يمكن تسكينها بالعهود و الموائيق التي يكتبها السلطان في حياته، و من هنا شبت في نفس كل ولد من أولاده نار التسلط و الانفرد بالسلطة و محق و سحق الطرف الآخر، و هنا برزت أو تحركت الأساليب الدبلوماسية لا حتواء الأزمة، فالمأمون كان ينتظر قوة أو شخص يساعده أو يشير عليه بمرحلة جديدة غير تقليدية في نزع السلطة من أخيه الأمين، أو على الأقل الاحتفاظ بالمناطق التي تحت سيطرته في ذلك الطرف العصيب، فكان الفضل بن سهل الذي أدخله من باب التقرب إلى الله باعتقاد البعض، و كما روى الصدوق بإسناده عن محمد بن يحيى الصولي حيث قال : حدثني عبيد الله بن عبد الله بن طاهر قال : أشار الفضل بن سهل على المأمون أن

١- تاريخ الطبري ٨ : ٢٨٦.

٢- الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥ : ٢٨٨ و ٣٢٥.

يتقرب إلى الله عز وجلّ وإلى رسوله ﷺ بصلة رحمه بالبيعة لعليّ بن موسى الرضا عليه السلام ليمحو بذلك ما كان من أمر الرشيد فيهم، وما كان يقدر على خلافه في شيء فوجّه من خراسان برجاء بن أبي الضحّاك وياسر الخادم ليشتخصا إليه محمد بن جعفر بن محمّد - عمّ الرضا - وعلي بن موسى ابن جعفر عليه السلام وذلك في سنة مائتين.

فلما وصل عليّ بن موسى عليه السلام إلى المأمون وهو بمرور ولاء العهد من بعده، وأمر للجنّد برزق سنة، وكتب إلى الآفاق بذلك وسمّاه الرضا وضرب الدراهم باسمه وأمر الناس بلبس الخضرة وترك السواد، وزوّجه ابنته أم حبيبة، وزوّج ابنه محمّد بن عليّ عليه السلام ابنته أم الفضل وتزوّج هو بيوران بنت الحسن بن سهل زوّجه بها عمّها الفضل، وكلّ هذا في يوم واحد، وما كان يحبّ أن يتمّ العهد للرّضا عليه السلام بعده.

قال الصولي: وقد صحّ عندي ما حدّثني به عبيد الله من جهات: منها: أنّ عون بن محمّد حدّثني عن الفضل بن سهل النوبختي أو عن أخ له قال: لما عزم المأمون على العقد للرّضا عليه السلام بالعهد قلت: والله لأعتبرنّ ما في نفس المأمون من هذا الأمر أيحبّ تاممه، أو هو يتصنّع به؟ فكتب إليه على يد خادم له كان يكاتبني بأسراره على يده: قد عزم ذو الرئاستين على عقد العهد والطالع السرطان وفيه المشتري والسرطان، وإن كان شرف المشتري فهو برج منقلب لا يتمّ أمرٌ يعقد فيه، ومع هذا فإنّ المريخ في الميزان الذي هو الرابع، وتدلّ الأرض في بيت العاقبة، وهذا يدلّ على نكبة المعقود له، وعرفت أمير المؤمنين ذلك لئلا يعتب عليّ إذا وقف على هذا من غيري. فكتب إليّ: إذا قرأت جوابي إليك فارده إليّ مع الخادم، ونفسك أن يقف أحدٌ على ما عرفتني، أو أن يرجع ذو الرئاستين عن عزمه، لأنّه إن فعل ذلك ألحقت

الذنب بك، وعلمت أنك سببه. قال : فضاقت عليّ الدنيا و تمنيت أني ما كنت كتبت إليه ثم بلغني أن الفضل بن سهل ذا الرئاستين قد تنبه على الأمر و رجع عن عزمه، و كان حسن العلم بالنجوم فخفت - و الله - على نفسي و ركبت إليه فقلت له : أتعلم في السماء نجماً أسعد من المشتري؟ قال : لا، فقلت : أفتعلم أن في الكواكب نجماً يكون في حال أسعد منها في شرفها؟ قال : لا، فقلت : فامض العزم على ذلك إذ كنت تعقده، و سعد الفلك في أسعد حالاته، فأمضى الأمر على ذلك، فما علمت أني من أهل الدنيا حتى وقع العقد فزعاً من المأمون.^١

و من هذا الخبر نجد عدم صدق المأمون في كل تصرفاته مع الرضا عليه السلام، و إنما كان يتخذ هذه الممارسات وسيلة لكسب الوقت، و أن يستفيد من وجود الإمام الرضا عليه السلام في بلاط الخلافة تضييعاً على الأمة و على الثائرين فرصهم في الانتفاضة و الثورة ضدّ الدولة العباسية و ضدّ خلافة المأمون بالذات، فما يتحدث الناس عن غدر الأخوين: الأمين و المأمون، و وقية كلّ منهما بالآخر يؤجج مشاعر السخط و النقمة في عموم البلاد العباسية، لأنّ الخليفة بصفته الشخص المؤتمن على مصالح العباد و البلاد و موضع ثقّتهم، لا عهد لديه و لا موثيق، و يفتك بأقرب الأرحام إليه، و حتى من ساهم و عزز في توطيد سلطانه و عرشه، و حتى ذو الرئاستين لم يأمن على حياته، بل دبّر له حادث اغتيال في سرخس و ألقاه جثّة هامدة لا حراك و لا حياة لها، لأنّه خشي سطوته و تمكّنه في البلاط العباسي و إدارة الدولة.

و كانت حادثة مقتل الفضل بن سهل ذي الرئاستين مشابهة لما وقع من الرشيد للبرامكة، فالخلفاء العباسيون يغدرون و يقتلون من أعانهم

١- عيون أخبار الرضا ٢: ١٤٧؛ بحار الأنوار ٤٩: ١٣٢.

وسدد خطاهم، فهم يسحقون كل قيمة و مبدأ خلقيّ عند ربيتهم وخشيتهم ممّن أعانهم و أجلسهم في مجلس الحكم. و لذا كان الفضل بن سهل قلقاً و متوجّلاً في علاقته مع المأمون و العباسيين، و كأنّه كان ينتظر قدره معه، و يتحدّث غسان بن عباد واصفاً قلقه من مستقبله مع المأمون قائلاً: قلت للفضل يوماً: أيّها الأمير، لو أمرت أن يتخذ لك ضياع و عقد، فقال: و لم ويحك! إن دام ما أنا فيه فالدنيا كلّها ضيعتي وعقدي، وإن زال فيما أنا فيه لا يزول إلا باصطلام. و قال أبو سمير: كنت أسمع الفضل بن سهل في أيام المأمون كثيراً ما يقول:

لئن نجوت أو نجت ركائبى من غالب و من ليف غالب
أتى لنجاء من الكرائب

و هو لا يدري من غالب؟ و لا يذهب إلا إلى قریش حتّى دخل عليه غالب الرومي صاحب ركاب المأمون فقتله.^١
و يذكر اليعقوبي حادثة القتل بأنّها تزامنت مع خروج المأمون سنة ٢٠٢ من مرو متوجّهاً إلى العراق و معه الرضا عليه السلام و هو وليّ عهده، و ذو الرئاستين الفضل بن سهل و وزيره. و قد كتب للفضل الكتاب الذي سمّاه كتاب الشرط و الحباء يصف فيه طاعته و نصيحته و عظمته و عنايته، و ذهابه بنفسه عن الدنيا، و ارتفاعه عمّا بذل من الأموال و القطائع و الجواهر و العقد، و يشرط على نفسه كلّ ما يسأل و يطلب، لا يدفعه ولا يمنع.

ووقع فيه المأمون بخطّه و أشهد على نفسه، فلمّا صار المأمون بقومس قتل الفضل بن سهل و هو في الحمام، دخل عليه غالب الرومي وسراج الخادم بالسيوف، فقتلها المأمون، و قتل قوماً معها جميعاً، و قتل ذا

^١ - تاريخ اليعقوبي ٢: ٤٥١.

العلمين عليّ بن أبي سعيد ، و كان ابن خالة الفضل بن سهل و قال :
إنّه الذي دسّ في قتله ، و وجّه برأسه إلى الحسن بن سهل إلى العراق . و
هذه كلّها دسائس من المأمون ، و كان المأمون قد قتل هؤلاء جميعا ليضيع
الخيطة الرابط بين أطراف المؤامرة .

وينقل الشيخ المفيد هذه الأحداث بإسناده عن عليّ بن إبراهيم عن
ياسر قال : «لَمَّا عَزَمَ المأمون على الخروج من خراسان إلى بغداد خرج
معه الفضل بن سهل ذو الرئاستين ، و خرجنا مع الرضا عليه السلام . فورد على
الفضل بن سهل كتاب من أخيه الحسن بن سهل و نحن في بعض
المنازل : إنّي نظرت في تحويل السنة فوجدت فيه أنّك تذوق في شهر
كذا و كذا يوم الأربعاء حرّ الحديد و حرّ النار ، و أرى أن تدخل أنت
و أمير المؤمنين و الرضا الحمّام في هذا اليوم و تحتجم فيه و تصبّ على
بدنك الدم ليزول عنك نحسه . فكتب ذو الرئاستين إلى المأمون بذلك
مسألة أن يسأل أبا الحسن عليه السلام ذلك ، فكتب المأمون إلى أبي الحسن عليه السلام
يسأله ، فأجابه أبو الحسن عليه السلام : لست بداخل الحمّام غداً ، فأعاد عليه الرقعة
مرتين ، فكتب إليه أبو الحسن عليه السلام : لست بداخل الحمّام غداً فإنّي رأيت
رسول الله صلّى الله عليه وآله في هذه الليلة فقال لي : يا عليّ لا تدخل الحمّام غداً . فلا
أرى لك يا أمير المؤمنين و لا للفضل أن تدخل الحمّام غداً ، فكتب إليه
المأمون : صدقت يا أبا الحسن ، و صدق رسول الله صلّى الله عليه وآله ، لست بداخل
الحمّام غداً و الفضل أعلم ، فقال ياسر : فلمّا أُمسنا و غابت الشمس قال
لنا الرضا عليه السلام : قولوا : نعوذ بالله من شرّ ما ينزل في هذه الليلة ، فلم نزل
نقول ذلك ، فلمّا صلّى الرضا عليه السلام قال لي : اصعد السطح فاستمع هل تجد
شيئاً ، فلمّا صعدت سمعت الصيحة ، فإذا نحن و المأمون قد دخل من

الباب الذي من داره إلى دار أبي الحسن عليه السلام و هو يقول : يا سيّدي يا أبا الحسن، أجرك الله في الفضل، فإنّه دخل الحمّام و دخل عليه قوم بالسيف فقتلوه، و أخذ ممّن دخل عليه ثلاثة نفر أحدهم ابن خالة الفضل.

و اجتمع الجند و القوّاد و من كان من رجال الفضل على باب المأمون فقالوا: هو اغتاله، و شنعوا عليه و طلبوا بدمه و جاؤوا بالنيران ليحرقوا الباب، فقال المأمون للرضا عليه السلام : يا سيّدي، ترى أن تخرج إليهم و ترفق بهم حتّى يتفرّقوا، قال الرضا عليه السلام : نعم، و ركب الرضا عليه السلام و قال لي : يا ياسر، اركب فركبت، فلمّا خرجنا من باب الدار نظر إلى الناس و قد ازدحموا عليه فقال لهم بيده تفرّقوا، قال ياسر: فأقبل الناس - و الله - يقع بعضهم على بعض، و ما أشار إلى أحدٍ إلا ركض و مضى لوجهه^١ فهنا أنجاه الرضا عليه السلام بكرم منه و رافة، و كاد هذا الأمر أن يقضي عليه وعلى دولته و دولة بني العباس بأكملها، فلربّما كان هذا الهياج بداية الثورة العارمة ، لأنّ النعمة الشعبيّة آنذاك كانت متفاقمة عليهم وعلى دولتهم .

و يصف الشيخ محمّد الخضري هذه الحادثة بالقول : ارتحل المأمون من مرو حتّى سرخس و هناك شدّ قوم على الفضل بن سهل و هو في الحمّام فضربوه بسيفهم حتّى مات، و ذلك في ٢ شعبان سنه ٢٠٢، فأخذ المأمون ضاربيه، و هم أربعة من خدم المأمون، فلمّا جيء بهم إليه قالوا : أنت أمرتنا بقتله، فأمرهم فضربت أعناقهم ثمّ قال الخضري : و سوابق العلة تؤكّد أنّ صدورهما كان بتدبير المأمون، لأنّه أحسنّ بثقل يد الفضل عليه و بما كان من غشّه له، و أنّه مادام معه لا يرى من أهل بغداد طاعة، فاحتال

١- الإرشاد الشيخ المفيد ص ٢٥٨.

بهؤلاء الخدم ثم قتلهم و بعث برؤوسهم إلى الحسن بن سهل و عزّاه وأخبره أنّه صيّره مكانه.^١ هكذا فعل و كأنّه جعل دية قتله وزارة أخيه له.

و يعتبر الفضل بن سهل ذوالرئاستين الذي كان وزير المأمون و مدبّر أموره، الشخص الذي يقف وراء الكواليس في وضع و رسم سياسة المأمون و الدولة العبّاسيّة، و كان له و لأخيه الحسن الدور الكبير و الفاعل في هندسة الأحداث و صنعها و دفعها إلى ما وصلت إليه لدوافع و غايات كثيرة ينظر فيها لنفسه.

و ينسب له تدبير ولاية عهد الرضا عليه السلام حين قال : أين يقع فعلي فيما أتيت من فعل أبي مسلم فيما أتاه، فقليل له : إنّ أبا مسلم حولها من قبيلة إلى قبيلة، و أنت حولتها من أخ إلى أخ و بين الحالتين ما تعلمه. فقال الفضل : إنّي أحولها من قبيلة إلى قبيلة ثمّ أشار على المأمون بأن يجعل عليّ بن موسى الرضا عليه السلام وليّ عهده فأسقط بيعة المؤتمن أخيه.^٢ هكذا كان يرى البعض .و قيل :بلغ من شأنه أن غلب على المأمون حتّى ضايقه في جارية أراد شراءها^٣ و كان الفضل بن سهل ذا تأثير كبير على شخصيّة المأمون يتلاعب به كيف ما شاء، إلا أنّه لم يفلت من غدر المأمون و كيدته حتّى دبّر له حادثة قتل في حمام بسرخس في شعبان سنة ثلاث و مائتين^٤ على ما يروى ليلحق بأسياذه البرامكة فيتلاوم معهم خدمتهم لآل العبّاس.

و كان الفضل بن سهل ينتظر أجله و يعدّ أيامه مع عداد الأيام القصيرة

١- الدولة العبّاسيّة، محاضرات تاريخ الأمم الإسلاميّة ص ١٥٩.

٢- بحار الأنوار ٤٩: ١٤٢.

٣- مروج الذهب للمسعودي ٤١٦: ٣.

٤- بحار الأنوار ٤٩: ١٤٣.

التي أمضاها في محراب بني العباس. و يذكر ابن عماد الحنبلي: أن الفضل ابن سهل كان محتدًا في علم النجوم كثير الإصابة، و وجد في تركته إخبار عن نفسه أنه يعيش ثمانين و أربعين سنة ثم يقتل بين الماء و النار، فعاش هذه المدة ثم دسّ عليه خال المأمون غالب فدخل عليه في جماعة فقتلوه سنة ٢٠٢ هـ، و قيل ٢٠٣ هـ.^١

^١ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ٢: ٤.

إخلاص الرضا عليه السلام و مؤامرات رجال السلطة

شهدت بدايات القرن الثالث الهجري تفاقم الأزمات و تدهور الأحوال بكل مظاهرها، حتّى عمّت الفوضى و انبسطت أيادي الأشرار و العابثين بأمن الدولة و الناس، ولكن القائمين بالأمر لم يتمكّنوا من السيطرة و التحكم بالأوضاع، بل كانوا عاجزين حتّى عن إيصال الصورة الحقيقيّة آنذاك للخليفة، لوجود فاصلة كبيرة بين المأمون و قاداته و رجال دولته المضطربة و الغارقة في المحن و الويلات، فلقد استبدّ الفضل بن سهل بالأمر دون المأمون، و حتّى الرضا عليه السلام الذي كان في حينه وليّ عهد الخليفة المأمون لم يكن يصله شيء من أخبار الأمة و البلد عن طريق الفضل بن سهل بصفته وزير الدولة الإسلاميّة و المتوكلي تدبير أمورها؟ ولكن الرضا عليه السلام تمكّن من الاطلاع و الإحاطة بأوضاع الدولة بكل تفاصيلها، و يقول الأمين : بأنّ الرضا عليه السلام كان متنبّها لكلّ ما يجري، و كانت له وسائله التي تجعله يراقب مراقبة تامّة كلّ ما يحدث في أرجاء المملكة. فكان على علم بحقيقة الثورة في العراق و علم بالأحداث الأخرى فأخذ بالحزم و تصرف تصرف رجل الدولة المسؤول و قصد إلى المأمون و أطلعه على الحقائق، و أنّ حرباً حقيقيّة تجري بين قوّة إبراهيم بن المهدي المبايع بالخلافة، و بين القوّة الشرعيّة. و أنّ هناك

نقمة عامة في العباسيين و في جمهور من الشعب على ما أقدم عليه من بيعته له بولاية العهد. و أنّ الفضل بن سهل لا يوصل إليه الأخبار على حقيقتها، بل يوصلها ملطّفة مخفّفة معتمداً على أنّ أخاه الحسن بن سهل يستطيع القضاء على كلّ تمرّد مبيّناً للمأمون أنّه ليس مكانهما هو و المأمون هنا في مرو، و لا يمكن أن تكون عاصمة بديلاً عن بغداد، فلا بدّ من الانتقال إلى بغداد.^١ فكانت هذه الأخبار و الأفكار و الرؤى التي طرحها الرضا عليه السلام سبباً لنشوب العداوة التي أوغرت قلب الفضل، و حرّكت و أوقدت في طويته دافع الانتقام، أو التخلّص منه عليه السلام أو إبعاده أو إيقاف مشاريعه عليه السلام و أفكاره - على الأقلّ، أو تجميدها أو إبعادها، و صرفها عن ذهن المأمون.

و كان الرضا عليه السلام يسعى في توجيه سياسة المأمون نحو طاعة الله و تأهيله لأن يمارس دور الخليفة البارّ بالرعيّة و الحريص على مصالحهم، إلا أنّ الفضل بن سهل كان يوجّه المأمون لخدمة مآربه و مصالحه، كما يروي ياسر الخادم بأنّ المأمون دخل على الرضا عليه السلام و معه كتاب طويل فقرأ ذلك الكتاب عليه، فإذا هو فتح لبعض قرى كابل فيه : إنّنا فتحنا قرية كذا و كذا، فلمّا فرغ قال الرضا عليه السلام : و سرّك فتح قرية من قرى الشرك؟ فقال له المأمون : أو ليس في ذلك سرور؟ فقال الرضا عليه السلام : يا أمير المؤمنين، اتّق الله في أمة محمد ﷺ و ما ولاك من هذا الأمر و خصّك به، فإنّك قد ضيّعت أمور المسلمين و فوّضت ذلك إلى غيرك يحكم فيهم بغير حكم الله عزّ وجلّ، و قعدت في هذه البلاد و تركت بيت الهجرة و مهبط الوحي. و إنّ المهاجرين و الأنصار يظلمون دونك، و لا يرقبون

١- حسن الأمين: الرضا و المأمون و ولاية العهد و صفحات من التاريخ العباسي، دار الجديد بيروت ص ١٥٤.

في مؤمن إلّا و لا ذمّة، و يأتي على المظلوم دهر يتعب فيه نفسه و يعجز عن نفقته، فلا يجد من يشكو إليه حاله و لا يصل إليك. فاتق الله، يا أمير المؤمنين في أمور المسلمين و ارجع إلى بيت النبوة و معدن المهاجرين و الأنصار. أما علمت يا أمير المؤمنين أنّ والي المسلمين مثل العمود في وسط الفسطاط من أَرادَه أخذَه. فقال المأمون : يا سيّدي فما ترى؟ قال: أرى أن تخرج من هذه البلاد و تتحوّل إلى موضع آبائك و أجدادك، و تنظر في أمور المسلمين و لا تكلهم إلى غيرك، فإنّ الله عزّ وجلّ سائلك عمّا ولاك. فقام المأمون فقال : نعم ما قلت يا سيّدي هذا هو الرأى، و خرج و أمر أن تقدّم النواائب^١.

و بلغ ذلك ذاالرئاستين فغمّه غمّاً شديداً، و قد كان غلب على الأمر، و لم يكن للمأمون عنده رأى، فلم يجسر أن يكشفه ثمّ قوى بالرضاء عليه السلام، فجاء ذوالرئاستين إلى المأمون فقال : يا أمير المؤمنين، ما هذا الرأى الذي أمرت به؟ فقال المأمون : أمرني سيّدي أبو الحسن بذلك، و هو الصواب. فقال : يا أمير المؤمنين، ما هذا بصواب، قتلت بالأمس أخاك، و أزلت الخلافة عنه، و بنو أبيك معادون لك، و جميع أهل العراق و أهل بيتك و العرب. ثمّ أحدثت هذا الحدث الثاني: أنّك جعلت ولاية العهد لأبي الحسن و أخرجتها من بني أبيك، و العامّة و العلماء و الفقهاء و آل العباس لا يرضون بذلك و قلوبهم متنافرة عنك، و الرأى أن تقيم بخراسان حتّى تسكن قلوب الناس على هذا و يتناسوا ما كان من أمر محمّد أخيك، و ههنا يا أمير المؤمنين مشايخ قد خدموا الرشيد و عرفوا الأمر

١- النواائب : العساكر المعدة للنواائب أو أسباب السفر المعدة لها. أو العساكر الذين يتأبّون في الخدمة، أو الطبول المسماة في عرف العجم: بالنوبة السلطانية. بحار الأنوار ٤٩: ١٧٠، و في نسخة: النجائب بدل النواائب.

فاستشرهم في ذلك، فإن أشاروا به فامضه. فقال المأمون : مثل من؟ قال ذوالرئاستين: مثل عليّ بن أبي عمران، و ابن مؤنس، و الجلودي، وهؤلاء هم الذين نعموا ببيعة أبي الحسن عليه السلام و لم يرضوا به، فحبسهم المأمون بهذا السبب. فقال المأمون : نعم، فلمّا كان من الغد جاء أبو الحسن عليه السلام فدخل على المأمون فقال : يا أمير المؤمنين، ما صنعت؟ فحكى له ما قال ذوالرئاستين و دعا المأمون بهؤلاء النفر فأخرجهم من الحبس، فأول من دخل عليه عليّ بن أبي عمران فنظر إلى الرضا عليه السلام بجانب المأمون فقال: أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تخرج هذا الأمر الذي جعله الله لكم و خصّكم به، و تجعله في أيدي أعدائكم و من كان آباؤك يقتلونهم و يشرّدونهم في البلاد، فقال المأمون له: يا بن الزانية و أنت بعد على هذا! قدّمه يا حרسي و اضرب عنقه، فضربت عنقه. و أدخل ابن مؤنس فلمّا نظر إلى الرضا عليه السلام بجانب المأمون، قال : يا أمير المؤمنين، هذا الذي بجانبك و الله صنم يعبد من دون الله، فقال له المأمون : يا بن الزانية و أنت بعد على هذا ! يا حرسي قدّمه و اضرب عنقه، فضرب عنقه. ثمّ أدخل الجلودي. و كان الجلودي في خلافة الرشيد، لمّا خرج محمد بن جعفر بن محمد بالمدينة، بعثه الرشيد و أمره إن ظفر به أن يضرب عنقه، و أن يغير على دور آل أبي طالب، و أن يسلب نساءهم و لا يدع على واحدة منهنّ إلا ثوباً واحداً. ففعل الجلودي ذلك.

و قد كان مضى أبو الحسن عليه السلام فصار الجلودي إلى باب أبي الحسن الرضا عليه السلام فهجم على داره مع خيله، فلمّا نظر إليه الرضا عليه السلام جعل النساء كلّهن في بيت، و وقف على باب البيت، فقال الجلودي لأبي الحسن عليه السلام: لا بدّ من أن أدخل البيت فأسلبهنّ كما أمرني أمير المؤمنين، فقال الرضا عليه السلام: أنا أسلبهنّ لك و أحلف أنّي لا أدع عليهن شيئاً إلا

أخذته، فلم يزل يطلب إليه و يحلف له حتّى سكن، فدخل أبو الحسن الرضا عليه السلام فلم يدع عليهنّ شيئاً حتّى أقراطهنّ و خلاخيلهنّ و إزارهنّ إلّا أخذهنّ و جميع ما كان في الدار من قليل و كثير.

فلما كان في هذا اليوم و أدخل الجلودي على المأمون قال الرضا عليه السلام: يا أمير المؤمنين، هب لي هذا الشيخ، فقال المأمون: يا سيدي، هذا الذي فعل بنات رسول الله صلى الله عليه وآله ما فعل من سلبهنّ، فنظر الجلودي إلى الرضا و هو يكلم المأمون و يسأله أن يعفو عنه و يهبه له، فظنّ أنّه يعين عليه لما كان الجلودي فعله، فقال: يا أمير المؤمنين، أسألك بالله و بخدمتي للرشد أن لا تقبل قول هذا فيّ، فقال المأمون: يا أبا الحسن، قد استعفى و نحن نبرّ قسمه. ثمّ قال: لا و الله، لا أقبل فيك قوله، ألحقوه بصاحبيه، فقدّم و ضرب عنقه.

و رجع ذوالرئاستين إلى أبيه سهل، و قد كان المأمون أمر أن تقدّم النوايب فردّها ذوالرئاستين، فلما قتل المأمون هؤلاء علم ذوالرئاستين أنّه قد عزم على الخروج. فقال الرضا عليه السلام: يا أمير المؤمنين، ما صنعت بتقديم النوايب؟ قال المأمون: يا سيدي، مرهم أنت بذلك. فخرج أبو الحسن عليه السلام و صاح بالناس: قدّموا النوايب، قال الراوي: فكأنّما وقعت فيهم النيران و أقبلت النوايب تتقدّم و تخرج، وقعد ذوالرئاستين منزله فبعث إليه المأمون فاتاه، فقال له: مالك قعدت في بيتك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ ذنبي عظيم عند أهل بيتك و عند العامة، و الناس يلوموني بقتل أخيك المخلوع و بيعة الرضا عليه السلام، و لا آمن السعاة و الحساد و أهل البغي أن يسعوا بي، فدعني أخلفك بخراسان، فقال له المأمون: لا نستغني عنك، فأما ما قلت: إنّّه يسعى بك و يبغي لك الغوائل، فليس أنت عندنا إلا الثقة المأمون الناصح المشفق، فاكتب لنفسك ما تثق به من

الضمان و الأمان، و أكّد لنفسك ما تكون به مطمئناً. فذهب و كتب لنفسه كتاباً و جمع عليه العلماء و أتى به المأمون، فقرأه و أعطاه المأمون كلّما أحبّ، و كتب له بخطّه كتاب الحبوة : إنّي قد حبوتك بكذا و كذا من الأموال و الضياع و السلطان. و بسط له من الدنيا أمّله، فقال ذوالرئاستين: يا أمير المؤمنين، يجب أن يكون خطّ أبي الحسن عليه السلام في هذا الأمان يعطينا ما أعطيت فإنّه وليّ عهدك. فقال المأمون : قد علمت أن أبا الحسن عليه السلام قد شرط علينا أن لا يعمل من ذلك شيئاً و لا يحدث حدثاً، فلا نسأله ما يكرهه، فاسأله أنت فإنّه لا يأبى عليك في هذا. فجاءواستأذن على أبي الحسن عليه السلام ، قال ياسر : فقال لنا الرضا عليه السلام : قوموا فتنحّوا فتنحّينا، فدخل فوقف بين يديه ساعة، فرفع أبو الحسن عليه السلام رأسه إليه فقال له : ما حاجتك يا فضل؟ قال : يا سيّدي، هذا ما كتبه أمير المؤمنين لي و أنت وليّ عهد المسلمين، فقال له الرضا عليه السلام : اقرأه، وكان كتاباً في أكبر جلد، فلم يزل قائماً حتّى قرأه، فلمّا فرغ قال له أبو الحسن عليه السلام : يا فضل، لك علينا هذا ما اتّقيت الله عزّ وجلّ^١. و كأنّه شخص مظنون متّهم كما يفهم من قوله عليه السلام.

و عبارة الرضا عليه السلام تفسّر لنا أنّ الفضل بنظر الرضا عليه السلام غير ملتزم بما يعاهد و يقول، و أنّ ديّانته كانت ضعيفة، فهنا قوله عليه السلام له دلالات تحمل الباحث على إعادة النظر في كثير من أخبار البيعة، لأنّ الفضل هو شخص مريب و يحمل في جوانحه كيداً و تأمراً لا يدري ما الذي كان يرومه في هذه المؤامرات التي كان يحوكمها. و من ذلك ما روى الصدوق بأنّ الفضل بن سهل قصد الرضا عليه السلام مع هشام بن إبراهيم العبّاسي فقال الفضل: يا بن رسول الله جئتكَ في سرّ فاخُل لي المجلس، فأخرج الفضل يميناً

١- بحار الأنوار ٤٩: ١٦٥، عيون أخبار الرضا ٢: ١٥٩.

مكتوبة بالعتق و الطلاق، و ما لا كفارة له، و قالوا له : إِنَّا جُنَّاكَ لَنَقُول
كلمة حقّ و صدق، و قد علمنا أنّ الإمرة إمرتكم، و الحقّ حقّكم يا بن
رسول الله، و الذي نقول بألستنا عليه ضامننا، و إلا نعتق ما نملك،
و النساء طوالق، و عليّ ثلاثون حجة راجلاً أنا، على أن نقتل المأمون،
و نخلّص لك الأمر، حتّى يرجع الحقّ إليك. فلم يسمع منهما و شتمهما
ولعنهما و قال لهما : كفرتما النعمة، فلا تكون لكما سلامة و لي إن
رضيت بما قلتما. فلمّا سمع الفضل ذلك منه مع هشام علما أنّهما أخطأا
فقصدا المأمون بعد أن قالوا للرّضا عليه السلام : أردنا بما فعلنا أن نجربك، فقال
لهما الرضا عليه السلام : كذبتما فإنّ قلوبكما على ما أخبرتماني إلا أنّكما لم
تجداني نحو ما أردتما.

فلمّا دخلا على المأمون قالوا : يا أمير المؤمنين، إنّنا قصدنا الرضا عليه السلام
و جربناه و أردنا أن تقف على ما يضره لك فقلنا و قال، فقال المأمون:
وفقتما، فلمّا خرّجا من عند المأمون قصده الرضا عليه السلام و أخليا المجلس
و أعلمه ما قالوا، و أمره أن يحفظ نفسه منهما، فلمّا سمع المأمون ذلك من
الرضا عليه السلام علم أنّ الرضا عليه السلام هو الصادق.^١

و يقف الباحث هنا على شخص لا يكثرث بالعهود و المواثيق
و الأيمان التي قدّمها للرّضا عليه السلام، و من قبل قدّمها للمأمون، و إلا كيف
يكون وزيره إن لم يقدّم له أيمانا مغلظة و عهوداً و مواثيق ! ولكن هذا لا
يعني شيئاً للمأمون و وزيره، فكلّهما يبغى الكيد و الغدر
لصاحبه، الخليفة و وزيره. ولكن الفضل له طموح أكبر و أكثر من منصبه
الذي عيّن فيه، لذا لا يمكن وضع حدود و مساحة لطموحاته، فما يرومه
الفضل و يظهر لنا من نثار كلماته هنا و هناك يدفعنا إلى التشكيك بهذا

١- عيون أخبار الرضا ٢: ١٦٧؛ بحار الأنوار ٤٩: ١٦٣.

الشخص و عدم الاطمئنان له، و لدينا وثيقة تاريخية مهمة تعود إلى العلامة أبي جعفر محمد بن حبيب البغدادي المتوفى ٢٤٥ هـ و هو قريب من هذه الأحداث، فيقول في كتابه عند ذكر الإمام الرضا عليه السلام: كان المأمون قد بايع له بالعهد بعده - أي الرضا عليه السلام - و ضرب الدراهم باسمه و أنه سقط عند المأمون بكلام في الفضل بن سهل فأخبر به المأمون الفضل للموثق الذي كان الفضل أخذه على المأمون. و ذكر روح بن السكن عن عبيد الله بن الحسن العلوي ثم العباسي: أن الفضل قال يوماً و عنده ناس: ما تقولون في بقرة جعلت لها قرنين من ذهب، و كنت أول من نطحته بهما؟ فلم يمض بعد ذلك إلا قليل حتى اعتل فمات^١ و كأنه هنا يخطط لتدبير مؤامرة ذات اتجاهين:

الاتجاه الأول: يذهب إلى الرضا عليه السلام. و الثاني: نحو المأمون سيده وولي نعمته، لأن ولاية العهد عقد بينهما. و المحصل من هذا و غيره بأن الفضل لم يكن ذانوايا حسنة تجاه الرضا عليه السلام مدة معاشته له، و يظهر ذلك أيضاً من رواية أخرى طلب فيها المأمون من الرضا عليه السلام أن يصلّي العيد، و حين طلب المأمون من الرضا عليه السلام أن يخطب في العيد قام الرضا عليه السلام فاغتسل و تعمم بعمامة بيضاء من قطن و ألقى طرفاً منها على صدره و طرفاً بين كتفيه و تشمر ثم قال لجميع مواليه: افعلوا مثل ما فعلت، ثم أخذ بيده عكازة و خرج و نحن بين يديه، و هو حافٍ قد شمر سراويله إلى نصف الساق و عليه ثياب مشمرة. و يصف الراوي هنا الجو الروحي و الملائكي الذي كان عليه الرضا عليه السلام في ذلك الحال

^١ - و هو أسماء القتالين من الأشراف في الجاهلية و الإسلام بتحقيق سيد كسروي حسن منشورات محمد علي بيضون بيروت ص ١٩٣.

فيقول واصفاً المشهد الرائع الذي شهده : فلما قام و مشينا بين يديه رفع رأسه إلى السماء و كبر أربع تكبيرات فخيّل إلينا أنّ الهواء و الحيطان تجاوبه، و القواد و الناس على الباب قد تزيّنوا و لبسوا السلاح، و تهيّأوا بأحسن هيئة، فلما طلّعنا بهذه الصورة حفاة قد تشمّرنا و طلع الرضا عليه السلام وقف وقفة على الباب و قال : الله أكبر الله أكبر، الله أكبر على ما هدانا، الله أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام، و الحمد لله على ما أبلانا. و رفع بذلك صوته و رفعنا أصواتنا. فترعزت مرو من البكاء و الصياح، فقالها ثلاث مرّات، فسقط القواد عن دوابهم و رموا بخفافهم لما نظروا إلى أبي الحسن عليه السلام ، و صارت مرو ضجّة واحدة لم يتمالك الناس من البكاء والضجّة. فكان الرضا عليه السلام يمشي و يقف في كلّ عشر خطوات وقفة يكبر الله أربع مرّات فيتخيّل إلينا أنّ السماء و الأرض و الحيطان تجاوبه، و بلغ المأمون ذلك، فقال له الفضل بن سهل ذوالرئاستين : يا أمير المؤمنين، إن بلغ الرضا عليه السلام المصلّى على هذا السبيل افتتن به الناس، فالرأي أن نسأله أن يرجع، فبعث إليه المأمون فسأله الرجوع فدعا أبو الحسن عليه السلام بخفّ فلبسه و رجع.^١ و هذه الرواية جاءت في سياق آخر تقول. بأنّ بعض الحاشية أسرع إلى المأمون و قال له : تدارك الناس و اخرج و صلّ بهم، و إلا خرجت الخلافة منك الآن.^٢ فالمحصّل من هذا الخبر أنّ الفضل لم يكن مع الرضا عليه السلام في كلّ الأحوال، و من الطبيعي أن تكون حاشية المأمون تحت نظر الوزير الفضل. و من المؤكّد أن المراد ببعض الحاشية في الخبر : هم أتباع الفضل و عيونه و هم واقعون تحت أمرة الفضل و توجيهه. و بالنتيجة هو الفضل نفسه يقف وراء كلّ شيء،

١- عيون أخبار الرضا ٢: ١٥٠؛ بحار الأنوار ٤٩: ١٣٥.

٢- بحار الأنوار ٤٩: ١٧١.

و كأن الرضا عليه السلام كان على موعد مع غفريتين يتناوبان الكيد له. و كان الفضل يخطط للمأمون و للدولة بالنحو الذي يريده هو و يجري وفق إرادته، و بالتالي إحكام السيطرة على الأوضاع و ترتيبها، فقد ذكر ذوالرئاستين نفسه أنه قال : قلت للمأمون لما أراد الرشيد الشخص لخراسان لحرب رافع : لست تدري ما يحدث بالرشيد و هو خارج إلى خراسان، و هي ولايتك و محمد المقدّم عليك، و إنّ أحسن ما يصنع بك أن يخلعك و هو ابن زبيدة و أخواله بنو هاشم، و زبيدة و أموالها، فاطلب إليه أن يشخصك معه. فسأله المأمون الإذن فأبى عليه، قال المأمون فقلت له : أنت عليل، و إنّما أردت أن أخدمك، و لست أكلّفك شيئاً، فأذن له و سار^١.

و على العموم كانت أجواء الأسرة العباسية مغطاة بسحب داكنة من التآمر و الكيد بين الأب و أولاده، و كما يظهر من خبر محمد بن الصباح الطبري الذي قال : إنّ أباه شيع الرشيد حين خرج إلى خراسان فمضى معه إلى النهروان فجعل يحادثه في الطريق إلى أن قال له : يا صباح، لا أحسبك تراني أبداً! قال : فقلت : بل يردك الله سالماً، قد فتح الله عليك، وأراك في عدوك أملك. قال : يا صباح، و لا أحسبك تدري ما أجد! قلت: لا و الله. قال : فتعال حتّى أريك، قال : فانحرف عن الطريق قدر مائة ذراع فاستظلّ بشجرة و أوماً إلى خدمه الخاصة فتنحوا ثم قال : أمانة الله يا صباح أن تكتم عليّ، فقلت : يا سيدي عبدك الذليل تخاطبه مخاطبة الولد! قال : فكشف عن بطنه، فإذا عصابة حرير حوالي بطنه، فقال: هذه علة أكتمها الناس كلّهم، و لكلّ واحد من ولدي عليّ رقيب، فمسرور رقيب المأمون، و جبرئيل بن بختيشوع رقيب الأمين، و سمى الثالث

فذهب عليّ اسمه. و ما منهم أحد إلا و هو يحصي أنفاسي، و يعدّ أيامي، و يستطيل عمري، فإن أردت أن تعرف ذلك فالساعة أدعو بدابة فيجيئوني ببرذون أعجف قطوف^١ ليزيد في علتي فقلت: يا سيدي، ما عندي في الكلام جواب، و لا في ولاة العهود، غير أنني أقول: جعل الله من يشنوك^٢ من الجنّ و الإنس و القريب و البعيد فداك، و قدّمهم إلى تلك قبلك، و لا أرانا فيك مكروهاً أبداً، و عمّر بك الإسلام، و دعم ببقائك أركانه، و شدّ بك أرجاءه، و ردّك الله مظفراً مفلحاً. قال الراوي: ثمّ دعا ببرذون فجاءوا به كما وصف^٣.

و يستطيع الباحث أن يلمس هنا الجوّ السياسي و العائلي للعبّاسيّين أنّ الأولاد يريدون قتل أباهم القاتل غيره بالأمس و ينتظرون الساعة الأخيرة ليرسلوه إلى تراب قبره، و كأنّهم يزفّونه إلى مكان استجمامه، أو يسرعون به نحو عرش سلطانه. هكذا كانوا عفاريت بلا عواطف و أحاسيس، و زادهم الفضل كيداً بمؤامراته و شيطنته ليعزفوا معاً ترنيمة الغدر و القتل في لوحة حمراء صبغوها بدماء الآخرين، فقطرت دماؤهم و امتزجت فيها لتزيد هذه اللوحة قتامة و فدامة. و ما يدرينا لعلّ وفاة الرشيد كانت من تدبير أولاده، و لم يصل المؤرّخين ذلك.

و تحدّث المؤرّخون عن حادث مروّع جرى في سنة سبع و أربعين ومائتين، و هذا الحادث هو: مقتل خليفة عبّاسي في قصره على يد ولده. و ليس هذا الأمر ببعيد على أولاد بني العبّاس، فقد قُتل المتوكّل العبّاسي على يد ولده المنتصر، و يتحدّث ابن كثير الدمشقي عن هذا القتل البشع

١- دابة قطوف: متقارب الخطو، و العجف الهزال: ترتيب جمهرة اللغة ٢: ٥٠٤ (عجف) و ٣:

٤٨ (الخطوط). الشنء: البغض. ترتيب جمهرة اللغة ٢: ٣١٤ (شنأ).

٢- تاريخ الطبري ٨: ٣٣٨.

بالقول: «و كان سبب ذلك أَنّه أمر المتوكّل ابنه عبدالله المعتزّ، الذي هو وليّ العهد من بعده، أن يخطب بالناس في يوم جمعة، فأذاها أداء عظيمًا بليغًا، فبلغ ذلك من المنتصر كلّ مبلغ و حق على أبيه و أخيه، فأحضره أبوه و أهانه و أمر بضربه في رأسه و صفعه، و صرّح بعزله عن ولاية العهد من بعد أخيه، فاشتدّ أيضا حنقه أكثر ممّا كان. فلمّا كان يوم عيد الفطر خطب المتوكّل بالناس و عنده بعض ضعف من علّة به، ثمّ عدل إلى خيام قد ضربت له أربعة أميال في مثلها، فنزل هناك ثمّ استدعى في يوم ثالث شوال بندمائه على عادته في سمره و حضرته و شربه، ثمّ تمالأ ولده المنتصر و جماعة من الأمراء على الفتك به، فدخلوا عليه ليلة الأربعاء لأربع خلون من شوال.

و يقال: «من شعبان، و هو على السماط فابتدروه بالسيوف فقتلوه، ثمّ ولّوا بعده ولده المنتصر»^١. و يقول السيوطي: كان المتوكّل بايع بولاية العهد لابنه المنتصر ثمّ المعتزّ ثمّ المؤيد، ثمّ أراد تقديم المعتزّ لمحبتّه لأئمّه. فسأل المنتصر أن ينزل عن العهد فأبى، فكان يُحضره مجلس العامّة و يحطّ منزلته و يتهدّده و يشتمه و يتوعّده، و اتّفق أن التّرك انصرفوا عن المتوكّل لأُمور فاتّفق الأتراك مع المنتصر على قتل أبيه، فدخل عليه خمسة و هو في جوف الليل في مجلس لهو فقتلوه هو و وزيره الفتح بن خاقان.^٢ فما أشبه يوم المتوكّل و ولايته لأبنائه و حيرته في تفضيل و تقديم أحدهم على الآخر بيوم الرشيد الذي وزّع السلطان بين أبنائه فجعلهم حيارى يتقاتلون، لكن المتوكّل نال حظّه من القتل بأسرع ممّا ينقل المؤرّخون، و كفى أولاده شرّ القتال و السّجال. لكن المأمون أخذ

١- البداية و النهاية ١٠: ٣٨٥.

٢- تاريخ الخلفاء، بتحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد ص ٣٥٠.

بأسلوب آخر في القتل المستور الغامض، لأنّ مقتل أخيه الأمين كان فاضحاً و كافياً للتعريف به فيما بعد، و لم نكن نعرف من القاتل الحقيقي و المباشر للرشد، ولعلّ المأمون حين صحبه بإشارة من الفضل كان يعدّ مؤامرة قتل غامضة غير مرئية للإجهاز على الرشيد و خشي المأمون أن يعرف به في الأوساط العباسية أو الأخرى بأنّه خليفة قتل أو يفكر به كخليفة قاتل و قاطع لأرحامه، فسعى المأمون لأسلوب آخر في القتل والانتقام و تصفية من لا يرغب فيه أو لا ينفعه في حين، أو يشكك في ولائه، أو أنّ دوره قد استنفد و لم يعد ذا جدوى وفائدة ينتفع بها له ولدولته و سياسته. و لربّما تلاقت مؤامرات الفضل بن سهل مع نفس المأمون في مواقف، أو أنّ المأمون قد غلب على أمره و لم يعد يتمكن من أن يتخلّص من تأثير الفضل عليه، أو أنّ المأمون لم يمتلك الرؤية الواضحة للأمور، و ما إلى ذلك. ولكن خدمات هرثمة بن أعين و طاهر ابن الحسين للمأمون و لعموم الدولة غير خافية على أحدٍ من المؤرّخين، ولكنهما عوقبا بالموت، و هما ناصراه و مؤيّدها، بل هما ساعدا الدولة و صاحبها الفضل في السيطرة على الأوضاع و ترتيبها للمأمون. و يتحدث المؤرّخ الشيخ محمّد الخضري عن دورهما الكبير في الدولة العباسية فيقول: لمّا تمّ الأمر للمأمون بالعراق، على يد القائدين العظيمين: طاهر ابن الحسين، و هرثمة بن أعين كان الذي يدبّر الأمور بمرور الفضل بن سهل الذي يرى لنفسه الفضل الأكبر في تأسيس دولة المأمون، فأراد أن يستفيد من هذه الدولة فيستأثر بنفوذ الكلمة فيها، و ليس يتمّ له ذلك و العراق بين يدي طاهر و هرثمة فأصدر أمرين على لسان المأمون:

أولهما: بتولية الحسن بن سهل جميع ما افتتحه طاهر من كور الجبال و فارس و الأهواز و البصرة و الكوفة و الحجاز و اليمن، و كتب إلى

طاهر: أن يسلمه جميع ما بيده من الأعمال، و أن يشخص إلى الرقة لمحاربة نصر بن شيث، و ولاء الموصل و الجزيرة و الشام و المغرب، فلم يسع طاهرا إلا أن يسمع و يطيع فسلم ذلك كله. و الأمر الثاني: إلى هرثمة يأمره بالشخوص إلى خراسان فشخص، و بذلك خلا العراق من أسديه، و أهل العراق عبيد القوة، و لا سيّما أنهم خارجون من ثورة و هيجان، فكان من اللازم أن تظلّ تلك الأيدي المرهوبة حتّى يستكين الناس و يخضعوا. ثمّ يقول الخضري : و لم يبق المأمون بعد ذلك بخراسان. هل كان الفضل بن سهل يريد أن يحول الخلافة الإسلامية إلى مرو فيجعلها حاضرة البلاد الإسلامية، أو رأى أنّ نفوذه يضعف إذا حلّ الخليفة بغداد و بها الألسنة التي لا تملّ الوشايات؟ فخشي من ذلك على مركزه، سواء كان السبب في تخلفه هذا أو ذاك فقد نتج عن هذا التدبير مضارّ شديدة، و اضطرابات كادت ترجع ملك المأمون أثرا بعد عين.^١ و قائد مثل هرثمة بن أعين كان ينتظر في دولة جديدة يحكمها رجال صلحاء و حكماء - و لم تكن رجالها كذلك - التكريم و التقريب، لأنّ له من المواهب و الطاقات و الخصائص الفريدة ما ليس لغيره من قادة و رجال الدولة العباسيّة، فقد كان هرثمة من أكفأ القادة العسكريين الذين خدموا الدولة العباسيّة و قضوا على كثير من الفتن التي حصلت بها فانبرى هرثمة لتطويقها و القضاء عليها، و لولا كفاءة هرثمة و حنكته لعصفت بها حركة أبي السرايا^٢ حيث استطاع هرثمة بقدرته و إخلاصه

^١ - الدولة العباسيّة ص ١٥٣.

^٢ - أبو السرايا : هو السريّ بن منصور، و كان يذكر أنّه من ولد هانئ بن قبيصة بن هانئ بن مسعود الشيباني. و لما ظهر محمّد بن إبراهيم بن إسماعيل العلوي في سنة ١٩٩ هـ بالكوفة، يدعو إلى الرضا من آل محمّد عليه السلام و العمل بالكتاب و السنة، كان القيمّ بأمره في الحرب أبو السرايا. و يقال: إنه - أي أبو

للدولة من إنهاؤها و إفشالها.

ولكن لما فرغ هرثمة من أمر أبي السرايا و محمد بن محمد العلوي شخص إلى خراسان ليعرف المأمون ما يدبر له الفضل بن سهل و ما يكتم عنه من الأخبار ، و رأى ألا يدعه حتى يرده إلى بغداد دار خلافة آبائه و ملكهم ليتوسط سلطانه و يشرف على أطرافه ، فعلم الفضل ما يريد فقال للمأمون : إن هرثمة قد أنغل عليك البلاد و العباد ، و ظاهر عليك عدوك و عادي وليك ، و دسّ أبا السرايا ، و هو جنديّ من جنده حتى عمل ما عمل ، و لو شاء هرثمة أن لا يفعل ذلك أبو السرايا مافعله . و قد كتب إليه أمير المؤمنين عدة كتب أمره أن يرجع فيلي الشام أو الحجاز فأبى ، و قد رجع إلى باب أمير المؤمنين عاصياً مشاقفاً يظهر القول الغليظ و يتواعد بالأمر الجليل ، و إن أطلق هذا كان مفسدة لغيره ، فأشرب قلب أمير المؤمنين عليه .

و هنا يتحدث التاريخ عن وضع هرثمة مع المأمون و الفضل فيقول الطبري: و أبطأ هرثمة في المسير فلم يصل إلى خراسان حتى كان ذو القعدة ، فلما بلغ مرو خشي أن يكتم المأمون قدومه ، فضرب بالطبول لكي يسمعها المأمون فسمعها فقال : ما هذا؟ قالوا : هرثمة قد أقبل يرعد و يبرق ، و ظنّ هرثمة أن قوله المقبول ، فأمر بإدخاله فلما أدخل ، و قد أشرب قلبه ما أشرب ، قال له المأمون : مالأت أهل الكوفة و العلويين ، و داهنت ، و دسست إلى أبي السرايا حتى خرج و عمل ما عمل ، و كان رجلاً من أصحابك ، و لو أردت ان تأخذهم جميعاً لفعلت ، و لكنك أرخيت خناقهم و أجزرت لهم رسنهم ، فذهب هرثمة ليتكلم و يعتذر

ويدفع عن نفسه ما قرف به فلم يقبل ذلك منه، وأمر به فوجئ على أنفه وديس بطنه وسحب من بين يديه. وقد تقدّم الفضل بن سهل إلى الأعوان بالغلظ عليه والتشديد حتى حبس، فمكث في المحبس أياماً، ثم دسّوا إليه فقتلوه وقالوا له: إنّه مات.^١ وهكذا ذهب القائد العظيم من غير جناية، لكنّه صار ضحيّة خبث وتدبير بطانة السوء. ولما بلغ أهل بغداد ما صنع بهرثمة هاج الجند الحربيّة بها وثاروا على الحسن بن سهل فأخرجوا ولاته من بغداد واستخفّوا بأمر المأمون، ولم يكن عند الحسن ما يقدر به على عمل لضعفه وسوء رأيه،^٢ ومن هنا كان المأمون يرى بأنّ الحسن هذا لا يصلح لبغداد، ولعلّه خطّط لإنهائه، كما سنشير لذلك في الفصل الآتي. وأمّا القائد الكبير طاهر بن الحسين فكان بانتظار دسيّسة ومؤامرة المأمون التي أعدّها له في وقت سابق ووقّت تنفيذها حتّى عام ٢٠٧هـ، كما تحدّث ابن عماد الحنبلي عن أحداث هذه السنة بالقول: و كان المأمون قد أخدّمه غلاماً ربّاه وأمره إن رأى منه ما يريبه سمّه. فلمّا تمكّن طاهر من خراسان قطع خطبة المأمون - في يوم الجمعة - وخطب لنفسه، فأصبح يوم السبت ميّتاً^٣ و كان طاهراً قد مات حتف أنفه واستسلم لنوم هادئ عميق، و تناسوا ما دبّره له المأمون القاتل من وراء ستار الأحداث، و هنا قدّر المأمون والقدر أن تضع في غمرات التاريخ بطولاته وجولاته التي سطرّها في خدمة الدولة.

^١ - تاريخ الطبري ٨: ٥٤٢.

^٢ - الدولة العبّاسيّة ص ١٥٧.

^٣ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ٢: ١٧.

ولاية العهد والفتن في البيت العباسي

سار العباسيون في نظام تولية العهد لأكثر من واحد، على غرار ما سار عليه الأمويون، ولعلّ السبب الرئيس الذي حدا بالعباسيين إلى تبني هذا النظام هو إبقاء الخلافة في البيت العباسي، فقد عهد أبو العباس بالخلافة إلى أخيه أبي جعفر المنصور على أن يكون من بعده ابن أخيه عيسى بن موسى، إلا أن المنصور لم يلتزم بهذا العهد، فقد أعدم ابنه محمد المهدي ليكون خليفة بعده، لذلك مارس ضغوطاً عديدة على عيسى للتنازل عن ولاية العهد لصالح ابنه، ونجح بالتالي في ذلك، على أن يكون عيسى ولياً للعهد بعد المهدي.

إن حبّ الوالد لأولاده والرغبة في إبقاء الخلافة في الأعقاب لم يكن مقتصرًا على المنصور، بل تعدّى إلى ابنه المهدي حيث عين ولده موسى الهادي بعد أن أجبر، رغبة ورهبة، وفي عام ١٦٦هـ عين ابنه هارون الرشيد لولاية العهد على أن يكون بعد أخيه موسى. ولما كانت سنة ١٧٠هـ توفي موسى الهادي، و اختلف في سبب وفاته، فقيل: كان سببها

قرحة كانت في جوفه وقيل: مرض بحدثة الموصل وعاد مريضاً فتوفي.
وقيل: إن وفاته كانت من قبل جوار لأمه الخيزران كانت أمرتهن بقتله.
وكان سبب أمرها بذلك أنه لما ولي الخلافة الهادي كانت تستبد
بالأمور دونه، وتسلك به مسلك المهدي حتى مضى أربعة أشهر فانشال
الناس إلى بابها، وكانت المواكب تغدو وتروح إلى بابها فقال لها: أمالك
مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك، أو بيت يصونك؟ إياك وإياك، لا
تفتحي بابك لمسلم ولا ذمي، فأنصرفت وهي لاتعقل فلم تنطق عنده بعدها
وقيل: كان سبب أمرها بقتله أن الهادي لما جد في خلع الرشيد والبيعة
لابنه جعفر خافت الخيزران على الرشيد^١ وكان للخيزران هبة واعتبار
حتى أن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حين بلغه وفاة موسى الهادي كتب
لها كتاباً يعزيها بوفاته^٢ ولما بويع للرشيد، ليلة الجمعة، وهي الليلة التي
توفي فيها أخوه موسى الهادي من سنة ١٧٠هـ، وكانت سنه يوم ولي
اثنين وعشرين سنة، وقيل: إحدى وعشرين سنة. ولما قعد على كرسي
الخلافة دعا هارون يحيى بن خالد بن برمك، وكان مجوسياً، وقد كان
موسى الهادي عازماً على قتله وقتل هارون الرشيد في تلك الليلة، فحضر
يحيى وتقلد الوزارة و كان الهادي قد خلع الرشيد وباع لابنه جعفر،
وكان عبد الله بن مالك على الشرط، فلما توفي الهادي هجم خزيمة بن
خازم في تلك الليلة فأخذ جعفرأ من فراشه، وكان خزيمة في خمسة
آلاف من مواليه معهم السلاح، فقال: والله لأضربن عنقك أو تخلعها - أي
الخلافة - فلما كان من الغد ركب الناس إلى جعفر فأتى به خزيمة
فأقامه على باب الدار في العلو والأبواب مغلقة، فأقبل جعفر ينادي: يا

^١ - لابن الاثير، الكامل في التاريخ ٥: ٢٧٢.

^٢ - ينظر بحار الأنوار ٤٨: ١٣٤.

معشر المسلمين، من كانت لي في عنقه بيعة فقد أحللتها، والخلافة لعمي هارون ولاحق لي فيها.^١

وهكذا بهذه المؤامرات المتبادلة تمّ للرشيّد ما أريد له من قبل الحاشية، ولم يكن هو الذي أراد، على ما يعتقد الدكتور فاروق عمر، وكما يفهم هو شخص هارون، فيقول: أمّا روايات ألف ليلة وليلة فقد جعلت من شخصيّة هارون الرشيّد شخصيّة أسطوريّة طغت على شخصيّته التاريخيّة. فلقد نشأ هارون نشأة ترف جعلته بعيداً عن المسؤولية غير مقدّر لتبعاتها حقّ التقدير. ثمّ رفعته أمّه الخيزران والبرامكة إلى الخلافة دون أن يكون راغباً فيها كلّ الرغبة بعد المؤامرة التي دبّرت على الهادي. ومنذ سنة ١٧٠هـ حتى ١٨٧هـ فوّض الرشيّد المسؤوليّة بيد البرامكة يحيى و ابنه: الفضل، وجعفر و أقربائهم و مواليتهم، ثمّ نكبتهم فجأة لازدياد نفوذهم وسعة سلطانهم الذي بدأ يضاهي بل يزيد على نفوذ الخليفة نفسه.^٢

قال المسعودي: وكانت مدّة دولة البرامكة وسلطانهم وأيامهم النضرة الحسنة من استخلاف هارون الرشيّد إلى قتل جعفر بن يحيى بن خالد ابن برمك سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يوماً، وتولّى وزارة الرشيّد بعد البرامكة الفضل بن الربيع فلم يسدّ المكان الذي سدّوا.^٣ ومن الطريف هنا ما ذكر المؤرّخون بأنّه ولد الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك لسبع بقين من ذي الحجّة سنة ١٤٨هـ - قبل أن يولد

١- تاريخ الطبري ٨: ٢٣٢.

٢- الخلافة العبّاسيّة في عصر الفوضى العسكريّة ص ٢٣.

٣- مروج الذهب ٣: ٣٨٠.

٤- الشيخ محمد الخضري، الدولة العبّاسيّة ص ١١٥.

الرشيد بن المهدي بسبعة أيام فأرضعته الخيزران أم الرشيد بلبن ابنها، فكان الفضل بن يحيى أخا الرشيد من الرضاعة ولذلك يقول سلم الخاسر:

أصبح الفضل و الخليفة هارون رضيعي لبان خير النساء^١
ولكن هذا لم يمنع هارون من أن يمدّ يديه وسطوته السلطانية في أن يضرب البرامكة ضربة قاضية أنهتهم، ولم تبق له معهم سوى ذكرى باهتة لم يعد يتذكرها هو و أولاده في تضايف أيامهم. ومهما كانت عيوب البرامكة فإنهم دبروا للرشيد أمور الدولة و سَكَنُوا اضطرابها، وأقاموه مقامه وأجلسوه مجلسه. وقد كان الرشيد مضطرباً في قراراته، و أخرق قراراتين اتّخذهما الرشيد هما:

١- سجن موسى بن جعفر عليه السلام، ومن ثمّ الأمر بقتله ومضايقة العلويين.

٢- تقسيمه للدولة الإسلامية العظيمة، التي صنعتها دعوة لا إله إلا الله وسيوف الفاتحين، بين أولاده الثلاثة: الأمين، والمأمون والمؤتمن. ويقول فاروق عمر: إن القرار السياسي الذي اتّخذه الرشيد بتقسيمه الدولة بين أبنائه الثلاثة ينمّ عن قصر نظره في السياسة. ولعلّ هذا الموقف يجعله مسؤولاً بصورة غير مباشرة عن الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون.^٢ ولم يتعظ الرشيد بمشكلة ولاية العهد التي جرّت إلى صراعات و مشكلات وأزمات كادت أن تعصف بالدولة والبيت العباسي معاً، كما جرى الأمر له ولأخيه من قبل، بل تعدّت هذه المرّة إلى مصائب و ويلات للأمة وللبيت العباسي لتنسحب إلى المجالات كافة

^١ - الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥: ١٨٦.

^٢ - الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية ص ٢٦.

والأمور العامة للمسلمين، وانعكس هذا حتّى على الشارع والبيت الواحد من المسلمين نتيجة فتنة العهد العبّاسي.

وينقل الدينوري عن الأصمعيّ قصّة ولاية العهد الدمويّة فيقول: كان الرشيد يحبّ السمر ويشتهي أحاديث الناس، فكان يرسل إليّ إذا نشط لذلك ، وجنّ عليه الليل، فأسامره، فأتيّت ذات ليلة ولم يكن عنده أحد فسامرته ساعة ثمّ أطرق و فكّر ثمّ قال: يا غلام، عليّ بالعبّاسي، يعني. الفضل بن الربيع، فحضر و دخل، فأذن له بالجلوس فقال: يا عبّاسي، إنّي عنيت بتولية العهد، و مثبت الأمر في محمّد و عبدالله، وقد علمت أنّي إن وكيّت محمّداً مع ركوبه هواه، و انهماكه في اللهو و اللذات خلط على الرعيّة وضيع الأمر، حتّى يطمع فيه الأقاصي من أهل البغي والمعاصي، وإن صرفت الأمر الى عبد الله ليسلكن بهم المحجّة، و ليصلحن المملكة، و إنّ فيه لحزم المنصور وشجاعة المهدي، فما ترى؟ قال الفضل: يا أمير المؤمنين، إنّ هذا أمر خطير عظيم والزّلّة فيه لاتستقال، و للكلام فيه مكان غير هذا. فعلمت أنّهما يحبّان الخلوة، فقمّت عنهما، و جلست ناحية من صحن الدار، فما زالا يتناظران إلى أن أصبحا، و اتفق رأيهما على تولية محمّد العهد، وتصيير عبدالله من بعده، وقسمة الأموال والجنود بينهما، و أن يقيم محمّد بدار الخلافة ويتولّى المأمون خراسان، فلمّا أصبح أمر بجميع القوّاد فاجتمعوا إليه فدعاهم إلى بيعة محمّد ومن بعده إلى بيعة المأمون فأجابوا الى ذلك وبايعوا^١ وهكذا تمّت مبايعة غلامين وصبيّين من صبيان بني العبّاس في ليلة سمر ولهو مع الأصمعي الذي حلّ محلّ الوزير و الحاجب ليوافق مزاج هارون هنا، لكنّه ترك الرشيد وعبدّه الوزير ليقرّرا مصير مملكة ودولة واسعة بليلة واحدة، ولم يؤخذ نظر

الفقهاء أو العلماء وحتى مشايخ بني العباس وكبارهم الذين اكتسبوا تجربة ومراساً وحنكة في ترتيب أمور الدولة. لقد أحدث هارون خرقاً كبيراً وفتح باباً واسعاً لولاية العهد العباسية وتدخلت وولجت في هذه الفتنة المصالح والأهواء والقوميات والنزعات والبيوتات الطامعة لتشتعل أوار فتن قديمة جديدة أحرقت معها نفوس ، وتناثرت أشلاء من جرّاء هذه الليلة، وكان منها محنة جديدة لأهل البيت عليه السلام وزعيمهم ورئيسهم آنذاك عليّ بن موسى الرضا عليه السلام الذي زجّوه في دائرة الفتنة العباسية ليلقى الرضا عليه السلام منهم الويلات حتى اختاره الكريم إلى جواره؛ عندها فاز ونجا منهم ومن فتنهم الحارقة المارقة.

ويتحدث المؤرخون عن نية الأمين في هذه البيعة الوفاء لأخويه: المأمون، والمؤمن إلا أن الفضل بن الربيع غير نيّته في أخويه، وحسن له خلع المأمون والقاسم، وصغر عنده شأن المأمون. وإنما حمله على ذلك خوفه من المأمون إن أفضت إليه الخلافة أن يخلعه من الحجابة، فوافقه الأمين على ذلك وأمر بالدعاء لولده موسى وبولاية العهد من بعده، وذلك في ربيع الأول من سنة أربع وتسعين ومائة، فلما بلغ ذلك المأمون قطع البريد عنه وترك ضرب اسمه على السكة والطرز، وتنكّر للأمين.

وبعث رافع بن الليث إلى المأمون يسأله منه الأمان فأمنه فصار إليه بمن معه فأكرمه المأمون وعظمه، وجاء هرثمة على إثره فتلّقه المأمون وجوه الناس وولاه الحرس، فلما بلغ الأمين أن الجنود التفت على أخيه المأمون ساءه ذلك وأنكره، وكتب إلى المأمون كتاباً وأرسل إليه رسلاً ثلاثة من أكابر الأمراء، سأله أن يجيبه إلى تقديم ولده عليه ، وأنه

سمّاه الناطق بالحقّ فأظهر المأمون الامتناع، فشرع الأمراء في مطايبته وملاينته و أن يجيبهم إلى ذلك فأبى كلّ الإباء. فقال له العباس بن موسى بن عيسى: فقد خلع أبي نفسه فماذا كان؟ فقال المأمون: إنّ أباك كان إمراً مكرهاً، ثمّ لم يزل المأمون يعد العباس و يمنيّه حتّى بايعه بالخلافة، ثمّ لما رجع إلى بغداد كان يرأسه بما كان من أمر الأمين و يناصحه. و لما رجع الرسل إلى الأمين أخبروه بما كان من قول أخيه، فعند ذلك صمّم الفضل بن الربيع على الأمين في خلع المأمون فخلعه، و أمر بالدعاء لولده في سائر البلاد. وأقاموا من يتكلّم في المأمون و يذكر مساوئه، و بعثوا إلى مكّة فأخذوا الكتاب الذي كتبه الرشيد و أودعه في الكعبة فمزّقه الأمين و أكد البيعة إلى ولده الناطق بالحقّ على ما ولاه من الأعمال، و جرت بين الأمين و المأمون مكاتبات و رسل... ثمّ آل بهما الأمر أن احتفظ كلّ منهم على بلاده و حصّنها و هيأ الجيوش و الجنود و تألّف الرعايا. ثمّ اندلعت حرب ضروس بعد حين لتطيح برأس الأمين، الذي رفعه الرشيد وزبيدة، و نكسه القدر و الزمن، في معركة دراميّة لم يرحمه فيها جنود أخيه المأمون الذي قبع في خراسان متربّصاً الدهر ليعود به إلى بغداد وارئاً عرش أبيه الرشيد و عربدته و غدره، و كأنّه عاد منتصراً على نفسه و بيته و أبيه في دراما الحرب و الحكم ليبدأ فترة حكم عباسيّة أخرى قدرها له ما كتب القدر له.

الغدر العباسي الموروث

كانت سيرة معظم السلاطين المنسوبين لبني العباس هي سيرة عسف وظلم وجور، ولم تكن سيرة محمودة لدى الرعية ، وحتى لمقربيهـم، وهناك طائفة من المؤرخين الذين اضطروا إلى الإفصاح عن خفايا لا يمكن السكوت عنها، مما أجبرهم للحديث عنها وكشفها في مرويّاتهم. و من بين ملوك بني العباس الذين عرفوا بفضائحهم في قصورهم السلطانية و حياتهم الخاصة هو هارون الرشيد، وكذلك ابنه الأمين، الذي عبث بأموال الدولة و حتى بلغ به حدّ التجاوز على القيم و المعايير الأخلاقية، فالشهوات و النزوات التي كانت تعصف بهارون الرشيد لا يمكن حصرها و عدّها، و من هذه الفضائح رغبته الجامحة في أن يطفئ شهوته من جارية أخيه الهادي.^١

و مع أنّه كان في دار الرشيد من الجوّاري و الحظايا^٢ و خدمهنّ و خدم زوجته و أخواته أربعة آلاف جارية^٣ كلّهن في خدمته، و تحت

^١ - تقدّمت الإشارة لذلك في فصل عهد الكاظم.

^٢ - يقال: حظيت المرأة عند زوجها، أي سعدت و دنت من قلبه و أحبّها. اللسان (حظا).

^٣ - البداية و النهاية لابن كثير ١٠: ٣٣٨.

أمره جند مطيع له، ولكن نهमत الرشيد و طماحاته أكبر من هذا العدد الكبير المؤلف، فلم يكن يشبع رغبة الرشيد أو يجعله يغض الطرف عن هذه و تلك أمام رغباته و غرائزه الطاغية العاتية. و هذه الغريزة الطائشة التي استبدت بالرشيد حملته على أن يفعل الأفاعيل المنكرة، لكي يُبقى غرائزه و نهيمته و طماحه سائبة حرّة من أجل أن تنال نفسه ما لا ينال غيره حتّى صارت شهواته المندفعة العارمة ملكة له و سجيّة و طبعاً توارثه أبناؤه من بعده.

و كان الأولى بالرشيد أن يدعوهم إلى السير لمحراب العبادة و العلم و خدمة الرعيّة، و إعطائهم درساً في الوفاء لمن خدمهم و قدّم فروض الطاعة لهم، و أسّس دولتهم و بوأهم سلطانهم الذي كانوا يبتهجون به و يحبرون. لكنّه علمهم كيف يغدرون، و كيف يفجرون في حياتهم و يعربدون في سكرهم و صحتهم.

و كان الأمين و المأمون ولدين طائعين لأبيهما في سيرته الغاشمة الطاغية التي امتدّت حتّى إلى المحارم، و لا ندري كم عدد المحارم و مقدار المآثم التي أهملها التاريخ، أو سكت عنها، أو لم يعلمها؟ أو لم يرد أن يتحدّث عنها؛ فتلك مصيبة أخرى.

و إذا تركنا حياتهم الخاصة، التي امتلأت باللهو و العبث و العريضة و المجون، فإنّ حياتهم و علاقاتهم مع جهاز الدولة الإسلاميّة الكبيرة التي وقعت تحت قبضتهم أكثر فساداً و طغياناً. فالخادم و الجندي و الكاتب و الوزير في جهاز الدولة العبّاسيّة لم يكن يسلم من سطوة و غشم ملوك بني العبّاس، و مع أنّ هؤلاء - على العموم - لم يكونوا من صلحاء الأئمة أو عبّادها أو زهادها، إلا أنّ لهم من الخدمات التي لا يمكن التقليل من شأنها، فدولة كبرى عظيمة كانت قائمة في تاريخ المسلمين تتطلّب

جهوداً عظيمة و طاقة هائلة لإدارتها.

و كان الأجدد من ملوك هذه الدولة الالتفات إلى هؤلاء العمال و حقن دمايهم على الأقل، و رفع سوط الغدر عنهم، لكن تناقل بعض المؤرخين، و لعل أكثرهم، عن هؤلاء صوراً فجيرة في القتل و التنكيل بهم و مصادرة أموالهم، و لعل أبشع ملحمة غدر عرفت و اشتهرت في التاريخ هي نكبة البرامكة، و كان الرشيد بطل الواقعة الكبرى التي خطط لها و نفذها في قتل جعفر بن يحيى البرمكي في سنة سبع و ثمانين و مائة، و التمس المؤرخون عللاً لهذه الغدر الشنيعة، منها : أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر و عن أخته عباسية بنت المهدي، و كان يحضرهما إذا جلس للشرب، فقال لجعفر: أزوجكها، ليحل لك النظر إليها و لا تقرها، فإني لا أطيق الصبر عنها، فأجابته إلى ذلك فزوجهما منه، و كانا يحضران معه ثم يقوم عنهما و هما شابان فجامعها جعفر فحملت منه، فولدت له غلاماً فخافت الرشيد فسيّرتة مع حواضن له إلى مكة فأعطته الجواهر و النفقات.

ثم إن عباسية وقع بينها و بين بعض جواريتها شرٌّ فأنهت أمرها و أمر الصبي إلى الرشيد و أخذت علماً بمكانه، فحج الرشيد و بحث عن الأمر فعلمه، و كان جعفر يصنع للرشيد طعاماً بعسفان إذا حج، فصنع ذلك و دعاه فلم يحضر عنده، فكان ذلك أوّل تغير أمرهم. و قيل : كان سبب ذلك أن الرشيد دفع يحيى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن عليّ عليه السلام إلى جعفر بن يحيى بن خالد فحبسه، ثم دعا به ليلة جعفر و سأله عن بعض أمره، فقال له يحيى: اتق الله في أمري و لا تتعرض أن يكون غداً خصمك محمد بن عبد الله ﷺ، فوالله ما أحدثت حدثاً و لا آويت محدثاً، فرق له و قال : اذهب حيث شئت من بلاد الله، قال : فكيف أذهب و لا آمن أن

أُوخذ بعد قليل، فوجّه معه من أذاه إلى مأمنه، و بلغ الخبر الفضل بن الربيع من عين كانت له من خواصّ جعفر فرفعه إلى الرشيد فقال : ما أنت و هذا فعله عن أمري، ثمّ أحضر جعفرّاً للطعام فجعل يلقّمه ويحادثه، ثمّ سأله عن يحيى، فقال : هو بحاله في الحبس الضيق والأكبال، فقال : بحياتي ! ففطن جعفر، و كان من أدقّ الخلق ذهناً وأصحّهم فكراً، فهجس في نفسه أنّه قد علم بشيء من أمره، فقال جعفر: لا و حياتك، و قصّ عليه أمره و قال : علمت أنّه لا مكروه عنده، فقال: نعم ما فعلت ما عدوت ما في نفسي، فلمّا قام عنه قال : قتلني الله إن لم أقتلك ! فكان من أمره ما كان،^١ و مهما قيل من سبب أو أسباب تراكمت في صدر الرشيد لنكب البرامكة، فإنّ تصفيتهم و القضاء عليهم بعد ما قدّموا من خدمات للرشيد و للدولة معا يعبر عن روح الغدر و المكر والكيد، و غدر الرشيد بيحيى بن عبدالله بن الحسن بعد أن آمنه ما يخجل، و لو أنّ ذمّيّاً أو محارباً هادن و منح الأمان من أيّ فرد أو جهة لكان لزاماً عليهم الوفاء، فكيف بواحد من المسلمين!؟

فالغدر و الكيد وصمة عار في جبين بني العبّاس، و كأنّ وسام الغدر الذي حازه خلفاء بني العبّاس علّقاه الرشيد على جيده مفتخراً بغدراته ومكايده، و كأنّ جدّهم العبّاس كان شاهداً على زيّ الغدر الذي لبسه جبرئيل عليه السلام ليخبر به النبي صلى الله عليه وآله عن الأزمنة اللاحقة، فقد روى الصدوق: «أنّ جبرئيل عليه السلام هبط على النبي صلى الله عليه وآله و عليه قباء أسود و منطقة فيها خنجر فقال له النبي صلى الله عليه وآله : يا جبرئيل، ما هذا الزي؟ فقال جبرئيل عليه السلام: هذا زي ولد عمّك العبّاس. ثمّ قال عليه السلام: ويل لولدك من ولد عمّك العبّاس! فخرج النبي صلى الله عليه وآله إلى العبّاس فقال : يا عمّ، ويل لولدي من

ولذلك! فقال العبّاس: فأجب نفسي؟ فقال النبي ﷺ: جرى القلم بما فيه.^١
 فلم ينفك بنو العبّاس من سفك الدماء، وقد سجّل أوّل خليفة
 عبّاسي، وهو أبو العبّاس السفّاح عام ١٣٢ هـ تاريخه السياسي في إراقة
 الدماء، فقد قضى معظم عهده في محاربة قوّاد العرب الذين ناصرُوا بني
 أمّية، وقضى على أعقاب الأمويّين، حتّى أنّه لم يفلت منهم إلا عبد
 الرحمن الداخل الذي أسّس الدولة الأمويّة ببلاد الأندلس. ووجّه السفّاح
 همّته بعد ذلك إلى الفتك بمن والوه و ساعدوه على تأسيس دولته، فقتل
 أبا سلمة الخلال، وهمّ بقتل أبي مسلم لولا أن عاجلته منيته، كما أنّه قتل
 ابن هبيرة أحد قوّاد مروان بن محمد الأموي بعد أن أعطاه الأمان. و كان
 السفّاح خطب على المنبر قائلاً: أنا السفّاح المبيح، و الثائر المبير. ممّا
 يشعر في بادئ الرأي أنّه عوّل على سفك دماء كلّ من يقف في سبيله^٢
 فسنّ للخلفاء من بعده أن لا يفرّقوا في سفك الدم بين دماء أعدائهم
 وأصدقائهم و أرحامهم، و كأنّ أبناء آدم كلّهم متساوون في أن يكونوا
 طعمة لسيوفهم النهمة للقتل. و صدق الأمين العبّاسي حين كتب بخطّه
 إلى طاهر بن الحسين لمّا انتدب لحربه: يا طاهر، ما قام لنا منذ قمنا قائم
 بحقنا فكان جزاؤه عندنا إلا السيف، فانظر لنفسك أودع. يلوّح بأبي مسلم
 و أمثاله الذين بذلوا نفوسهم في النصّح لهم فكان مآلهم القتل منهم.^٣
 سبحانه الله! لقد تساوت دماء البشر لديهم، كلّهم مطلوبون ومدانون، عبيد
 أم وزراء، مؤيّدون أم معارضون، ياله من عدل في الحكم! فلقد تساوت
 الأحكام عندهم، وسالت دماؤهم و دماء أصدقائهم و خدّامهم ومواليهم

^١ - من لا يحضره الفقيه ١: ١٦٣ ح ٧٦٨.

^٢ - حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي و الديني و الثقافي و الاجتماعي ٢: ٢٢.

^٣ - تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٤١.

على أعتاب قصورهم، و حتّى أنّه كانت بعض الضحايا من بينهم ومن بنيتهم، و بلغ من عدل سيوفهم في توزيع الموت و قطر الدماء و سكبتها حتّى لدمائهم و لغيرها بغياً و عدواناً، فحين أشبعوا شهواتهم و نزواتهم، في قتل الأولياء و الصالحين، التفتوا إلى ذواتهم و أنفسهم فرشقوها بسهام و نصال أعدّوها لأنفسهم فذبّحوا بعضهم بعضاً بسكاكينهم، وكانت شرارات الشرّ و الحقّد كامنة فأوقدها و أثارها لهم هارون الرشيد في نشوة عزّه، و في سكرة من سكرات ملكه و عربدته، فهنا صيرهم عفاريت و جبابرة يتطاعنون بآسهم و تتطاير شظايا الشرّ و النار منهم و من بيوتهم فأحرقت ما أحرقت من البلاد و العباد.

و تفرعن العباسيون و اشتعل في قلوبهم من نار العداوة و التحاسد و التباغض حين تقاسم أولاد هارون الرشيد أرض المسلمين شرقها و غربها، موزعين ملوكاً و أمراء على البلاد و العباد، فقال الشاعر تأييداً لهذا العمل الجائر، و ما قال إلا نفاقاً:

الله قلّد هارون سياستنا لما اصطفاه فأحيا الدين والسنة
و قلّد الأرض هارون لرأفته بنا أمينا ومأمونا ومؤتمنا
وحينها قال بعض العامة: قد أحكم أمر الملك. و قال بعضهم: بل ألقى بآسهم بينهم. و قال الشاعر في ذلك، و لنعم ما قال:

و ألقح بينهم حرباً عوانا و سأس لاجتنابهم القيادا
فويل للرعيّة عن قليل لقد أهدى لها الكرب الشدا
و ألبسها بلاء غير فان و ألزمها التضعضع والفسادا
ستجري من دمائهم بحور زواخر لا يرون لها نفادا
فوزر بلانهم أبدا عليه أغيا كان ذلك أم رشادا^١

فالشاعر هنا أشار إلى وزر الرشيد الذي قدح نار الحرب و الشحنة التي أحرقت البيت العباسي، و نالت شظايا و نثارات من هذه النار الحارقة أمة محمد ﷺ، علاوة على سفكهم و إراقتهم ما شاء الله من الدماء.

وكان الرشيد في سنة ١٨٦ هـ قد وليّ الأمين العراق و الشام و إلى آخر المشرق، ثمّ بايع لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون و لقّبه: المؤتمن و ضمّ إليه الجزيرة و الثغور و العواصم، و كان هذا في حجر عبد الملك بن صالح و جعل خلعه و إثباته إلى المأمون. و لمّا وصل الرشيد إلى مكة و معه أولاده و الفقهاء و القضاة و القواد كتب كتاباً أشهد فيه على محمد الأمين و أشهد فيه من حضر بالوفاء للمأمون، و كتب كتاباً للمأمون أشهدهم عليه فيه بالوفاء للأمين، و علّق الكتابين في الكعبة و جدّد العهود عليهما في الكعبة. و لمّا فعل الرشيد ذلك قال الناس: ألقى بينهم شراً و حرباً، و خافوا عاقبة ذلك فكان ما خافوه فقد أنهر بنو العباس المال و كذلك الدماء غدرأً و نكاية، بمن ناوهم ووالاهم على السواء، و حتّى من صالحهم و دخل في طاعتهم لم يسلم من سكاكين جلاديتهم. فحين دخلت سنة ستّ و سبعين و مائة و ظهر يحيى بن عبد الله بن الحسن بالديلم، و اشتدّت شوكته و كثر جموعه و أتاه الناس من الأمصار، اغتمّ الرشيد لذلك فندب إليه الفضل بن يحيى، في خمسين ألفاً و معه صناديد القواد و ولاء جرجان و طبرستان و الريّ و غيرها، و حمل معه الأموال، فكاتب يحيى بن عبد الله و لطف به، و حذّره و أشار عليه و بسط أمله. و نزل الفضل بالطالقان بمكان يقال له : أشب، و والى كتبه إلى يحيى، و كاتب صاحب الديلم، و بذل له ألف

ألف درهم على أن يسهّل له خروج يحيى بن عبد الله، فأجاب يحيى إلى الصلح على أن يكتب له الرشيد أماناً بخطّه يشهد عليه فيه القضاة و الفقهاء و أجلة بني هاشم و مشايخهم، منهم: عبد الصمد بن علي، فأجابه الرشيد إلى ذلك و سرّ به و عظمت منزلة الفضل عنده و سير الأمان مع هدايا و تحف، فقدم يحيى مع الفضل بغداد فلقية الرشيد بكلّ ما أحبّ و أمر له بمال كثير، و أجرى له أرزاقاً سنّية و أنزله منزلاً سرياً.

و يتحدّث ابن الأثير عن مآل هذه القضية قائلاً: ثمّ أنّ الرشيد حبسه فمات في الحبس. ثمّ يقول بعد هذا: و كان الرشيد قد عرض كتاب أمان يحيى على محمّد بن الحسن الفقيه^١، و على أبي البختري القاضي^٢ فقال محمّد: الأمان صحيح، فحاجّه الرشيد، فقال محمّد: و ما تصنع بالأمان! لو كان محارباً ثمّ ولي كان آمناً. و قال أبو البختري: هذا أمان منتقض من وجه كذا فمزقه الرشيد^٣. و في رواية الطبري: و تفل فيه أبو البختري^٤.

و هكذا تخرق العهود و يعيث فقهاؤهم و علماؤهم بما سطر فيها، و كأنّ عهد الخليفة لهم و طعمته المنتظرة صكّ أمان لهم من عذاب جهنّم، فلا ذمّة تراعى و لا نفس تحترم، فقط الشيء المحترم هو مزاج الخليفة و

١- محمد بن الحسن الشيباني المتوفى عام ١٨٩هـ كان من أبرز تلاميذ أبي يوسف مروّج المذهب الحنفي المنسوب للنعمان بن ثابت، ولي القضاء لخلفاء بني العباس و كان له نفوذ كبير في الدولة و انتهت له رئاسة المذهب بعد موت أبي يوسف. ينظر الكامل في التاريخ ٣٤٠:٥.

٢- أبو البختري: هو الفقيه وهب بن وهب بن كثير بن عبد الله بن زمة بن الأسود بن المطلب القرشي المتوفى سنة ٢٠٠ هـ، و القاضي في زمن الرشيد، حكم بقتل يحيى بن عبد الله بن الحسن و خرق الأمان الذي كتبه الرشيد له. و يقال: إنّ الصادق عليه السلام كان متزوجاً بأخته. ينظر مقاتل الطالبين ٤٨٠؛ فهرست ابن النديم ١٤٦؛ الكامل في التاريخ ٤٢٧:٥.

٣- الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥: ٢٩١.

٤- تاريخ الطبري ٨: ٤٧٧.

هواه، و دم الناس هي دماء حيوانات مفترسة لا حرمة لها فينبغي أن تسفك دماؤها و تراق و تسيح بين أقدامهم يتفكّهون بها و يتندّرون. فلا عجب و لا دهشة أن تسفك دماء الوزراء أيضاً، و قد تلقّى الوزراء الذين خدموا الخلفاء و الدولة العباسيّة ضربات متتالية تنتهي بهم إلى مصادرة أموالهم و سجنهم و من ثمّ تقطع رقابهم. و لم تنفع الخدمات و التضحيات التي يقدمها الوزير لهم، حتّى أنّهم أفرغوا هذا المنصب السياسي و الإداري الكبير من محتواه و حولوه إلى عصا يصرف بها ولعبة تخضع إلى مزاجه. و كان مزاجه المتبدّل يروم هذا و يبغض ذاك و كأنّه كلّ شيء صار لدى الخليفة كال بضاعة.

و قد كانت التجربة الوزاريّة لأبي أيّوب المورياني شاهداً على جبروت و طغيان الخليفة العباسي، حيث استوزره المنصور العباسي في تجربة مريرة فيتحدّث الدكتور عصام سخيني عن ذلك بالقول : كان المورياني يمتلك جميع المؤهلات التي تناسب ليكون وكيلاً شخصياً للخليفة، فقد وُفّرت له تجاربه السابقة في خدمة الأمويين المقدّرة الإداريّة التي تؤهّله لشغل هذا المنصب، كما أنّ علاقته السابقة مع الخليفة قبل أن يتولّى الحكم، أهّلته ليحوز ثقته الشخصيّة. و الأكثر من ذلك فإنّ شخصيّة كانت من نوع شخصيّة الأجير الذي يخدم سيّده جيّداً، مع البقاء في وضع أدنى منه بكثير، و تفصله عنه فجوة يملؤها الرعب الناتج من تأكّده من هشاشة وضعه إزاء سيّده صاحب القوة المطلقة.

و يحتفظ ابن خلّكان بروايات مذهلة عن الرعب الذي كان يسم العلاقة بين أبي أيّوب و الخليفة كذلك توضح الصورة التي رسمها الجهشيارى لأبي أيّوب عن مؤهلات هذا الرجل الذي استحقّ بموجبها

ثقة الخليفة و تعيينه في ذلك المنصب السامي، و كان ظريفاً خفيفاً على القلب، متأثياً لما يريده منه أبو جعفر. و قد أخذ من كل شيء طرفاً، و كان يقول : ليس من شيء إلا و قد نظرت فيه، إلا الفقه فلم أنظر فيه قط، و قد نظرت في الكيمياء و الطبّ و النجوم و الحساب و السحر. و يلاحظ خلوّ المورياني من العلم (الفقه) وفق شروط وزير التنفيذ حسب الماوردي.^١ لكن على الرغم من هذه المواصفات و المكانة التي احتلّها أبو أيّوب عند المنصور فقد تعرّض في العام ١٥٣هـ، أي بعد خدمة استمرّت ما بين ستّ و سبع سنوات، إلى سخط الخليفة الذي قام بحبسه و أقربائه و تعذيبه و مصادرة ممتلكاته و ثروته، ثمّ أمر بقتله في السنة التالية و هو في سجنه.^٢

١- وضع الماوردي أربعة فروق بين وزارة التفويض و التنفيذ، منها: أنّ العلم بأحكام الشريعة معتبر في وزارة التفويض و غير معتبر في وزارة التنفيذ. الأحكام السلطانية ص ٢٧.

٢- العباسيون في سنوات التأسيس ص ١٩٤.

حنكة المأمون

كانت الممارسات التي توارثها أبناء العباس قد تراكمت و اختمرت في نفس المأمون ليستهدي بها و ينتقي منها ما يناسب كل شخص و كل دور، فمرة يمارس دور القاتل مع الأخ، كما حصل له مع محمد الأمين الذي قتله بدم بارد فرماه في نفايات البيت العباسي، و مرة دور القاتل مع الوزير، كما حصل في قتل وزيره الذي أوصله إلى منصّة الخلافة، و كما حدث لذي الرئاستين، الذي لفظه ميتاً مقتولاً مع غسالات الحمام في سرخس. و ليس من المستبعد أن تكون نهاية الحسن بن سهل الذي يتحدث المؤرخون عن مرضه و نهايته بالجنون من تدبير المأمون نفسه، فالمأمون يريد أن يفتح صفحة جديدة و يظهر صورة أخرى له، وكذلك لحاشيته التي تفانت في خدمته أن تتجدد و تلائم الثوب العباسي الكائن في بغداد، كما و أن الحسن سبق له أن طرد من بغداد أثناء نقمة العباسيين و البغداديين، و لكونه قد استنفد أغراضه فلا بد من تدبير مؤامرة و دسيسة جديدة لإبعاده عن السلطة في بغداد، و تقول رواية الذهبي: «بأن الحسن مرض مرضاً شديداً و تغير عقله حتّى ربط وحبس»^١ و تلقى هذه الرواية في أذهان الباحثين شكوكاً بوجود شيء

^١ تاريخ الإسلام و وفیات المشاهير و الأعلام للذهبي ٥: ١٢.

أحكمه المأمون أو أحد أتباعه الموجودين في بغداد ليناسب هذه المرحلة السياسيّة الجديدة التي أعدها من قبل.

و مع أنّ المأمون كان رجل دولة و إدارة ناجحاً و ذا مقدرة سياسيّة كبيرة مكّنته من تجاوز المحن و الخطوب التي مرّت بها الدولة العبّاسيّة، إلا أنّه كان يلعب لعبة القتل و الذبح في ظروف لم تكن تسمح بإمضاء هذا القرار، فقتله لوزيره الفضل بن سهل كان توقيته خاطئاً سبّب له أزمة و هياجاً عاماً كاد أن يطيح بسلطة و مملكة الدولة العبّاسيّة، لو لا تدارك الإمام الرضا عليه السلام لهذا الأمر، و كان المأمون يعدّ العدة لكي يتخلّص من قاداته و وزرائه في اللحظة التي يشعر أنّ دورهم قد استنفد و انتهى، أو أراد أمراً يشبع غريزة الانتقام لديه، و يروي ابن كثير الدمشقي صورة من هذا بقوله: دخل طاهر بن الحسين يوماً على المأمون فسأله حاجة فقضاها له، ثمّ نظر إليه المأمون و اغرورقت عيناه فقال له طاهر: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ فلم يخبره، فأعطى طاهر حسيناً الخادم مائتي ألف درهم حتّى استعلم له ممّا بكى أمير المؤمنين، فأخبره المأمون وقال: لا تخبر به أحداً و إلا أفتلك، إنّي ذكرت قتله لأخي و ما ناله من الإهانة على يدي طاهر، و والله لا تفوته منّي، فلمّا تحقّق طاهر ذلك سعى في النقلة من بين يدي المأمون، و لم يزل حتّى و كاه خراسان و أطلق له خادماً من خدامه، و عهد المأمون إلى الخادم إن رأى منه شيئاً يريبه أن يسمّه فسمّه^١ و هكذا ظلّ يمارس دور القاتل مع كلّ شخص تعامل معه و انتهى دوره المرسوم له، فمرة مع قائد جيشه و مرة مع وزيره الفضل.

والمأمون كان من النوع الذي يقتل الضحيّة و يذرف الدموع عليها، و كان يظهر حرصه على الدولة و الرعيّة، و كأنّ الأمانة طفل ضعيف بحاجة

١- البداية و النهاية لابن الأثير ١٠: ٢٨٣.

إلى حنوّ المأمون و عطفه، و أنّه يخشى على هذا الطفل من الضياع والهلاك. و من طريف ما نقله السيوطي: «أنّ المأمون كان جالساً للمناظرة فجاءه رجل عليه ثياب قد شمّرها و نعله في يده فوقف على طرف البساط و قال : السلام عليكم، فردّ عليه المأمون فقال الرجل: أخبرني عن هذا المجلس الذي أنت فيه، جلسته باجتماع الأمة، أم بالمغالبة والقهر؟ قال المأمون : لا بهذا و لا بهذا، بل كان يتوكّل أمر المسلمين من عقد لي و لأخي، فلمّا صار الأمر إليّ علمت أنّي محتاج إلى اجتماع كلمة المسلمين في المشرق و المغرب على الرضا بي، و رأيت أنّي متى خليت الأمر اضطرب جبل الإسلام، و مرج أمرهم، و تنازعوا و بطل الجهاد و الحجّ و انقطعت السبل، فقامت حياطة للمسلمين إلى أن يجمعوا على رجل يرضون به فأسلم إليه الأمر، فمتى اتّفقوا على رجل خرجت له من الأمر. فقال الرجل: السلام عليكم و رحمة الله و بركاته وخرج»^١ و كأنّ هذا الخبر يوحى بمرحلة انقلابيّة جديدة، و لا ندرى ما حصل له من هذا الانقلاب الديمقراطي، على ما يقولون في لغة هذا العصر؟

فأراد المأمون أن يجربّ جولة جديدة من القتل، ولكن هذه المرّة مع وليّ عهده و إمام الخليفة، و كما جرى و خطّط لقتل الإمام الهمام ثامن الحجج، و كوكب الأرض الزاهي، الناطق بلسان الحقّ، و نور الله الساطع عليّ بن موسى الرضا المرتضى الراضي بقضائه، و الشاكر لبلائه. و كانت دراما القتل و الغدر التي حبكها المأمون ليبقى جالساً على بساط الأسرة العباسيّة من أفجع الأحداث و آلمها للقلب، فقد سلسل و رتّب لهذه الولاية بمقدمات و أحداث اتّصلت بعضها ببعض لتتوجّع الإمام الشهيد

^١ - تاريخ الخلفاء بتحقيق محيي الدين عبد الحميد ص ٣٢٧.

تاج العزّ و الشهادة، و كانت هذه الشهادة الفصل الأخير من فصول لعبة الولاية و العهد العباسي المفتعل، و التي كان يتظاهر بها المأمون، و لترك الأمر لرواية التاريخ الذي نطق بأحداث جرت في ربوع خراسان و على أعتاب القرن الثالث الهجري في الفصل الآتي.

ولاية العهد و البيعة في نظر المؤرخين

يقول المسعودي: «بُيع المأمون عبدالله بن هارون - و يكنى أبا جعفر، و أمّه أمّ ولد باذغيسية تسمّى: مراجل - البيعة العامّة بعد قتل المخلوع يوم الأحد لخمس ليال بقين من المحرم سنة ١٩٨، و بايع للرضا عليّ بن موسى بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ ابن أبي طالب بالعهد بعده، و أزال لبس السواد و لبس بدله الخضرة، و أخذ الناس بذلك فاضطرب من بمدينة السلام من الهاشميين، و عظم ذلك على أهل بغداد عامّة، و على الهاشميين خاصّة لزوال الملك عنهم ومصيره إلى ولد أبي طالب، فأخرجوا الحسن بن سهل، أخا ذي الرئاستين، و كان خليفة المأمون على العراق، و بايعوا المنصورين؛ المهديّ فلم يتمّ له أمر، و كان مضعفاً فبايعوا أخاه إبراهيم بن المهدي بالخلافة لخمس خلون من المحرم سنة ٢٠٢ و دعي له على المنابر بمدينة السلام وغيرها، فوجّه الجيوش لمحاربة الحسن بن سهل و هو بناحية المدائن، فكانت الحروب بينهم سجالاً. و سار المأمون عن مرو يريد بغداد و معه عليّ بن موسى الرضا و وزيره القائم بدولته الفضل بن سهل ذو الرئاستين، و قتل الفضل بن سهل غيلةً في حمام بسرخس يوم الاثنين

لخمس خلون من شعبان من هذه السنة، وقتل الرضا في طوس في أول صفر سنة ٢٠٣.

و لما قرب المأمون من بغداد اضطرب على إبراهيم من كان يعتمد على نصرته، و قعد عنه أكثر من بايعه من الهاشميين و غيرهم فاستتر لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة من هذه السنة، و قال معاتباً للعباسيين :

فلا جزيت بنو العباس خيراً	على رغمي ولا اغتبطت برّي
أتوني مهطعين و قد أتاهاهم	بوار الدهر بالخبر الجلّـي
و قد ذهل الحواضن عن بنيتها	و صدّ الثدي عن فم الصبي
و حلّ عصائب الأملاك منها	فشدّت في رقاب بني علي
فضجت أن تشدّ على رؤوس	تطالبها بميراث النبـي

و كانت أيامه منذ بويج إلى أن استتر؛ سنة و أحد عشر شهراً و أياماً، و دخل المأمون مدينة السلام يوم السبت لثمان عشرة ليلة خلت من صفر سنة ٢٠٤، و أمر بإعادة لبس السواد و تخريق الخضرة بعد ثمانية أيام من قدومه، و لم يزل إبراهيم مستتراً متنقلاً بمدينة السلام إلى أن ظفربه في استتاره ليلة الأحد لثلاث عشرة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة ٢١٠ فعفا عنه المأمون^١. و كان مسير المأمون لبغداد سبباً لاختلاف القوّد على إبراهيم بن المهدي، لأنّ السبب الذي من أجله خلعوا المأمون قد زال فاضطرب أمر إبراهيم ببغداد.^٢

و يتحدّث جلال الدين السيوطي عن هذه البيعة: و في سنة إحدى و مائتين خلع المأمون أخاه المؤتمن من العهد، و جعل وليّ العهد من بعده

^١ - التنبيه و الإشراف بتحقيق الصاوي _ ط القاهرة ص ٣٠٢.

^٢ - الدولة العباسية ص ١٥٩.

عليّ الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، حمله على ذلك إفراطه في التشيع حتّى قيل : إنّهم أنّ يخلع نفسه و يفوض الأمر إليه، و هو الذي لقّبهُ: الرضا، و ضرب الدراهم باسمه، و زوّجه ابنته، و كتب إلى الآفاق بذلك.^١

و يتحدّث ابن الأثير عن أحداث سنة ٢٠١ هـ بالقول: «في هذه السنة جعل المأمون عليّ بن موسى الرضا بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام وليّ عهد المسلمين و الخليفة من بعده، و لقّبهُ: الرضا من آل محمّد عليه السلام، و أمر جنده بطرح السواد و لبس الثياب الخضرة، و كتب بذلك إلى الآفاق. و كتب الحسن بن سهل إلى عيسى بن محمّد بن أبي خالد بعد عوده إلى بغداد يعلمه أنّ المأمون قد جعل عليّ بن موسى الرضا وليّ عهده من بعده. و ذلك أنّه نظر في بني العباس و بني عليّ فلم يجد أحداً أفضل و لا أروع و لا أعلم منه. و أنّه سمّاه: الرضا من آل محمّد عليه السلام، و أمره بطرح السواد و لبس الخضرة، و ذلك لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة إحدى و مائتين، و أمر محمّداً أن يأمر من عنده من أصحابه و الجند و القوّد و بني هاشم بالبيعة له و لبس الخضرة، و يأخذ أهل بغداد جميعاً بذلك، فدعاهم محمّد إلى ذلك فأجاب بعضهم و امتنع بعضهم. و قال : لا تخرج الخلافة من ولد العباس، و إنّما هذا من الفضل بن سهل، فمكثوا كذلك أيّاماً و تكلم بعضهم و قالوا : نوّلي بعضنا و نخلع المأمون، فكان أشدّهم فيه منصور و إبراهيم ابنا المهدي».^٢ و يتحدّث العصفري عن سنة إحدى و مائتين بالقول: «فيها بايع المأمون لعلّي بن موسى بن جعفر بالخلافة من بعده و خلع القاسم

^١ - تاريخ الخلفاء ص ٢٤٦.

^٢ - الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥ : ٤٣١.

بن هارون أمير المؤمنين و أمر بالسواد فألقي و لبست الخضرة. و فيها أخرج الحسن بن سهل من بغداد و بويع إبراهيم بن المهدي و أمه شكلة ببغداد ، و أخذت له الكوفة و عامّة السواد سنة اثنتين و مائتين : فيها خرج أمير المؤمنين المأمون من خراسان يريد بغداد، و فيها قتل الفضل بن سهل بسرخس في شعبان. فقتل أمير المؤمنين عليّ بن أبي سعيد و موسى بن عمران و عبد العزيز بن عمران أتهمهم بقتل الفضل بن سهل...

سنة ثلاث و مائتين : فيها مات الرضا عليّ بن موسى بن جعفر يوم السبت آخر يوم من صفر، و قدم المأمون بغداد يوم الأحد في شهر رمضان^١.

و قال الطبري متحدّثاً عن سنة إحدى و مائتين: «و في هذه السنة جعل المأمون عليّ بن موسى بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن حسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام وليّ عهد المسلمين و الخليفة من بعده، و سمّاه: الرضا من آل محمد عليه السلام، و أمر جنده بطرح السواد و لبس ثياب الخضرة، و كتب بذلك إلى الآفاق»^٢.

و قال ابن خلدون يصف هذه البيعة و نهايتها: «أفلا ترى إلى المأمون لما عهد إلى عليّ بن موسى بن جعفر الصادق و سمّاه: الرضا كيف أنكرت العبّاسيّة ذلك، و نقضوا بيعته و بايعوا لعنه إبراهيم بن المهدي، و ظهر من الهرج و الخلاف و انقطاع السبل و تعدّد الثوار و الخوارج ما كاد أن يصطلم الأمر حتّى بادر المأمون من خراسان إلى بغداد و ردّ

١- تاريخ خليفة بن خياط ص ٣٨٧.

٢- تاريخ الطبري ٨ : ٥٥٤.

أمرهم لمعاهده»^١.

ويقول كارل بروكلمان: «و في سنة ٨١٧ م دعا البغداديون المنصور ابن الخليفة المهدي إلى تولي السلطة...ثم يقول وحسب المأمون غير شاك أن في استطاعته اكتساب عطف العراقيين إذا عقد لعلي بن موسى الرضا على ابنته وسمّاه ولياً للعهد والواقع أنه أقدم على هذا الصنيع في آذار سنة ٨١٧ م بإشارة من وزيره الفضل بن سهل»^٢.

و يصف الدكتور حسن إبراهيم حسن بيعة الرضا عليه السلام بالقول: «قد أثار مبايعة علي الرضا بولاية العهد غضب العباسيين، فنادوا بخلع المأمون وبايعوا إبراهيم بن المهدي بالخلافة، و لقبوه: المبارك فتصدى لهم الحسن بن سهل واليه علي العراق، غير أنه عجز عن إخماد هذه الفتنة، وظل إبراهيم بن المهدي خليفة ببغداد مدة ستين. و لما علم المأمون بما وصلت إليه الحال في بغداد من الاضطراب، عول على الرحيل إليها. وبينما كان في طريقه إلى المدينة دسّ لوزيره الفضل بن سهل من قتله، فتفرّق عنه أنصاره. و لما وصل إلى طوس حدثت حادثة أخرى، هي وفاة علي الرضا عليه السلام. و قد اتهم المأمون بقتله تقريباً إلى العباسيين»^٣.

فالمحصل من أخبار المؤرخين أنهم لم يقفوا على حقيقة البيعة للرضا عليه السلام و قوفاً واعياً و محللاً لملازمات الأمر و ظروف الدولة، و ما كان يعاينه المأمون من وضع عسير، كما أنهم لم يستقرّوا على سبب نهاية الإمام الرضا عليه السلام، هل كانت بتدبير من المأمون أم لا، ولكنهم تفهّموا عملية اغتيال الفضل و وضعوا لها من العلل و الأسباب بما يناسب نهايته

^١ - تاريخ ابن خلدون ١: ٢٢٣، دار الكتب العلميّة - بيروت.

^٢ - تاريخ الشعوب الإسلامية: ١٩٨.

^٣ - تاريخ الإسلام السياسي و الديني و الثقافي و الاجتماعي ٢: ٧١.

و دسائسه. و أفضل نصّ تاريخي وجدناه عن المأمون ما نقله ابن كثير الدمشقي فقال : كتب رجل رقعة إلى المتوكّل يقول : يا أمير المؤمنين، إنّ أحمد^١ يشتم آباءك و يرميهم بالزندقة. فكتب فيها المتوكّل : أمّا المأمون فإنّه خلط فسلط الناس على نفسه، و أمّا أبي المعتصم فإنّه كان رجل حرب و لم يكن له بصر بالكلام، و أمّا أخي الواثق فإنّه استحقّ ما قيل فيه^٢، فالمأمون أساساً شخص مضطرب قلق متغيّر الرأي، و يتّخذ قراراته وفقاً لسياساته و أوضاعه، و لم تكن تعنيه الاعتبارات التي يذكرها المؤرّخون من أنّ معرفته بحقّ الرضا عليه السلام و كونه أجدر الخلق بالخلافة، أو أنّه نذر و عاهد الله أن يضع هذا الأمر في موضعه الذي وضعه الله عزّ وجلّ فيه^٣ و ما إلى ذلك.

كلّ هذا، و كأنّه غاب عن المؤرّخين، بأنّ السلاطين و الحكّام حين يصلون إلى كرسيّ الحكومة و السلطة كأنّهم دخلوا جنّات الله و نعيمه، فكيف يمكنهم أن يتركوا جنتهم بهذه السهولة؟! و المأمون واحد من هؤلاء الحكّام و السلاطين الذين فعلوا ما فعلوا لكي ينالوا بغيتهم، فيسلّمون هذا الأمر بهذه البساطة و بشكل سلمي و وديع و بلاضجّة و لا إراقة دماء، و هو بالأمس هيّج الهياج و أراق الدماء و حاصر بغداد و أجاعها و وضعها تحت نيران قائده طاهر بن الحسين الذي ذبح أخاه كما يذبح الكباش، و في سلسلة حروب و معارك وصفها ابن كثير بالقول: فتفرّق على الأمين شمله، و حار في أمره، و جاء طاهر بن الحسين بجيوشه فنزل على باب الأنبار يوم الثلاثاء لثنتي عشرة ليلة خلت من ذي

١- المراد هو أحمد بن حنبل المتوفّى ٢٤٠ هـ، و كان جواب المتوكّل بخصوص فتنة خلق القرآن التي لم يكن أحمد يقول بها خلافاً للمأمون و المعتصم و الواثق.

٢- البداية و النهاية ١٠: ٣٧٤.

٣- ينظر بحار الأنوار ٤٩: ١٣٧ و ١٣٨ و ١٤٥.

الحجة، و اشتدّ الحال على أهل البلد و أخاف الدُّعَارُ^١ و الشُّطَارُ^٢ أهل الصلاح، و خربت الديار، و ثارت الفتنة بين الناس، حتّى قاتل الأخ أخاه للأهواء المختلفة و الابن أباه، و جرت شرور عظيمة و اختلفت الأهواء و كثر الفساد و القتل داخل البلد، و كلّ هذا جعل صورة المأمون في نظر المؤرّخين صورة الحاكم الدامي و المتهالك و المتفاني من أجل السلطة. و هذه النفس و الشهوة العارمة للحكم و السلطة تدفع الداعي لها إلى التشنّب و الإمساك بأهداب السلطة إلى آخر لحظة من عمره، و لذا لا يمكن تصديق من يرى أنّ المأمون تنازل عنها قربة إلى الله و نبّه ﷺ والمسلمين الصالحين من عباده.

^١ - الدّعار: الفساد و الشرّ، اللسان (دعر).

^٢ - الشطارة: من قولهم شطر عن أهله شطوراً و شطورة و مشطارة، إذا نزح عنهم و تركهم مراغماً أو مخالفاً و أعيامهم خبيثاً. و الشاطر مأخوذ منه. اللسان (شطّر).

^٣ - البداية و النهاية ١٠: ٢٥٨ في أحداث سنة ست و تسعين و مائة.

صورة العهد الذي كتبه المأمون للرضا عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب كتبه عبدالله بن هارون الرشيد أمير المؤمنين لعلي بن موسى بن جعفر وليّ عهده.

أما بعد فإنّ الله عزّ وجلّ اصطفى الإسلام ديناً، واصطفى له من عباده رسلاً دالّين وهادين إليه، يبشّر أولهم بآخرهم، ويصدقّ تاليهم ماضيهم، حتّى انتهت نبوة الله إلى محمّد عليه السلام على فترة من الرسل، ودروس من العلم، وانقطاع من الوحي، واقتراب من الساعة، فختم الله به النبيّن وجعله شاهداً لهم ومهيماً عليهم، وأنزل عليه كتابه العزيز ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^١ بما أحلّ وحرّم، و وعد و أوعد، وحذّر وأنذر، وأمر به ونهى عنه، ليكون له الحجة البالغة على خلقه، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^٢ فبلّغ عن الله رسالته، ودعا إلى سبيله بما أمره به

١- فصلت : ٤٢.

٢- الأنفال : ٤٢.

من الحكمة و الموعظة الحسنة، و بالمجادلة^١ بالتي هي أحسن، ثمّ بالجهد و الغلظة حتّى قبضه الله إليه و اختار له ما عنده، فلمّا انقضت النبوة و ختم الله بمحمد ﷺ الوحي و الرسالة جعل قوام الدين و نظام أمر المسلمين بالخلافة و إتمامها و عزّها و القيام بحقّ الله تعالى فيها بالطاعة، التي بها تقام فرائض الله و حدوده، و شرائع الإسلام و سننه، و يجاهد بها عدوّه. فعلى خلفاء الله طاعته فيما است حفظهم و استرعاهم من دينه و عبادته، و على المسلمين طاعة خلفائهم و معاونتهم على إقامة حق الله و عدله، و أمن السبيل و حقن الدماء، و صلاح ذات البين، و جمع الألفة، و في خلاف ذلك اضطراب حبل المسلمين و اختلالهم، و اختلاف ملّتهم، و قهر دينهم، و استعلاء عدوّهم، و تفرّق الكلمة، و خسران الدنيا و الآخرة.

فحقّ الله على من استخلفه الله في أرضه، و ائتمنه على خلقه، أن يجهد لله نفسه و يؤثر ما فيه رضى الله و طاعته و يعتدّ لما الله موافقه^٢ عليه و مسائله عنه، و يحكم بالحقّ، و يعمل بالعدل فيما حمّله الله و قلّده، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول لنبيّه داود عليه السلام: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.^٣ و قال الله عزّ وجلّ: «فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ»^٤ و بلغنا أنّ عمر بن الخطّاب قال: لو ضاعت سخلة بشاطيء الفرات

^١ - في كشف الغمّة: و المجادلة.

^٢ - الموافقة هنا بمعنى الوقوف يوم الحساب.

^٣ - ص: ٢٦.

^٤ - الحجر: ٩٢.

لتخوّفت أن يسألني الله عنها، و ايم الله، إنّ المسؤول عن خاصّة نفسه الموقوف على عمله فيما بين الله و بينه، ليعرض على أمر كبير و على خطر عظيم فكيف بالمسؤول عن رعاية الأمة و بالله الثقة، و إليه المفزع و الرغبة، في التوفيق و العصمة و التسديد و الهداية إلى ما فيه ثبوت الحجة و الفوز من الله بالرضوان و الرحمة.

و أنظر الأئمة لنفسه و أنصحهم لله في دينه و عباده من خلائقه في أرضه، من عمل بطاعة الله و كتابه و سنة نبيّه صلى الله عليه وآله في مدة أيامه و بعدها، و أجهد رأيه و نظره فيمن يوكّيه عهده، و يختاره لإمامة المسلمين و رعايتهم بعده، و ينصبه علماً لهم و مفزعاً في جمع ألفتهم، و لمّ شعّتهم و حقن دمائهم و الأمن بإذن الله من فرقتهم، و فساد ذات بينهم و اختلافهم، و رفع نزغ الشيطان و كيده عنهم، فإنّ الله عزّ و جلّ جعل العهد بعد الخلافة من تمام أمر الإسلام و كماله و عزّه و صلاح أهله، و ألهم خلفاءه من توكيده لمن يختارونه له من بعدهم ما عظمت به النعمة، و شملت فيه العافية، و نقض الله بذلك مكر أهل الشقاق و العداوة و السعي في الفرقة، و التربّص للفتنة.

و لم يزل أمير المؤمنين منذ أفضت إليه الخلافة، فاختبر بشاعة مذاقها، و ثقل محملها، و شدّة مؤونتها، و ما يجب على من تقلّدها من ارتباط طاعة الله، و مراقبته فيما حمّله منها فأنصب بدنه، و أسهر عينه، و أطال فكره، فيما فيه عزّ الدين، و قمع المشركين، و صلاح الأئمة، و نشر العدل، و إقامة الكتاب و السنّة، و منعه ذلك من الخفض و الدعة بهنيّ العيش، علماً بما الله سائله عنه، و محبة أن يلقي الله مناصحاً له في دينه و عباده، و مختاراً لولاية عهده، و رعاية الأئمة من بعده أفضل من يقدر عليه في دينه و ورعه و علمه، و أرجاهم للقيام في أمر الله و حقّه، مناجياً الله بالاستخارة في ذلك و مسألته إلهامه ما فيه رضاه و طاعته في آناء ليله

ونهاره، معملاً في طلبه و التماسه في أهل بيته من ولد عبد الله بن العباس و علي بن أبي طالب - فكره و نظره، مقتصراً لمن ' علم حاله ومذهبه منهم على علمه، و بالغاً في المسألة عمن خفي عليه أمره جهده و طاقته. حتى استقصى أمورهم معرفة، و ابتلى أخبارهم مشاهدة، و استبرأ أحوالهم معاينة، و كشف ما عندهم مساءلة، فكانت خيرته بعد استخارته لله و إجهاده نفسه في قضاء حقّه في عبادته و بلاده في البيتين جميعاً - علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب لما رأى من فضله البارِع، و علمه النافع،^١ و ورعه الظاهر، و زهده الخالص، و تخليه من الدنيا، و تسلّمه من الناس. و قد استبان له ما لم تزل الأخبار عليه متواطئة، و الألسن عليه متّفقة، و الكلمة فيه جامعة، و لما لم يزل يعرفه به من الفضل يافعاً و ناشئاً، و حدثاً و مكتهاً فقد له بالعقد و الخلافة من بعده، واثقاً بخيرة الله في ذلك، إذ علم الله أنّه فعله إيثاراً لله و للدين، و نظراً للإسلام و المسلمين، و طلباً للسلامة و ثبات الحجة،^٢ و النجاة في اليوم الذي يقوم الناس فيه لربّ العالمين.

و دعا أمير المؤمنين ولده و أهل بيته و خاصّته و قوّاده و خدمه فبايعوا مسارعين مسرورين عالمين بإيثار أمير المؤمنين طاعة الله على الهوى في ولده، و غيرهم ممّن هو أشبك منه رحماً و أقرب قرابة، و سمّاه: الرضا إذ كان رضىً عند أمير المؤمنين، فبايعوا معشر أهل بيت أمير المؤمنين، و من بالمدينة المحروسة، من قوّاده و جنده و عامّة المسلمين لأمر المؤمنين، و للرضا^٣ من بعده علي بن موسى على اسم

^١ - في البحار : ممّن. و في صبح الأعشى : فيمن.

^٢ - في كشف الغمّة، و في صبح الأعشى : الناصع.

^٣ - في الكشف الغمّة: الحقّ.

^٤ - في حاشية كشف الغمّة: و في هامش نسخة هكذا: كتب عند تسميته بالرضا: رضى الله عنك وأرضاك و أحسن في الدارين جزاك. و في أخرى هكذا: كتب تحت ذكر اسمه عليه السلام بقلعه الشريف: وصلتك رحم

الله و بركته، و حسن قضائه لدينه و عبادته، بيعة مبسوطة إليها أيديكم، منشوحة لها صدوركم، عالمين بما أراد أمير المؤمنين بها، و أثر طاعة الله، و النظر لنفسه، و لكم فيها شاكرين لله على ما ألهم أمير المؤمنين من قضاء حقّه في رعايتكم، و حرصه على رشدكم و صلاحكم، راجين عائدة ذلك في جمع ألفتكم، و حقن دمائكم، و لمّ شعثكم، و سدّ ثغوركم، و قوة دينكم، و وقم^١ عدوكم، و استقامة أموركم، و سارعوا إلى طاعة الله و طاعة أمير المؤمنين فإنّه الأمن إن سارعتم إليه، و حمدتم الله عليه، و عرفتم الحظّ فيه إن شاء الله تعالى.

و كتب بيده في يوم الاثنين لسبع^٢ خلون من شهر رمضان سنة إحدى و مائتين.^٣

صورة ما كان على ظهر العهد بخط الرضا عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الفعّال لما يشاء لامعقّب لحكمه، ولا رادّ لقضائه، يعلم خائنة

وجزيت خيراً. و في ثالثة كتب بقلمه الشريف تحت الثناء عليه : أثنى الله عليك فأجمل و أجزل لديك الثواب فأكمل. كشف الغمّة : ٢ : ٣٣٦.

١- في كشف الغمّة، و في صبح الأعشى : و رغم. و الوقم مصدر و قمته أقمه و قما، إذا رددته ردّاً قبيحاً. ترتيب جمهرة اللغة ٣ : ٦١٠ (و قم).

٢- في كشف الغمّة : بسيع.

٣- بحار الأنوار ١٤٨: ٤٩ عن كشف الغمّة للأربلي ٢ : ٣٣٣، و ذكر العهد القلقشندي في صبح الأعشى ٩: ٣٨٠، و في مآثر الإنافة ٢: ٣٢٥ ط دار الكتب، و ذكر في آخره أنّ الفضل بن سهل هو الذي كتب شهادة الشهود. وجاء في حاشية كشف الغمّة : و في هامش نسخة مصححة هكذا : قال العبد الفقير إلى الله تعالى: الفضل بن يحيى الطيبي عفا الله عنه : قابلت المکتوب الذي كتبه الإمام عليّ بن موسى الرضا صلوات الله عليه و عليّ آبائه الطاهرين بأصله الذي كتبه الإمام المذكور عليه السلام بيده الشريفة حرفاً فحرفاً و ألحقت ما فات منه و ذكرت أنّه من خطّه عليه السلام و ذلك في يوم الثلاثاء مستهلّ المحرم من سنة تسع و تسعين و ستمائة الهلالية بواسط و الحمد لله على ذلك و له المنة. كشف الغمّة ٢ : ٣٣٨.

الأعين وما تخفي الصدور، وصلى الله على نبيه محمد خاتم النبيين وآله الطاهرين.

أقول وأنا علي بن موسى بن جعفر: إن أمير المؤمنين عضده الله بالسداد ووقفه للرشاد، عرف من حقنا ما جهله غيره، فوصل أرحاماً قطعت، و آمن نفوساً فزعت، بل أحياءها وقد تلفت، وأغناها إذ افتقرت، مبتغياً رضى رب العالمين لا يريد جزاءً من غيره، وسيجزى الله الشاكرين ولا يضيع أجر المحسنين. وإنه جعل إلي عهداً، والإمرة الكبرى إن بقيت بعده، فمن حل عقدة أمر الله بشدها وقصم عروة أحب الله إيثاقها فقد أباح حريمه، وأحل محرّمه، إذ كان بذلك زارياً على الإمام، متتهكاً حرمة الإسلام بذلك جرى السالف، فصبر منه على الفلتات، ولم يعترض بعدها على العزمات خوفاً على شتات الدين، واضطراب جبل المسلمين، ولقرب أمر الجاهلية، ورصد فرصة تنتهز وباقعة تبتدر. وقد جعلت لله على نفسي إن استرعاني أمر المسلمين، وقلدني خلافته، العمل فيهم عامة وفي بني العباس بن عبد المطلب خاصة بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وآله، وأن لا أسفك دماً حراماً، ولا أبيع فرجاً ولا مالاً إلا ما سفكته حدود الله، وأباحته فرائضه، وأن أتخير الكفاة جهدي وطاقتي، وجعلت بذلك على نفسي عهداً مؤكداً يسألني الله عنه فإنه عز وجل يقول: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾^١، وإن أحدثت أو غيرت أو بدلت كنت للغير مستحقاً، وللنكال متعرضاً، أعوذ بالله من سخطه و إليه أرغب في التوفيق لطاعته، والحوال بيني وبين معصيته في عافية لي وللمسلمين.

والجامعة والجفر يدلان على ضد ذلك، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم، إن الحكم إلا لله يقضي بالحق وهو خير الفاصلين. لكنني امتثلت أمر أمير

المؤمنين، وآثرت رضاه، والله يعصمني وإياه، وأشهدت الله على نفسي بذلك، وكفى بالله شهيدا^١.

توقيع الرضا عليه السلام و صورة الشهادة على العهد

وكتبت بخطي بحضرة أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، والفضل بن سهل، وسهل بن الفضل، ويحيى بن أكتم، وعبدالله بن طاهر، وثمامة بن أشرس، وبشر بن المعتمر^٢، وحماد بن النعمان^٣ في شهر رمضان سنة إحدى ومائتين.

الشهود على الجانب الأيمن : شهد يحيى بن أكتم^٤ على مضمون هذا المكتوب ظهره وبطنه، وهو يسأل الله أن يعرف أمير المؤمنين وكافة المسلمين ببركة^٥ هذا العهد والميثاق وكتب بخطه في التاريخ المبين فيه. عبدالله بن طاهر بن الحسين أثبت شهادته فيه بتاريخه. شهد حماد بن النعمان بمضمونه ظهره وبطنه، وكتب بيده في تاريخه. بشر بن المعتمر يشهد بذلك.

الشهود على الجانب الأيسر : رسم أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قراءة هذه الصحيفة التي هي صحيفة الميثاق نرجو أن نجوز^٦ بها الصراط،

١- بحار الأنوار ٤٩: ١٥٢ عن كشف الغمّة للأربلي ٢: ٣٣٧.

٢- هو بشر بن المعتمر الهلالي البغدادي أبو سهل فقيه معتزلي تنسب إليه الطائفة البشيرية توفي ٢١٠ هـ - أعلام الزركلي ٥٥: ٢.

٣- هو حماد بن أبي حنيفة ثقة على أبيه، وهو من طبقة أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني. لسان الميزان لابن حجر ٣٤٦: ٢.

٤- هو يحيى بن أكتم بن محمد بن قطن التميمي قلده المأمون القضاء وعزله المعتصم بعده، وعزله المتوكل وقبض أملاكه سنة ٢٤٠ هـ و توفي ٢٤٢ هـ، وفيات الأعيان ١٩٧: ٥ و تاريخ بغداد ١٤: ١٩١.

٥- خ ل : بركة.

٦- خ ل : يجوز.

ظهرها و بطنها بحرم سيدنا رسول الله ﷺ بين الروضة و المنبر على رؤوس الأشهاد بمراى و مسمع من وجوه بني هاشم و سائر الأولياء و الأحفاد،^١ بعد استيفاء شروط البيعة عليه بما أوجب أمير المؤمنين الحجة به على جميع المسلمين، و لتبطل الشبهة التي كانت اعترضت آراء الجاهلين، و ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾.^٢ و كتب الفضل بن سهل بأمر أمير المؤمنين بالتاريخ فيه.^٣

^١ - في كشف الغمّة : الأجناد.

^٢ - آل عمران : ١٧٩.

^٣ - بحار الأنوار ٤٩ : ١٥٣؛ كشف الغمّة ٢ : ٣٣٧.

كتاب الحباء و الشرط من الرضاء ﷺ إلى العمال في شأن الفضل

اشتهر كتاب الحباء و الشرط الذي طلبه ذوالرئاستين من المأمون و الرضاء ﷺ بصفتها أعلى و أكبر قوة في الدولة، و لأهميّة هذه الوثيقة نقلناها بحسب رواية الصدوق لها، يقول الشيخ الصدوق: «و جدت في بعض الكتب نسخة كتاب الحباء و الشرط من الرضا عليّ بن موسى ﷺ إلى العمال في شأن الفضل بن سهل و أخيه، و لم أرو ذلك عن أحد؛ أمّا بعد، فالحمد لله البديع الرفيع، القادر القاهر الرقيب على عبادته، المقيت على خلقه، الذي خضع كلّ شيء لملكه، و ذلّ كلّ شيء لعزّته، و استسلم كلّ شيء لقدرته، و تواضع كلّ شيء لسلطانه و عظّمته، و أحاط بكلّ شيء علمه، و أحصى عدده، فلا يؤوده كبير، و لا يعزب عنه صغير، الذي لا تدركه أبصار الناظرين، و لا تحيط به صفة الواصفين، له الخلق و الأمر و المثل الأعلى في السماوات و الأرض، و هو العزيز الحكيم.

و الحمد لله الذي شرع الإسلام ديناً، ففضّله و عظّمه و شرفه و كرمه، و جعله الدين القيم الذي لا يقبل غيره، و الصراط المستقيم الذي لا يضلّ من لزمه، و لا يهتدي من صدف عنه، و جعل فيه النور و البرهان و الشفاء و البيان، و بعث به من اصطفى من ملائكته إلى من اجتبى من رسله في الأمم الخالية و القرون الماضية، حتّى انتهت رسالته إلى محمّد

المصطفى عليه السلام فختم به النبيين، و قفى به على آثار المرسلين، و بعثه رحمة للعالمين، و بشيراً للمؤمنين المصدقين، و نذيراً للكافرين المكذبين، لتكون له الحجة البالغة، و ليهلك من هلك عن بينة، و يحيا من حيي عن بينة، و إن الله لسميع عليم.

و الحمد لله الذي أورث أهل بيته موارث النبوة، و استودعهم العلم و الحكمة، و جعلهم معدن الإمامة و الخلافة، و أوجب و لايتهم، و شرف منزلتهم، فأمر رسوله بمساءلة أمتهم مودتهم إذ يقول: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾^١ و ما وصفهم به من إذهابه الرجس عنهم، و تطهيره إياهم في قوله: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾^٢.

ثم إن المأمون برّ رسول الله عليه السلام في عترته و وصل أرحام أهل بيته، فردّ ألفتهم، و جمع فرقتهم، و رأب صدعهم، و رتق فتقهم، و أذهب الله به الضغائن و الإحن بينهم، و أسكن التناصر و التواصل و المودة و المحبة قلوبهم، فأصبحت بيمنه و حفظه و بركته و برّه وصلته أيديهم واحدة، و كلمتهم جامعة، و أهواؤهم متفقة، و رعى الحقوق لأهلها، و وضع الموارث مواضعها، و كافأ إحسان المحسنين، و حفظ بلاء المبليين، و قرب و باعد على الدين، ثم اختص بالفضل و التقديم و التشريف من قدّمته مساعيه، فكان ذلك ذا الرئاسة في الفضل بن سهل، إذ رآه له مؤازراً، و بحقه قائماً، و بحجته ناطقاً، و لنقبائه نقيباً، و لخيلولة قائداً، و لحروبه مدبراً، و لرعيته سائساً و إليه داعياً، و لمن أجاب إلى طاعته مكافئاً،

^١ - الشورى : ٢٣ .

^٢ - الأحزاب : ٣٣ .

ولمن عدل عنه منابذاً^١ و بنصرته متفرداً، و لمرض القلوب و النيات مداوياً. لم ينهه عن ذلك قلة مال و لا عوز رجال، و لم يعمل به طمع، و لم يلفته عن نيته و بصيرته و جل، بل عند ما يهول المهولون، و يرعد ويريق له^٢ المبرقون و المرعدون و كثرة المخالفين و المعاندين من المجاهدين و المختالين، أثبت ما يكون عزيمة و أجراً جناناً، و أنفذ مكيدة، و أحسن تدبيراً، و أقوى في تثبيت حقّ المأمون^٣ و الدعاء إليه، حتّى قصم أنياب الضلالة و فلّ حدّهم، و قلّم أظفارهم، و حصد شوكتهم، و صرعهم مصارع الملحدّين في دينهم، و الناكثين عهده، الوائين^٤ في أمره، المستخفين بحقه الآمنين لما حذر من سطوته وبأسه مع آثار ذي الرئاستين في صنوف الأمم من المشركين، و ما زاد الله به في حدود دار المسلمين، ممّا قد وردت أنباؤها عليكم، و قرئت به الكتب على منابرهم، و حملة أهل الآفاق عليكم إلى غيركم. فانتهى شكر ذي الرئاستين بلاء أمير المؤمنين عنده، و قيامه بحقه، و ابتداله مهجته ومهجة أخيه أبي محمّد الحسن بن سهل الميمون النقيبة، المحمود السياسة، إلى غاية تجاوز فيها الماضين، و فاق بها الفائزين، و انتهت مكافأة أمير المؤمنين إياه إلى ما حصل^٥ له من الأموال و القطايع و الجواهر، و إن كان ذلك لا يفي بيوم من أيامه، و لا بمقام من مقاماته، فتركه زهداً فيه، و ارتفاعاً من همّته عنه، و توفيراً له على المسلمين، و أطراحاً للدنيا،

١- في بحار الأنوار: و لمن عدل عنها مبايناً.

٢- في البحار: به.

٣- في البحار: و أقوى تثبّثاً في حقّ المأمون.

٤- الونى: التفسير في العمل من التعب. ترتيب جمهرة اللغة ٣: ٦١٣ (ونى).

٥- في بحار الأنوار: جعل.

واستصغاراً لها، و إثارةً للآخرة، ومنافسة فيها. و سأل أمير المؤمنين ما لم يزل له سائلاً، و إليه فيه راغباً من التخلّي و الزهد، فعظم ذلك عنده و عندنا لمعرفتنا بما جعل الله عزّ وجلّ في مكانه الذي هو به من العزّ للدين^١ و السلطان و القوة على صلاح المسلمين، و جهاد المشركين، و ما أرى الله به من تصديق نيّته، و يمن نقيبته، و صحّة تدبيره، و قوّة رأيه، و نجح طلبته، و معاونته على الحقّ و الهدى، و البرّ و التقوى.

فلما وثق أمير المؤمنين وثقتنا منه بالنظر للدين و إثارة ما فيه صلاحه، و أعطيناه سؤله الذي يشبه قدره. و كتبنا له كتاب حياء و شرط، قد نسخ في أسفل كتابي هذا، و أشهدنا الله عليه و من حضرنا من أهل بيتنا و القوادر و الصحابة و القضاة و الفقهاء و الخاصّة و العامّة. و رأى أمير المؤمنين الكتاب به إلى الآفاق ليذيع و يشيع في أهلها، و يقرأ على منابرها، و يثبت عند ولائها و قضاتها. فسألني أن أكتب بذلك و أشرح معانيه، و هي على ثلاثة أبواب:

ففي الباب الأوّل: البيان عن كلّ آثاره التي أوجب الله تعالى بها حقّه علينا و على المسلمين. و الباب الثاني: البيان عن مرتبته في إزاحة علّته في كلّ ما دبر و دخل فيه، و ألا سبيل عليه فيما ترك و كره. و ذلك ما ليس لخلق، ممّن في عنقه ببيعة، إلا له وحده و لأخيه. و من إزاحة العلّة تحكيمها في كلّ من بغى عليهما، و سعى بفساد علينا و عليهما و على أوليائنا، لئلا يطمع طامع في خلاف عليهما، و لا معصية لهما، و لا احتيال في مدخل بيننا و بينهما.

و الباب الثالث: البيان عن إعطائنا إيّاه ما أحبّ من ملك التخلّي، و

^١ - في عيون أخبار الرضا: و الدين.

حلية الزهد، و حجة التحقيق، لما سعى فيه من ثواب الآخرة بما يتقرب^١ في قلب من كان شاكاً^٢ في ذلك منه، و ما يلزمنا له من الكرامة و العزّ و الحياء الذي بذلناه له و لأخيه في منعهما ما نمنع منه أنفسنا، و ذلك محيط بكلّ ما يحتاط فيه محتاط في أمر دين و دنيا^٣.

صورة نسخة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب و شرط من عبدالله المأمون أمير المؤمنين و وليّ عهده عليّ ابن موسى الرضا لذي الرئاستين الفضل بن سهل في يوم الاثنين لسبع ليال خلون من شهر رمضان من سنة إحدى و مائتين، و هو اليوم الذي تمّم الله فيه دولة أمير المؤمنين، و عقد لوليّ عهده، و ألبس الناس اللباس الأخضر، و بلغ أمله في إصلاح وليّه و الظفر بعدوّه.

إنّا دعوناك إلى ما فيه بعض مكافأتك على ما قمت به من حقّ الله تبارك و تعالى، و حقّ رسوله صلّى الله عليه و آله، و حقّ أمير المؤمنين و وليّ عهده عليّ ابن موسى، و حقّ هاشم التي بها يرجى صلاح الدين، و سلامة ذات البين بين المسلمين، إلى أن ثبتت النعمة علينا و على العامّة بذلك، و بما عاونت عليه أمير المؤمنين من إقامة الدين و السنّة، و إظهار الدعوة الثانية، و إثارة الأولى مع قمع المشركين،^٤ و كسر الأصنام، و قتل العتاة، و سائر آثارك الممثلة للأمصار في المخلوع^٥. و قابل، و في المسمّى:

^١ - في بحار الأنوار و نسخة : يتقرّر.

^٢ - ليست في بحار الأنوار.

^٣ - عيون أخبار الرضا ٢: ١٥٤؛ بحار الأنوار ٤٩: ١٥٧.

^٤ - في بحار الأنوار و نسخة: الشرك.

^٥ - المخلوع هنا هو الأمين.

بالأصفر المكنّي بأبي السرايا، و في المسمّى بالمهديّ محمد بن جعفر الطالبيّ و الترك الحوليّة،^١ و في طبرستان و ملوكها إلى بندار هرمز بن شروين، و في الديلم و ملكها (مهورس). و في كابل و ملكها هرموس^٢ ثمّ ملكها الأصفيهد،^٣ و في ابن البرم،^٤ و جبال بدار بنده و غرشستان، و الغور و أصنافها، و في خراسان خاقان و ملون صاحب جبل التبت، و في كيما و التغرغر، و في أرمينية و الحجاز و صاحب السرير و صاحب الخزر، و في المغرب و حروبه. و تفسير ذلك في ديوان السيرة. و كان ما دعوناك إليه و هو معونة لك مائة ألف ألف درهم، و غلّة عشرة ألف ألف درهم جوهرأ، سوى ما أقطعك أمير المؤمنين قبل ذلك، و قيمة مائة ألف ألف درهم جوهرأ يسيراً عندنا، ما أنت له مستحقّ، فقد تركت مثل ذلك حين بذله لك المخلوع، و آثرت الله و دينه. و إنك شكرت أمير المؤمنين و وليّ عهده و آثرت توفير ذلك كلّه على المسلمين و جدت لهم به، و سألتنا أن نبغك الخصلة التي لم تنزل إليها تائقاً من الزهد و التخلّي، ليصحّ عند من شكّ في سعيك للأخرة دون الدنيا، و تركك الدنيا، و ما عن مثلك يستغنى في حال، و لا مثلك ردّ عن طلبه،^٥ ولو أخرجتنا طلبتك عن شطر النعيم علينا، فكيف بأمر رفعت فيه المؤونة و أوجبت به الحجّة على من كان يزعم أن دعاءك إلينا للدنيا لا

^١ - في بحار الأنوار : الخزرجية.

^٢ - في بحار الأنوار: المهورزين.

^٣ - في بحار الأنوار: الأصفيهد.

^٤ - في بحار الأنوار: المبرم.

^٥ - في بحار الأنوار: عند ما أنت له.

^٦ - في بحار الأنوار: طلبته.

للآخرة. وقد أجبناك إلى ما سألت به، و جعلنا ذلك لك مؤكداً بعهد الله وميثاقه الذي لا تبدل له ولا تغيير، و فوضنا الأمر في وقت ذلك إليك، فما أقمت فعزیز مزاح العلة مدفوع عنك الدخول فيما تكرهه من الأعمال كائناً ما كان، نمنعك ممّا نمنع منه أنفسنا في الحالات كلّها، و إذا أردت التخلّي فمكرم مزاح البدن، وحقّ لبدنك بالراحة والكرامة. ثمّ نعطيك ممّا تتناوله ممّا بذلناه لك في هذا الكتاب. فتركته اليوم، و جعلنا للحسن بن سهل مثل ما جعلناه لك، فنصف ما بذلناه من العطية و أهل ذلك هو لك. وبما بذل من نفسه في جهاد العتاة وفتح العراق مرتين، و تفريق جموع الشيطان بيده، حتّى قوي الدين و خاض نيران الحروب، و وقانا عذاب السموم بنفسه^١ و أهل بيته و من ساس من أولياء الحقّ، و أشهدنا الله و ملائكته و خيار خلقه و كلّ من أعطانا بيعته و صفقة يمينه في هذا اليوم. و بعده على ما في هذا الكتاب، و جعلنا الله علينا كفيلاً، و أوجبنا على أنفسنا الوفاء لما اشترطنا من غير استثناء بشيء ينقضه في سرّ و لا علانية، و المؤمنون عند شروطهم، و العهد فرض مسؤول، و أولى الناس بالوفاء من طلب من الناس الوفاء، و كان موضعاً للقدره. قال^٢ الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾^٣.

وكتب الحسن بن سهل توقيع المأمون فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

قد أوجب أمير المؤمنين على نفسه جميع ما في هذا الكتاب، وأشهد

^١- في بحار الأنوار: وفاء وشكراً بنفسه، بدل و وقانا عذاب السموم بنفسه.

^٢- في بحار الأنوار: فإن الله تبارك و تعالى يقول.

^٣- النحل: ٩١.

الله تبارك و تعالى و جعله عليه داعياً و كفيلاً. و كتب بخطه في صفر سنة اثنتين و مأتين تشريفاً للحياء و تأكيداً للشرطة.

توقيع الرضا عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

قد ألزم عليّ بن موسى نفسه جميع ما في الكتاب على ما وكد فيه من يومه و غده ما دام حيّاً، و جعل الله عليه راعياً و كفيلاً، و كفى بالله شهيداً. و كتب بخطه في هذا الشهر من هذه السنة و الحمد لله ربّ العالمين و صلّى الله على محمّد و آله و سلّم و حسبنا الله و نعم الوكيل.

بنو العباس كما وصفوا أنفسهم

لقد تباينت رؤية المؤرخين في وصف و دراسه الدولة العباسيّة، كما أنّ الأحداث التي جرت في بطون التاريخ هي الأخرى تباينت عندها الأسباب و الدواعي في تفسيرها و تحليلها، و كما أنّ المؤرخين و الدراسين لم يتفقوا في رسم الصورة التي يمكن أن تقدّم لقارئ التاريخ عن كلّ حاكم أو عصر أو دور مرّت به هذه الدولة التي تضخّمت و امتدّت إلى تخوم أوربا، فلذلك لا يطمئنّ الباحث و القارئ المحايد إلى رسم أيّ صورة أو معلم لهذه الدولة و لأعلامها، و مهما كانت ميول و اتّجاهات الباحثين و المؤرخين، إلا أنّ وثيقة تاريخيّة مهمّة، نقلها الشيخ محمد باقر المجلسي المتوفّى ١١١١هـ في بحار الأنوار، و السيّد ابن طاووس المتوفّى ٦٦٤هـ في كتاب الطرائف عن كتاب: «نديم الفريد» لابن مسكويه المؤرّخ، صوّرت لنا تاريخ بني العباس و حياتهم و أوضاعهم الخاصّة، على لسان واحد منهم هو الخليفة عبدالله المأمون

المتوفى سنة ٢١٨هـ، و كانوا قد كاتبوا المأمون و لاموه على سياسته السلمية تجاه البيت العلوي، و ما كان يقصده من تولية الرضا عليه السلام لخلافة الأمة، و إن كان غير جاذب في هذه الولاية و العهد الذي أمضاه إلا أنهم استأثروا و نعموا و فعلوا ما فعلوا لعزله. و الظاهر أن هذه الوثيقة لها ما يؤيدها من مصادر معتبرة تناقلها المؤرخون.

و يقول صاحب كتاب: «الإمام علي عليه السلام في آراء الخلفاء» في الإشارة إلى هذه الوثيقة: أخرج الحافظ القندوزي و غيره من الحفاظ و المؤرخين، من السنة و الشيعة، حديثاً ذكره ابن مسكويه صاحب التاريخ بحوادث الإسلام في كتاب سمّاه «نديم الفريد» أو: «نديم الأحاب» يقول فيه: لما ولى المأمون العباسي الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ولاية العهد بعد ما دعاه من المدينة إلى خراسان، و بايعه الإمام عليه السلام في ذلك بشرط أن لا يتدخل في شؤون الحكومة من عزل أو نصب أحد و غيره من الأمور، و ضرب المأمون النقود باسم الرضا عليه السلام، احتج بنو العباس على المأمون و كتبوا إليه كتاباً شجبوا فعله و طلبوا منه الجواب، فكتب المأمون إليهم كتاباً شرح فيه مواقف الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام و مناقبه و فضائله، و أحقّيته في الخلافة عن غيره، و دوره في ديمومة الدين، و دفاعه عن النبي صلى الله عليه وآله و ملكاته النفسية و خصائصه العائلية.^١

١- الإمام علي عليه السلام في آراء الخلفاء، للشيخ مهدي فقيه إيماني، ترجمة الشيخ يحيى كمالي البحراني، مؤسسة المعارف الإسلامية قم ص ١٧٩. و ينظر كتاب: يتابع المودة للقندوزي ص ٤٨٤.

صورة نص الكتاب

أما بعد، عرف المأمون كتابكم و تدبير أمركم، و مخض زبدتكم،
وأشرف على قلوب صغيركم و كبيركم، و عرفكم مقبلين و مدبرين، و ما
آل إليه كتابكم في مراوضة الباطل، و صرف وجوه الحق عن مواضعها، و
نبذكم كتاب الله تعالى و الآثار. و كلما جاءكم به الصادق محمد صلى الله عليه وآله
حتى كأنكم من الأمم السالفة التي هلكت بالخسفة و الغرق و الريح و
الصيحة و الصواعق و الرجم ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾
و الذي هو أقرب إلى المأمون من حبل الوريد، لو لا أن يقول قائل : إن
المأمون ترك الجواب عجزاً لما أجبتكم من سوء أخلاقكم، و قلّة
أخطاركم، و ركافة عقولكم، و من سخافة ما تأوون إليه من أرائكم،
فليستمع مستمع فليبلغ شاهد غائباً.

أما بعد، فإن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وآله على فترة من الرسل، و قرش
في أنفسها و أموالها لا يرون أحداً يساميهم و لا يباريهم، فكان نبيناً صلى الله عليه وآله
أميناً من أوسطهم بيتاً، و أقلهم مالاً، و كان أول من آمنت به خديجة بنت
خويلد فواسته بمالها، ثم آمن به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام

ابن سبع سنين، و لم يشرك بالله طرفة عين، و لم يعبد وثناً، و لم يأكل رباً، و لم يشاكل الجاهلية في جهالاتهم، و كانت عمومة رسول الله صلى الله عليه و آله إما مسلم مهين، أو كافر معاند إلا حمزة فإنه لم يمتنع من الإسلام، و لا يمتنع الإسلام منه، فمضى لسبيله على بينة من ربه.

و أما أبو طالب فإنه كفله و رباه، و لم يزل مدافعاً عنه و مانعاً منه، فلما قبض الله أبا طالب فهم القوم و أجمعوا عليه ليقتلوه فهاجر إلى القوم ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِثُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَ نَفْسِهِ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^١ فلم يقم مع رسول الله صلى الله عليه و آله أحد من المهاجرين كقيام علي بن أبي طالب عليه السلام فإنه آزره و وقاه بنفسه، و نام في مضجعه، ثم لم يزل بعد متمسكاً بأطراف الثغور، و ينازل الأبطال، و لا ينكل عن قرن،^٢ و لا يولي عن جيش، منيع القلب، يؤمّر على الجميع و لا يؤمّر عليه أحد، أشدّ الناس و طأةً على المشركين، و أعظمهم جهاداً في الله، و أفقههم في دين الله، و أقرأهم لكتاب الله، و أعرفهم بالحلال و الحرام، و هو صاحب الولاية في حديث غدير خم، و صاحب قوله: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» و صاحب يوم الطائف.^٣

و كان أحبّ الخلق إلى الله تعالى و إلى رسول الله صلى الله عليه و آله، و صاحب الباب فتح له و سدّ أبواب المسجد، و هو صاحب الراية يوم خيبر، و صاحب عمرو بن عبدود في المبارزة، و أخو رسول الله صلى الله عليه و آله حين آخى

١- الحشر: ٩.

٢- القرن: الكفاء و النظر في الشجاعة و الحرب. لسان العرب (قرن).

٣- روى الصادق عليه السلام: أن رسول الله صلى الله عليه و آله ناجى علياً عليه السلام يوم الطائف فقال أصحابه: ناجيت علياً من بيننا و هو أحدثنا سناً؟! فقال عليه السلام: ما أنا أناجيه، بل الله يناجيه. الاختصاص للشيخ المفيد ص ١٩٩.

بين المسلمين. و هو منيع جزيل و هو صاحب آية: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾^١. و هو زوج فاطمة سيدة نساء العالمين و سيدة نساء أهل الجنة، و هو ختن خديجة عليها السلام، و هو ابن عم رسول الله ﷺ رباه و كفله، و هو ابن أبي طالب عليه السلام في نصرته و جهاده، و هو نفس رسول الله ﷺ في يوم المباهلة، و هو الذي لم يكن أبو بكر و عمر ينفذان حكماً حتى يسألانه عنه، فما رأى إنفاذه أنفاذه، و ما لم يره رذاه. و هو دخل من بني هاشم في الشورى^٢. و لعمرى، لو قدر أصحابه على دفعه عنه عليه السلام، كما دفع العباس رضوان الله، و وجدوا إلى ذلك سبيلاً لدفعوه. فأمّا تقديمكم العباس عليه، فإن الله تعالى يقول: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾^٣.

و الله، لو كان ما في أمير المؤمنين من المناقب و الفضائل و الآي المفسرة في القرآن خلّة واحدة في رجل واحد من رجالكم أو غيره، لكان مستأهلاً متأهلاً للخلافة مقدماً على أصحاب رسول الله بتلك الخلّة، ثم لم تزل الأمور تتراقى به إلى أن ولي أمور المسلمين، فلم يعن بأحد من بني هاشم إلا بعبد الله بن عباس تعظيماً لحقه، و صلة لرحمه، و ثقة

١- الإنسان : ٨

٢- لما طعن عمر بن الخطاب جعل الخلافة بعده إلى شورى من ستة أفراد من الصحابة أحدهم علي عليه السلام.

٣- التوبة : ١٩. و السقاية : هي جمع الماء من آبار مكة و حمله على الإبل في المزاد و القرب و سكه في حياض من آدم، توضع في فناء الكعبة، فيرده الحجاج و يشربون منه. و كان قصي قد حفر آباراً عدة لحل أزمة مياه الشرب التي كانت تشكو منها مكة، و كذلك فعل هاشم بن عبد مناف عندما آلت إليه السقاية و الرفادة من بعده، و لم يزل هاشم يقوم بهذه الوظيفة حتى مات فقام بها من بعده ابنه عبدالمطلب الذي حفر بئر زمزم التي أضحت مشرب الحاج. التاريخ السياسي و العسكري للدولة المدينة في عهد الرسول ﷺ لعلي معطي ص ٢٢. و انتقلت سقاية الحجاج إلى العباس بن عبد المطلب من بعده فكانت له السقاية و زمزم. إعلام الورى بأعلام الهدى ص ١٥١.

به، فكان من أمره الذي يغفر الله له، ثم نحن وهم يد واحدة كما زعمتم، حتى قضى الله تعالى بالأمر إلينا فأخفناهم و ضيقنا عليهم و قتلناهم أكثر من قتل بني أمية إياهم. و يحكم ! إن بني أمية إنما قتلوا منهم من سل سيفاً، و إنا معشر بني العباس قتلناهم جملاً، فلتسألن أعظم الهاشمية بأي ذنب قتلت، و لتسألن نفوس ألقيت في دجلة و الفرات، و نفوس دفنت ببغداد و الكوفة أحياء، هيهات إنه من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، و من يعمل مثقال ذرة شراً يره.

و أما ما وصفتم في أمر المخلوع، و ما كان فيه من لبس، فلعمري ما لبس عليه أحد، إذ هويتم عليه النكث، و زينتم له الغدر، و قلتم له: ما عسى أن يكون من أمر أخيك ! و هو رجل مغرب، و معك الأموال و الرجال نبعث إليه فيؤتى به، فكذبتهم و دبّرتهم و نسيتهم قول الله تعالى: «ومن بغى عليه لينصرنه الله»^١.

و أما ما ذكرتم من استبصار المأمون في البيعة لأبي الحسن الرضا عليه السلام، فما بايع له المأمون إلا مستبصراً في أمره، عالماً بأنه لم يبق أحد على ظهرها أبين فضلاً و لا أظهر عفة، و لا أروع ورعاً، و لا أزهد زهداً في الدنيا، و لا أطلق نفساً و لا أرضى في الخاصة والعامة، و لا أشد في ذات الله منه، و إن البيعة له لموافقة رضى الرب عزّ وجلّ، ولقد جهدت، و ما أجد في الله لومة لائم، و لعمري أن لو كانت بيعتي بيعة محاباة، لكان العباس ابني و سائر ولدي أحبّ إلى قلبي، و أجلى في عيني، ولكن أردت أمراً، و أراد الله أمراً، فلم يسبق أمري أمر الله. و أما ما ذكرتم ممّا مسّكم من الجفاء في ولايتي، فلعمري ما كان ذلك إلا منكم بمظافرتكم

١- إشارة إلى قوله تعالى في سورة الحج آية ٦٠: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ﴾.

عليه، و ممايلتكم إياه. فلما قتلته و تفرقتم عباديد؛ فطورا أتباعاً لابن أبي خالد، و طوراً أتباعاً لأعرابي، و طوراً أتباعاً لابن شكلة، ثم لكل من سل سيفاً علي، و لو لا أن شيمتي العفو، و طبيعتي التجاوز، ما تركت على وجهها منكم أحداً، فكلكم حلال الدم محل بنفسه.

و أما ما سألتكم من البيعة للعباس ابني ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾^١ ويلكم ! إن العباس غلام حدث السن و لم يؤنس رشده، و لم يمهل وحده، و لم تحكمه التجارب، تدبره النساء، و تكفله الإماء، ثم لم يتفقه في الدين، و لم يعرف حلالاً من حرام، إلا معرفة لاتأتي به رعية، و لا تقوم به حجة، و لو كان مستأهلاً قد أحكمته التجارب، و تفقه في الدين، و بلغ مبلغ أمير العدل في الزهد في الدنيا و صرف النفس عنها، ما كان له عندي في الخلافة إلا ما كان لرجل من عك و حمير^٢، فلا تكثرُوا في هذا المقال، فإن لسانی لم يزل مخزوناً عن أمور و أنباء، كراهية أن تخنث النفوس عندما تنكشف، علماً بأن الله بالغ أمره، و مظهر قضاؤه يوماً. فإذا أبيتم إلا كشف الغطاء و قشر العطاء، فالرشيد أخبرني عن آبائه، و عما وجد في كتاب الدولة و غيرها: أن السابع من ولد العباس لا تقوم لبني العباس بعده قائمة، و لا تزال النعمة متعلقة عليهم بحياته، فإذا أودعت فودعها، فإذا أودع فودعها، و إذا فقدتم شخصي فاطلبوا لأنفسكم معقلاً، و هيهات ما لكم إلا السيف يأتیکم الحسنی الثائر البائر، فيحصدكم حصداً، أو السفیانی المرغم و القائم المهدي

^١ - البقرة : ٦١.

^٢ - عك : نسبة إلى عك بن عدنان أو عدنان، و حمير نسبة إلى حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب، و هما بطنان من العرب في اليمن. لم يكن لهما حظ كبير في الإسلام. ينظر الأعلام للزركلي ٢٤٣:٤ مجمع البحرين ٢٧٧:٣ (حمر).

يحققن دماءكم إلا بحقّها.

و أمّا ما كنت أردته من البيعة لعليّ بن موسى، بعد استحقاق منه لها في نفسه، و اختيار منّي له، فما كان ذلك منّي إلا أن أكون الحاقن لدمائكم و الذائد عنكم باستدامة المودة بيننا و بينهم، و هي الطريق أسلكها في إكرام آل أبي طالب و مواساتهم في الفئ بيسير ما يصيبهم منه، و إن تزعموا أنّي أردت أن يؤول إليهم عاقبة و منفعة فإنّي في تدبيركم و النظر لكم و لعقبكم و أبنائكم من بعدكم، و أنتم ساهون لاهون، تائهون في غمرة تعمهون، لا تعلمون ما يراد بكم، و ما أظللتم عليه من النعمة، و ابتزاز النعمة، همّة أحدكم أن يمسي مركوباً، و يصبح مخموراً. تباهون بالمعاصي، و تبتهجون بها، و ألّهتكم البرابط 'مخشّون مؤثّنون، لا يتفكّر متفكّر منكم في إصلاح معيشتهم، و لا استدامة نعمة، و لا اصطناع مكرمة، و لا كسب حسنة يمدّ بها عنقه يوم لا ينفع مال و لا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم. أضعتم الصلاة، و اتّبعتم الشهوات، و أكببتم على اللذات عن النعمات، فسوف تلقون غيّا.

وايم الله، لربّما أفكّر في أمركم، فلا أجد أمة من الأمم استحقّوا العذاب حتّى نزل بهم لخلّة من الخلال، إلا أصيب تلك الخلّة بعينها فيكم، مع خلل كثيرة، لم أكن أظنّ أنّ إبليس اهتدى إليها، و لا أمر بالعمل عليها، و قد أخبر الله تعالى في كتابه العزيز عن قوم صالح أنّه كان فيهم تسعة رهط يفسدون في الأرض و لا يصلحون، فأَيّكم ليس معه تسعة و تسعون من المفسدين في الأرض قد اتّخذتموهم شعاراً و دثاراً، استخفافاً بالمعاد، و قلّة يقين بالحساب، و أيّكم له رأي يتّبع، أو رويّة تنفع، فشاهاه الوجوه و عفّرت الخدود.

١- التبريط : ملهاة تشبه العود. أعجمي ليس من ملاهي العرب. لسان العرب (بريط).

و أما ما ذكرتم من العثرة كانت في أبي الحسن عليه السلام نور الله وجهه، فلعمرى، أنها عندي للنهضة والاستقلال الذي أرجو به قطع الصراط و الأمن و النجاة من الخوف يوم الفزع الأكبر، و لا أظن عملت عملاً هو عندي أفضل من ذلك، إلا أن أعود بمثلها إلى مثله، و أين لي بذلك و أتى لكم بتلك السعادة!

و أما قولكم : إني سقّيت آراء آبائكم و أحلام أسلافكم، فكذلك قال مشركو قريش: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾^١ ويلكم ! إن الدين لا يؤخذ إلا من الأنبياء فافقهوا، و ما أراكم تعقلون.

و أما تعييركم إياي بسياسة المجوس إياكم فما أذهبكم الأنفة من ذلك و لو ساستكم القردة و الخنازير ما أردتم إلا أمير المؤمنين. و لعمرى لقد كانوا مجوساً فأسلموا كأبائنا و أمهاتنا في القديم، فهم المجوس الذين أسلموا و أنتم المسلمون الذين ارتدّوا. فمجوسيّ أسلم خير من مسلم ارتدّ، فهم يتناهون عن المنكر، و يأمرّون بالمعروف، و يتقرّبون من الخير و يتباعدون من الشرّ، و يذبّون عن حرم المسلمين، يتباهجون بما نال الشرك و أهله من النكر، و يتباشرون بما نال الإسلام و أهله من الخير، منهم من قضى نحبه و منهم من ينتظر و ما بدّلوا تبديلاً.

و ليس منكم إلا لاعب بنفسه، مأفون^٢ في عقله و تدبيره، إمّا مغنّ أو ضارب دفّ أو زامر. و الله لو أن بني أمية الذين قتلتموهم بالأمس نشروا فليل لهم: لا تأنفوا في معائب تنالونهم بها، لما زادوا على ما صيرتموه لكم شعاراً و دثاراً، و صناعة و أخلاقاً. ليس فيكم إلّا من إذا مسّه الشرّ جزع، و إذا مسّه الخير منع، و لا تأنفون و لا ترجعون إلا خشية، و كيف

^١ - الزخرف : ٢٣.

^٢ - يقال: أفن الرجل. إذا كان ناقص العقل فهو أفين و مأفون. ترتيب جمهرة اللغة ١: ٧١ (أفن).

يأنف من يبيت مركوباً، و يصبح بإثمه معجباً، كأنه قد اكتسب حمداً،
 غايته بطنه و فرجه، لا يبالي أين ينال شهوته بقتل ألف نبيّ مرسل، أو
 ملك مقرب ! أحبّ الناس إليه من زين له معصية، أو أعانه في فاحشة،
 تنظفه المخمورة، و تربده المظمورة، فشئت الأحوال، فإن ارتدعتم ممّا
 أنتم فيه من السيئات و الفضائح و ما تهذرون به من عذاب ألستكم، وإلا
 فدونكم تعلموا^١ بالحديد و لا قوّة إلا بالله و عليه توكلّي و هو حسبي^٢.

^١ - في بحار الأنوار: تعلوا.

^٢ - الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف ص ٢٧٦؛ بحار الأنوار ٢٠٨: ٤٩.

العباسيون والتشيع

ليس من الإنصاف تجريد العباسيين من أحاسيس و رؤى صادقة أحيانا تخالجهم، أو قول حقّ ربّما ينسب إليهم، أو موقف فيه غرابة تصدر عنهم، فهم كبشر و ملوك كانوا في محنة مع زمنهم و ابتلوا بمواجهة مع حركات التمرد و الانشقاق و التأمر عليهم و التي كانت تهدّد نظام الدولة و أمنها، فعاشوا بين صراع الملك و مسؤولياته و شهوته أو مغرياته، و بين و مضات الحقّ التي تومض في ضمائرهم و طوايا أنفسهم، فهم بين هذا و ذاك تمكّن المأمون، و هو واحد منهم، من رسم صورة تقريبية عنهم في الوثيقة المذكورة في الفصل الأنف الذكر، و هذه الوثيقة لا تمثّل صورة بني العباس الذين كان يزيد عددهم، في سنة ٢٠١هـ، عن ثلاثة و ثلاثين ألفاً^١ و إنّما تمثّل الوثيقة التيار الماجن و الجاحد للحقّ منهم. و بالجملة يستطيع الباحث أن يكتشف في الوثيقة المذكورة الوضع المتردّي الذي كان عليه صبيان بني العباس و السفهاء منهم، و الذين توزّعتهم الشهوات و تقسّمتهم الشبهات، فهم بين تافه حقير لا يملك إربه، و بين معاند جاحد لا يريد أن يرعوي أو يرتدع، فلا

١- مآثر الإنافة في معالم الخلافة للقلقشندي ١: ٢١٢.

نعمة الله يشكروها، و لا عاقبة يرجوها، خدعتهم الدنيا الغدّارة و استبدّت بهم نزواتها فأنستهم أرحامهم و بني عمومتهم، و استعبدهم الشيطان بالأباطيل و الأغاني و الأماني، و زَيّن لهم الطغيان و العدوان، على أنفسهم و أرحامهم قبل عدوّهم، و إن كانت الوثيقة تصوّرهم تصويراً مجملًا.

كما أنّ الباحث يجد تشييع المأمون الخارجي الذي يلامس جوارحه الخارجية من غير أن ينفذ في جوارحه الداخلية. و قد ينتهي تشييع المأمون و يقف عند حدود دولته و سلطته، فإذا تعارض الفكر العلويّ مع إرادة الحاكم العبّاسي هنا يغيب هذا الفكر و يذهب بعيداً عنهم، وكذا كانوا مع أيّ شيء يتعارض و يتصادم مع بلاطهم فهنا يضربوه عرض الحائط. و يؤكّد المأمون تشييعه للخاصّة و العامّة فيروى أنّه قال لقومه: أتدرون من علّمني التشييع؟ فقال القوم: لا و الله ما نعلم ذلك. قال: علّمني الرشد، قيل له: و كيف ذلك و الرشد يقتل أهل البيت!

قال: كان الرشد يقتلهم على الملك، لأنّ الملك عقيم، ثمّ قال: إنّ دخل موسى بن جعفر عليه السلام على الرشد يوماً فقام إليه و استقبله و أجلسه في الصدر و قعد بين يديه، و جرى بينهما أشياء ثمّ قال موسى بن جعفر عليه السلام لأبي: يا أمير المؤمنين، إنّ الله عزّ وجلّ قد فرض على الولاة عهده؛ أن ينعشوا فقراء هذه الأمّة، و يقضوا عن الغارمين، و يؤدّوا عن المثقل، و يكسوا العاري، و يحسنوا إلى العاني،^١ و أنت أولى من يفعل ذلك. فقال الرشد: أفعل يا أبا الحسن. ثمّ قام فقام الرشد لقيامه، و قبل عينيه و وجهه ثمّ أقبل عليّ و على الأمين و المؤتمن فقال: يا عبدالله، و يا محمّد، و يا إبراهيم، امشوا بين يدي ابن عمّكم و سيّدكم، خذوا

١- العاني: الأسير: و العاني: العبد، و العاني السائل. لسان العرب (عنا).

بركابه و سوّوا عليه ثيابه و شيعوه إلى منزله، فأقبل إليّ أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام سرّاً بيني و بينه فبشّرني بالخلافة، و قال لي : إذا ملكت هذا الأمر فأحسن إلى ولدي، ثم انصرفنا و كنت أجراً ولد أبي عليه.

فلما خلا المجلس قلت : يا أمير المؤمنين، و من هذا الرجل الذي أعظمته و أجلّته و قمت من مجلسك إليه فاستقبلته و أقعدته في صدر المجلس و جلست دونه، ثم أمرتنا بأخذ الركاب له؟ قال الرشيد : هذا إمام الناس و حجّة الله على خلقه، و خليفته على عبادّه. فقلت : يا أمير المؤمنين، أو ليست هذه الصفات كلّها لك و فيك؟ فقال : أنا إمام الجماعة في الظاهر بالغلبة و القهر، و موسى بن جعفر إمام حقّ، و الله، يا بني إنّه لأحقّ بمقام رسول الله منّي و من الخلق جميعاً، و والله، لو نازعتني في هذا الأمر لأخذت الذي فيه عينك، لأن الملك عقيم.

فلما أراد الرحيل من المدينة إلى مكّة أمر بصرة سوداء فيها مائتا دينار ثمّ أقبل على الفضل فقال له : اذهب إلى موسى بن جعفر و قل له : يقول لك أمير المؤمنين : نحن في ضيقة و سيأتيك برّنا بعد هذا الوقت. فقامت في وجهه فقلت : يا أمير المؤمنين، تعطي أبناء المهاجرين و الأنصار و سائر قريش و بني هاشم و من لا تعرف حسبه و نسبه : خمسة آلاف دينار إلى ما دونها و تعطي موسى بن جعفر و قد عظّمته و أجلّته مائتي دينار، و أحسن عطية أعطيتها أحداً من الناس؟!!

فقال الرشيد : اسكت لا أمّ لك، فإنّي لو أعطيته هذا ما ضمّنته له، ما كنت آمنه أن يضرب وجهي غداً بمائة ألف سيف من شيعته و مواليه، و فقر هذا و أهل بيته أسلم لي و لكم من بسط أيديهم و إغنائهم.

و ينسب أيضا إلى الرشيد أنه قد جرى ذكر آل أبي طالب عنده فقال : يتوهم عليّ العوام أنني أبغض عليّاً عليه السلام و ولده، والله، ما ذلك كما يظنونهم، و أن الله يعلم شدة حبيّ لعليّ عليه السلام و الحسن و الحسين عليهما السلام و معرفتي بفضلهم.^١ و في خبر آخر أنه قال في عليّ عليه السلام : و والله ما أحبّ أحداً حبيّ له، ولكن هؤلاء — أي أولاد عليّ عليه السلام — أشدّ الناس بغضاً لنا و طعناً علينا و سعيّاً في فساد ملكنا بعد أخذنا بشأهم، و مساهمتنا إيّاهم ما حوينا، حتى أنّهم لأميل إلى بني أمية منهم إلينا، فأما ولده لصلبه فهم سادة الأهل و السابقون إلى الفضل.^٢

و يروي السيّد عبد الكريم بن طاووس بسنده عن محمد بن زكريّا قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن عائشة قال : حدثني عبد الله بن حازم قال: خرجنا يوماً مع الرشيد من الكوفة نتصيد فصرنا إلى ناحية الغريين و الثوية فرأينا طباءً فأرسلنا عليها الصقورة و الكلاب فحاولتها ساعة، ثمّ لجأت الطباء إلى أكمة فسقطت عليها فسقطت الصقورة ناحية و رجعت الكلاب، فتعجّب الرشيد من ذلك، ثمّ إنّ الطباء هبطت من الأكمة فسقطت الصقورة و الكلاب فرجعت الطباء إلى الأكمة فتراجعت عنها الكلاب و الصقورة، ففعلت ذلك ثلاثاً فقال هارون : اركضوا فمن لقيتموه فأتوني به، فأتيناه بشيخ من بني أسد، فقال هارون : ما هذه الأكمة؟ قال : إن جعلت لي الأمان أخبرتك، قال : لك عهد الله و ميثاقه ألا أهيجك و لا أؤذيك، قال : حدثني أبي عن أبيه أنّهم كانوا يقولون : هذه الأكمة قبر عليّ بن أبي طالب عليه السلام، جعله الله حرماً لا يأوي إليه أحد إلا أمن، فنزل هارون و دعا بماء فتوضأ فصلّى عند الأكمة و تمرغ عليها فجعل يبكي

^١ - بحار الأنوار ٣٧ : ٩٤ و ج ٤٩ : ٣٠١.

^٢ - تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٣٥.

ثم انصرفنا، فقال عبدالله بن محمد بن عائشة : فكأن قلبي لم يقبل ذلك، فلما كان بعد ذلك حججت إلى مكة فرأيت فيها ياسر الجمال جمال - الرشيد - و كان يجلس معنا إذا طفنا، فجرى الحديث إلى أن قال: قال لي الرشيد ليلة من الليالي، و قد قدمنا من مكة فنزل الكوفة فقال : يا ياسر، قل لعيسى بن جعفر فليركب فركبا جميعاً و ركبت معهما، حتى إذا صرنا إلى الغريين، فأما عيسى فطرح نفسه فنام، و أما الرشيد فجاء إلى أكمة فصلّى عندها، فلما صلى ركعتين دعا و بكى و تمرغ على الأكمة، ثم جعل يقول : يا بن عمّ، أنا - و الله - أعرف فضلك و سابقتك، و بك - و الله - جلست مجلسي الذي أنا به، و أنت أنت، ولكن ولدك يؤذونني و يخرجون عليّ. ثم يقوم فيصلّي و يعيد الكلام و يدعو ويبكي، حتى إذا كان وقت السحر قال : يا ياسر، أقم عيسى، فأقمته فقال: يا عيسى، قم فصلّ عند قبر ابن عمك، قال له : أيّ عمومتي هذا؟ قال: هذا قبر عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فتوضأ و قام يصلّي، فلم يزل كذلك حتى الفجر، فقلت : يا أمير المؤمنين، أدركك الصبح فركبا و رجعا إلى الكوفة.

قال ابن طاووس : و ذكر صفيّ الدين محمد بن معد رحمه الله نحو هذا المتن في رواية رآها في بعض الكتب الحديثية قديمة و أسنده بما صورته: قال محمد بن سهل : قال حدثنا عبيدالله بن محمد بن عائشة قال : حدثني عبدالله بن حازم بن خزيمة قال : خرجنا مع الرشيد من الكوفة نصيّد فصرنا إلى ناحية الغريين و الثوية^١ و ذكر نحو المتن، فلما وصل إلى آخره زاد فيه بعد قوله : و رجعنا إلى الكوفة، ثم إن أمير

^١ - الثوية، بضم التاء و فتح الواو و تشديد الباء و يقال: بفتح التاء و كسر الواو : موضع بالكوفة. قيل: كانت سجنًا للنعمان بن المنذر كان يحبس به من أراد قتله. مراد الاطلاع ١: ٣٠٢.

المؤمنين خرج إلى الرقة و أنا معه فقال لي : يا ياسر، تذكر ليلة الغريين؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين، قال : أتدري قبر من ذاك؟ قلت : لا، قال : قبر علي بن أبي طالب عليه السلام. فقلت : يا أمير المؤمنين، تفعل هذا بقبره و تحبس أولاده؟! فقال : ويلك، إنهم يؤذونني و يخرجونني إلى ما أفعل بهم، انظر من في الحبس منهم، فأحصينا من في الحبس ببغداد و الرقة فكانوا مقدار خمسين رجلاً، فقال : ادفع إلى كل رجل ألف درهم و ثلاثة أثواب و أطلق جميع من في الحبس منهم . قال ياسر : ففعلت ذلك فمالي عند الله حسنة أكثر منها.

و في آخر الخبر: أن الرشيد أمر أن يبني عليه - أي القبر - قبة فبنيت من طين أحمر و طرح على رأسها حبرة^١ خضراء، و هي في الخزانة إلى اليوم.^٢

فالذي يبدو لنا من هذا الخبر و غيره أن الرشيد، و من وافقه من بني العباس، في هذه المواقف كان حسن الاعتقاد، ولكنه كان سيء السيرة، يعتقد و يؤمن بقلبه، ولكنه يقتل و يسجن بيده، يعيش في دوامة من الأحاسيس المضطربة، فمرة تصفو نفسه و تشرق بومضة خير علوية، و مرة تتقد بنيران الغضب الشيطانية الشريرة التي تعصف به و تجعله يستبد و يتجبر بملكه و سلطانه الزائل الذي أسكره. و على العموم يمكن القول: بأن الرشيد يعتقد بالأئمة المعصومين عليهم السلام و بمنزلتهم و كلامهم و يصدق بما لديهم من العلوم حتى أنه اعتبر ما قال موسى بن جعفر عليه السلام في ولديه الأمين و المأمون أمراً مفروغاً منه، لأنه كان يرى بأن الأئمة المعصومين ما ينطقون باطلاً و لا يجري إلا الصدق على ألسنتهم، و

^١ - الحبرة بكسر الحاء أو فتحها : ضرب من برود اليمن منقر. لسان العرب (حبر).

^٢ - فرحة الغري في تعيين قبر أمير المؤمنين علي عليه السلام ص ١١٩.

يظهر هذا من حديثه مع الكسائي الذي كان يؤدّب الأمين و المأمون عند ما قال له : كَأَنَّكَ بهما و قد حَمَّ القضاء، و نزلت مقادير السماء، و بلغ الكتاب أجله، فقد تَشَتَّتْ كلمتهما، و اختلف أمرهما، و ظهر تعاديهما، ثم لم يبرح ذلك بهما حتّى تسفك الدماء و تقتل القتلى، و تهتك ستور النساء، و يتمنى الكثير من الأحياء أنّهم في عداد الموتى، قلت : أَيْكون ذلك يا أمير المؤمنين لأمر رؤية في أصل مولدهما، أو لأثر وقع لأمر المؤمنين في مولدهما؟ فقال الرشيد : لا والله إلا بأثر واجب حملته العلماء عن الأوصياء عن الأنبياء. فكان المأمون يقول : قد كان الرشيد سمع جميع ماجرى بيننا من موسى بن جعفر بن محمد^١.

و نحوه روي عن الأصمعي قال : دخلت على الرشيد و كنت غبت عنه حولين بالبصرة فأوماً إليّ بالجلوس قريباً منه، فجلست قليلاً ثم نهضت فأوماً إليّ أن أجلس فجلست حتّى خفّ الناس ثم قال لي : يا أصمعي، ألا تحبّ أن ترى محمداً و عبدالله؟ قلت : بلى يا أمير المؤمنين، إنّي لأحبّ ذلك، و ما أردت القيام إلا إليهما لأسلم عليهما، قال : تكفى. ثم قال : عليّ بمحمد و عبدالله فانطلق الرسول و قال : أجييا أمير المؤمنين، فأقبلا كأنهما قمرا أفق، قد قاربا خطاهما، و ضربا ببصرهما الأرض حتّى وقفا على أبيهما فسلمّا عليه بالخلافة، و أوماً إليهما فدنيا منه، فأجلس محمداً عن يمينه و عبدالله عن شماله، ثم أمرني بمطارتتهما فكنت لا ألقى عليهما شيئاً من فنون الأدب إلا أجابا فيه و أصابا. فقال : كيف ترى أدبهما؟ قلت : يا أمير المؤمنين، ما رأيت مثلهما في ذكائهما و جودة ذهنهما، فأطال الله بقاءهما، و رزق الأمة من

^١ - محمد جاسم الحديثي: وصايا الخلفاء و الأمراء السياسيّة و الإداريّة في العصر العبّاسي الأوّل، منشوات المجمع العلمي بغداد ص ١٧٢.

رأفتهما و معطفتهما. فضمّهما إلى صدره و سبقته عبرته حتّى تحدّرت دموعه ثمّ أذن لهما، حتّى إذا نهضا و خرجا قال : كيف بكم إذا ظهر تعاديهما و بدا تباغضهما، و وقع بأسهما بينهما حتّى تسفك الدماء، و يؤدّ كثير من الأحياء أنّهم كانوا موتى؟ فقلت : يا أمير المؤمنين، هذا شيء قضى به المنجّمون عند مولدهما، أو شيء أثرته العلماء في أمرهما؟ قال: بل شيء أثرته العلماء عن الأوصياء عن الأنبياء في أمرهما. فكان المأمون يقول في خلافته : قد كان الرشيد سمع جميع ما جرى بيننا من موسى بن جعفر فلذلك قال ما قال.^١

و إضافة إلى ما كان يظهره المأمون من تفضيل عليّ عليه السلام و تقديمه في كلّ الأمور و والذبّ عنه، و الدفاع عن مقولات الشيعة فإنّه كان يحرص على حضور جنازات العلويّين، مثل: يحيى بن الحسين بن زيد الذي صلّى عليه بنفسه، و رأى الناس عليه من الحزن و الكآبة ما تعجّبوا منه، على حين أرسل أخاه صالحاً لينوب عنه في جنازة أحد العبّاسيّين الأقرباء، و قد مات بعد يحيى بقليل، فلمّا عزّى صالح أمّ المتوفّى، و هي زينب بنت سليمان بن عليّ بن عبد الله بن العبّاس، ابنة عمّ الخليفة المنصور، و كانت لها عند العبّاسيّين هيبة و منزلة عظيمة، و اعتذر عن تخلّفه عن الصلاة عليه، ظهر غضبها و قالت لحفيدها : تقدّم فصلّ على أبيك، و تمثّلت بقول الشاعر :

سبكناه و نحسبه لجينا فأبدى الكير عن خبث الحديد

ثمّ قالت لصالح : قل له : يا بن مراجل، أما لو كان يحيى بن الحسن ابن زيد لوضعت ذيلك على فيك و عدوت خلف جنازته.^٢

^١ - الأخبار الطوال للدينوري ص ٣٨٨.

^٢ - محمّد بيومي مهران: الإمامة وأهل البيت ٣: ١١٣.

و لم يكن المأمون وحده أو الرشيد و غيره من قبله يرون أفضليّة لعليّ عليه السلام و ينتحلون بعض الرؤى و الأفكار التي يقولها الشيعة، بل هناك من الاتجاهات و التيارات المحدودة بينهم و بين أتباعهم أبصرت بعض الحقيقة، فلم تخلو قصور بني العباس و لا بلاطاتهم من متشيع و مستبصر يرى رأي العلويين في أنّ الإمامة و الوصيّة كانت لعليّ عليه السلام و كذلك للحسن و الحسين عليه السلام و لأولاده المعصومين من بعده، و كانوا يخفون ذلك إلا أنهم قد يبوحدون ذلك في أوضاع و أسباب لا يسع أن نفصل فيها. فمما يروى من هذه المواقف: أنّ القاسم بن مجاشع التميمي المروزي لما حضرته الوفاة أوصى إلى المهديّ العباسي : فكتب ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ ﴾ الآية. ثمّ كتب : و القاسم يشهد بذلك و يشهد أنّ محمداً عبده و رسوله، و أنّ عليّ بن أبي طالب وصيّ رسول الله و وارث الإمامة من بعده. فعرضت الوصيّة على المهديّ بعد موته، فلمّا بلغ إلى هذا الموضع رمى بها و لم ينظر فيها^١ ولكنه كان في قرار نفسه يعتقد بهذا إلا أنّه كان يكابر و يتجبر.

و يحكى: أنّ صاحب عمورية - من ملوك الروم - كانت عنده شريفة من ولد فاطمة عليها السلام مأسورة في خلافة المعتصم بن الرشيد فعذبها فصاحت الشريفة: وا معتصماه! فقال لها الملك : لا يأتي لخلاصك إلا على أبلق، فبلغ ذلك المعتصم فنادى في عسكره بركوب الخيل البلق ، وخرج وفي مقدّمة عسكره أربعة آلاف أبلق و أتى عمورية و فتحها و خلّص الشريفة و قال : اشهدي لي عند جدك أنّي أتيت لخلاصك، وفي

^١ - آل عمران : ١٨.

^٢ - الكامل في التاريخ : ٥ : ٢٦١.

مقدمة عسكري أربعة آلاف أبلق.^١ فنجد هنا الخليفة العباسي يحترم هذه المرأة، و يأنف لهذه العلوية النسب، و يقوم بقيادة جيش استجابة لصرختها، و مهما كان الدافع الذي دفعه فهو له مسجل كموقف رائع وعظيم من خليفة عباسي.

و ممن كان يعرف بالتشيع و الهداية علي بن يقطين الذي كان وزيراً لهارون الرشيد، إلا أنه استأذن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في ترك العمل للسلطان العباسي فلم يأذن له الإمام عليه السلام و قال له : عسى أن يجبر الله بك كسراً، و يكسر بك نائرة المخالفين، و أمره بالتقية. و قال له عليه السلام أيضاً: كفارة أعمالكم الإحسان إلى إخوانكم. فكان لا يأتيه و لى من أولياء الشيعة إلا أكرمه، و ضمن له الإمام عليه السلام ثلاث خصال: أن لا يصيبه حر الحديد بقتل، و لا فاقة، و لا سجن حبس.^٢ فمن هنا يبدو أن التشيع كان قوياً و ساحراً فلا يمكن لأي جهة أو شخص أن تقف بوجه الموجات العارمة و العاتية من موجات التشيع التي تتوكد و تنبثق في بحار الإيمان الصادق الذي يقذف به الله في قلوب من يشاء من عباده، لأن التشيع هو الإسلام. و بلغ من قوة التشيع و امتداده الواسع أن دخل إلى بيوت الأمراء و قصور الخلفاء، و المأمون العباسي الذي شهد هذا الموج و الدفق العارم لهذا التيار هو الذي دفعه إلى كشف هذه الحقيقة فقال :
إنني تعلمت التشيع من الرشيد.^٣

و قد بشر الكاظم عليه السلام المأمون العباسي باعتلائه كرسي الحكم

١- مآثر الإنافة في معالم الخلافة للقلقشندي ٢: ٢٢٦.

٢- ينظر بحار الأنوار ٤٨: ١٣٦ و ١٠٨ و ج ٧٥: ٣٥٠.

٣- بحار الأنوار ٤٨: ١٢٩؛ عيون أخبار الرضا ١: ٨٨ ح ١١.

فأوصاه بذريته قائلاً له : إذا ملكت فأحسن إلى ولدي^١، إلا أنه لم يعمل بهذه الوصية ففسدها و ضرب الزمان على أذنه و لم يفق من غفلته، ولكنه كان يذهب إلى تقطيع الإيمان و الاعتقاد الديني، و خصوصاً ببعض المعتقدات الشيعية، و يرى العمل بالفقه الإمامي في بعض الأحكام، فهو انتقائي في اعتقاده و عمله، أو مقلد تجزيئي، فقد ذهب إلى القول بخلق القرآن، و هذا القول و الاعتقاد لربما يقترب من الاعتقاد الشيعي قليلاً والذي يرى بأن القرآن حادث غير مخلوق، و كما يروى عن الصادق عليه السلام قوله : كلام الله محدث غير مخلوق، و غير أزلّي، من الله تعالى ذكره، و تعالى عن ذلك علواً كبيراً، كان الله عزّ وجلّ و لا شيء غير الله معروف و لا مجهول، كان الله عزّ وجلّ و لا متكلم و لا مريد، و لا متحرك و لا فاعل، فجميع هذه الصفات محدثة غير حدوث الفعل منه، و القرآن كلام غير مخلوق، فيه خبر من كان قبلكم، و خبر ما يكون بعدكم، أنزل من عند الله على محمد ﷺ^٢.

و كان المأمون قد كتب إلى عمّاله لامتحان القضاة و المحدثين في سنة ثمان و عشرة و مائتين. و كان أول كتاب كتبه إلى اسحاق بن إبراهيم جاء فيه: فاجمع من بحضرتك من القضاة، و اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون و تكشفهم عما يعتقدون في خلق الله القرآن و إحداثه^٣.

فهذا الاعتقاد الذي تبناه المأمون نصفه موجود لدى الشيعة، و كما في حديث الصادق عليه السلام، إلّا أنّ النصف الآخر من الاعتقاد يعود إلى جهة

^١- بحار الأنوار ٤٨: ١٣١؛ عيون أخبار الرضا ١: ٩١.

^٢- بحار الأنوار ١١٨٨٩ باب أنّ القرآن مخلوق.

^٣- تاريخ الطبري ٦٣٣٨.

أخرى تلقاها المأمون من روافد و نوافذ فتحها على نفسه من رأي أو مدرسة أو أستاذ أو فلسفة شاعت في عصره. ولكن في أخريات حكمه و عمره صدق مع نفسه و مع ربّه حين أوصى بأن يكبر على جنازته خمس تكبيرات^١ اعتقاداً منه بصواب الفقه الشيعي وكان أهل السنّة و الجماعة أسقطوا التكبيرة الخامسة^٢ في الصلاة على الميت. و كما كان يفعل سائر الخلفاء. و الأصل في هذا التكليف هي خمس تكبيرات مأخوذة من فرض الصلوات الخمس، لكلّ فريضة تكبيرة واحدة^٣، فأبصر المأمون هذه الحقيقة و أوصى بها. و مع كلّ هذا، فإنّ المأمون كان يفهم للمحة والإشارة، فالمأمون عالم يدرك خفايا الأمور و يستطيع قراءة ما وراء السطور، و يفهم من حديثه مع إبراهيم بن المهدي العبّاسي الذي حدّثه قائلاً: رأيت عليّاً عليه السلام في النوم فمشيت معه حتّى جئنا قنطرة، فذهب يتقدّمني لعبورها فأمسكته و قلت له : إنّما أنت رجل تدّعي هذا الأمر بامرأة و نحن أحقّ به منك ! فما رأيته بليغا في الجواب، قال : و أيّ شيء قال لك؟ قال: مازادني على أن قال : سلاما سلاما، فقال المأمون: قد - والله - أجابك أبلغ جواب، قال : كيف؟ قال : عرّفك أنّك جاهل لانتجاب، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^٤ و لعلّ المأمون فهم هذه الإشارات لأنّه كان حافظاً للقرآن الكريم كما يروى.^٥

لماذا قتلوا الرضا عليه السلام

١- ينظر البداية و النهاية لابن كثير الدمشقي ٣٠٧:١٠.

٢- المغني لابن قدامة ٣٦٦:٢ _ ط دار الفكر.

٣- المقنعة للشيخ المفيد ص ٢٢٧ _ ط جماعة المدرّسين في قم.

٤- الفرقان ٦٣: بحار الأنوار ٨٦:٣٩ المناقب لابن شهر آشوب ٢٧٠:٣.

٥- ينظر تاريخ الخلفاء للسيوطي بتحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد ص ٣١٥.

كان الرضا عليه السلام يكثر وعظ المأمون إذا خلا به و يخوفه بالله و يقبح ما يرتكبه من خلاف، فكان المأمون يظهر قبول ذلك منه و يبطن كراهته و استتقاله. و دخل الرضا عليه السلام يوماً فراه يتوضأ للصلاة و الغلام يصبّ على يده الماء فقال عليه السلام: لا تشرك يا أمير المؤمنين بعبادة ربك أحداً، فصرف المأمون الغلام و تولى تمام وضوئه بنفسه، و زاد ذلك في غيظه و وجده. و كان الرضا عليه السلام يزري على الفضل و الحسن ابني سهل عند المأمون إذا ذكرهما و يصف له مساوئهما و ينهائهما عن الإصغاء لهما^١.

فصل الباحث من هذا الخبر و غيره أن جهاز الدولة المتمثل بالوزير و المستشار و الحاكم نفسه، و هو المأمون، لم يكونوا مستعدين لقبول الحكم الديني السماوي الذي مثله الإمام الرضا عليه السلام بصفته الخليفة الديني و المعين من قبل النبي ﷺ لخلافة الأمة، و المأمون يرى نفسه بقوة و جبروته و سلطانه كأن كل شيء تحت سيطرته بما في ذلك خليفة الله، و من هنا فالتصادم بين الإمام المعصوم و سلاطين الدنيا لا بد منه، و لم يكن الإمام راغباً في هذا، و إنما ماهية العصمة و الطهارة التي نشأ بها الرضا عليه السلام لا تنسجم بعمومها مع هؤلاء السلاطين الذين جعلوا الحكم و السلطة غاية و منتهى لآمالهم، و كأنها - أي السلطة - الجنة الموعودة التي يسعى لها كل إنسان مسلم و غير مسلم، في حين أن تنشأة الرضا عليه السلام و موقعه في دائرة العصمة لا تمكّنه تمكّناً قهرياً من أن ينخدع و ينجذب لمظاهر الملوكية و الذاتية المفرطة التي تتعالى على الناس و كأنهم في ملكوتهم و حكومتهم خلقوا من طينة أفضل من بقية البشر، في حين أن الأئمة عليه السلام و كما كان جدّهم لا يرى أفضلية للأسود على الأبيض، و لا لعربي على أعجمي، و لا للسيد و عبده، و كان

١- الإرشاد للشيخ المفيد ٢: ٢٦٠.

الرضا عليه السلام تجسيدا للعدل و المساواة الإلهية بين الناس، فالسلطة و الحكومة عنده وسيلة إلى مبادئ و قيم و مثل، أما السلطة و الحكومة لذا تها فليست غاية و هدفا له عليه السلام.

و إنما المهم و الغاية عند الرضا عليه السلام الرسالة و المبادئ التي يحملها من أجداده عليه السلام، فيرى القدرة و القوة و السلطة و الحكومة وسيلة و أداة لإيصال هذه الرسالة و تطبيقها، أو على الأقل الإعلان عن هذه الرسالة و إبلاغها. لقد كان عليه السلام مثقلاً بالمبادئ و القيم، فلا يستطيع التخلي عنها، أو وضعها جانباً فينغمس في شهوات السلطة و الحكم فينسجم مع رغبات المأمون و مع وزرائه و قاداته، فهم يمارسون دور الحاكم المستبد الذي أغرته الحكومة و السلطة السياسية المجردة من المبادئ و الأعراف السماوية، و هو عليه السلام يريد أن يقيّد السلطة بإطار الدين و الأخلاق و المبادئ، فلا تعني هذه الدنيا لديه شيئاً إن لم ينل المظلوم حقه و يسعد بها أبناءها، أليس جدّ المأمون عبدالله بن العباس حين دخل على علي عليه السلام جدّ الرضا عليه السلام سأله علي عليه السلام عن قيمة نعله الذي كان يخصفه، فقال له ابن عباس: لا قيمة لها، فقال علي عليه السلام: و الله، لهي أحب إليّ من إمرتكم، إلا أن أقيم حقاً، أو أدفع باطلاً^١. فورث الرضا عليه السلام هذا النفس و الفكر العظيم و الحسن الإنساني، فهو يرى نفسه حاكماً إلهياً و مأموراً سماوياً لكي يحقق العدل الإلهي، و يمسح دموع المعذبين و الفقراء و المظلومين في الأرض.

و قد قال الرضا عليه السلام لواحد من أصحابه: «لو آل الامر إلى ما تقول، و أنت منّي كما أنت، ما كانت نفقتك إلّا في كمك و كنت كواحد من

١- نهج البلاغة ص ٧٦ خطبة رقم ٣٣، و كأنه عليه السلام كان يلمح من وراء الغيب إلى إمارة أولاده في الأزمنة اللاحقة.

الناس» فهكذا يفهم الرضا عليه السلام الحكم و السلطة، فهي خدمة و عدالة و رحمة للرعية، و ليست وسيلة للثراء و إشباع المنافع الخاصة و رغبات الأصحاب و الأحبة. و قد مارس الرضا عليه السلام في حياته القصيرة التي أمضاها كولي عهد للخليفة العباسي دور الحاكم العادل الناصح مستهدياً بسيرة جدّه علي عليه السلام الذي ضاقت نفوسهم من عدله و قسطه، فانبروا لتنظيم المؤامرات و الدسائس لقتله، و تنحيته عن مقامه الذي وضعه الله فيه، فعليّ هذا كعليّ ذاك لم تكن تملأ نفسه الرئاسة أو ملاذ طعام أو شراب أو فراش وثير. و الكلّ لديه سواء لا فرق بينهم.

فلم تكن لديه أحاسيس طبقية أو علوية أو مشاعر تراتبية، فالجميع لديه متساوون لا يفرق بين أبناء آدم، و من هنا روى الصدوق عنه أنّه عليه السلام كان إذا جلس على المائدة لا يدع صغيراً و لا كبيراً حتّى السائس و الحجام، إلا أقعده على المائدة.^٢

و هذا من أكثر أسباب العداوة التي اشتعلت في قلب المأمون و حاشيته من كبار رجال الدولة، بما في ذلك ابني سهل، فهم يحكمون بصفتهم سادة و كبراء، و كأنّ هيبة الملك و السلطان لا تتحقّق إلا بالترفع و وضع الدرجات و السلالم الاجتماعية و الطبقة داخل قصورهم و خارجها، في حين أنّ هذا لا يعني لديه عليه السلام شيئاً بل يملأه غيظاً و حنقاً، أن يرى الناس يتعالى بعضهم على بعض. و هم - سلاطين الدنيا - فيكرهون تواضعه عليه السلام و حبه للفقراء و الضعفاء، فتلاقت إراداتهم الشريرة مع ما كان في دواخله من أحزان هذه الدنيا الظالمة التي أراد أن يفارقها و يلتحق بركب الشهداء و الصالحين، و زادته آلاماً و لايته التي

^١ - قال المجلسي : و هذا كناية عن قلة نفقته بحيث يقدر أن يحملها معه في كفه. بحار الأنوار ٤٩: ١٧١.

^٢ - عيون أخبار الرضا ٢: ١٥٩ ح ٢٤، بحار الأنوار ٤٩: ١٦٤ و ج ٣٥: ٦٦.

فرضها عليه المأمون.

و كانت معاناة الرضا عليه السلام و ما يقاسيه من ولايته التي أجبر عليها تسحق قلبه عليه السلام و تجعله يئنّ و يتوجّع و كأنه يسير في جادة الموت و الهلاك، و يروي الشيخ الصدوق عن ياسر الخادم بأن الرضا عليه السلام كان إذا رجع يوم الجمعة من الجامع و قد أصابه العرق و الغبار رفع يديه و قال : اللهم، إن كان فرجي ممّا أنا فيه بالموت فعجل لي الساعة، و لم يزل مغموماً مكروباً إلى أن قبض صلوات الله عليه.^١

و بالتالي تحقّق له عليه السلام ذلك بقاء الله حيث كانت إرادة المأمون بقتله عليه السلام تلتقي مع إرادته و رغبته في أن ينفذ يديه من غبار و متاع هذه السلطة و الدنيا الفانية. فكان لهم ما أرادوا و أراد هو عليه السلام ذلك، لتكتب شهادته عليه السلام.

و يتحدث أحمد بن عليّ الأنصاريّ عن سبب شهادته عليه السلام فقال : سألت أبا الصلت الهروي - و كان هذا من أصحابه عليه السلام - فقلت : كيف طابت نفس المأمون بقتل الرضا عليه السلام مع إكرامه ومحبّته إلى الرضا عليه السلام و ما جعل له من ولاية العهد بعده؟ فقال : إنّ المأمون إنما كان يكرمه ويحبّه لمعرفته بفضلّه، و جعل له ولاية العهد من بعده ليري الناس أنّه راغب في الدنيا فيسقط محلّه من نفوسهم، فلمّا لم يظهر منه في ذلك للناس إلا ما ازداد به فضلاً عندهم و محلاً في نفوسهم جلب عليه المتكلّمين من البلدان طمعاً من أن يقطع واحد منهم فيسقط محلّه عند العلماء، و بسببهم يشتهر نقصه عند العامة. فكان لا يكلمه خصم من اليهود و النصاريّ و المجوس و الصابئين و البراهمة و الملحدين والدهرية، و لا خصم من فرق المسلمين المخالفين له، إلا قطعه وألزمه

^١ - عيون أخبار الرضا ١٥:٢ ضمن حديث ٣٤.

الحجة، و كان الناس يقولون : والله، إنه أولى بالخلافة من المأمون، فكان أصحاب الأخبار يرفعون ذلك إليه فيغتاظ من ذلك و يشتد حسده، و كان الرضا عليه السلام لا يحابي المأمون من حق، و كان يجيبه بما يكره في أكثر أحواله فيغيظه ذلك، و يحقد عليه و لا يظهر له، فلما أعيته الحيلة في أمره اغتاله فقتله بالسم، ليختم ثامن حجة و إمام نصبه الله لخلقه في بقعة مباركة صارت معلماً و رمزاً و مزاراً للعباد، فسلام عليه يوم ولد و يوم مات و يوم يبعث حياً. والحمد لله رب العالمين و صلاته و سلامه على نبينا محمد و على آله إلى قيام يوم الدين.

١- عيون أخبار الرضا ٢: ٢٣٩، بحار الأنوار ٤٩: ٢٩٠.

مصادر ومراجع الكتاب

- ١- الإتحاف بحب الأشراف، الشيخ عبد الله بن محمد بن عامر الشيراوي المتوفى ١١٧١ هـ، المطبعة الأدبية بمصر.
- ٢- الاحتجاج على أهل اللجاج، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي من أعلام القرن السادس الهجري، بتعليق السيد محمد باقر الموسوي الخراسان، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات بيروت - ط الثانية ١٤٠٣ هـ.
- ٣- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، علي بن محمد حبيب الماوردي الشافعي المتوفى ٤٥٠ هـ، منشورات مكتب الإعلام الإسلامي - ط الثانية ١٤٠٦ هـ.
- ٤- الأخبار الطوال، أبوحنيفة أحمد بن داود الدينوري المتوفى ٢٨٢ هـ، بتحقيق عبدالمنعم عامر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي مصر، افسيت الرضي قم ١٤١٢.
- ٥- الاختصاص، أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي الملقّب بالشيخ المفيد المتوفى ٤١٣ هـ، بتحقيق علي أكبر غفاري، منشورات مكتبة الزهراء، قم ١٤٠٢ هـ.
- ٦- اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) أبو جعفر محمد بن الحسن الطبرسي المتوفى ٤٦٠ هـ، بتحقيق حسن المصطفوي، نشر كلية الإلهيات مشهد (دانشكده إلهيات ومعارف إسلامي) - ط الأولى ١٣٤٨ هـ. ش.
- ٧- الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان المفيد المتوفى ٤١٣ هـ، ترجمة وشرح السيّد هاشم الرسولي المحلاتي،

- انتشارات علمية إسلامية طهران، وط أخرى منشورات بصيرتي قم.
- ٨- أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري المتوفى ٤٦٨ هـ، دار الكتب العلمية بيروت.
- ٩- أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام، أبو جعفر محمد بن حبيب البغدادي المتوفى ٢٤٥ هـ، بتحقيق سيد كسروي حسن، منشورات محمد علي بيضون بيروت - ط الأولى ١٤٢٢ هـ .
- ١٠- الأصول والفروع من الكافي، محمد بن يعقوب الكليني المتوفى ٣٢٩ هـ، دار الكتب الإسلامية طهران ١٣٨٨ هـ .
- ١١- الأعلام، خير الدين الزركلي المتوفى ١٣٩٦ هـ، دار العلم للملايين بيروت - ط السابعة ١٩٨٦ م.
- ١٢- إعلام الوري بأعلام الهدى، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، من إعلام القرن السادس الهجري، صححه علي أكبر الغفاري، نشر دار المعرفة بيروت ١٣٩٩ هـ .
- ١٣- أعلام الهداية، المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام - ط الثانية ١٤٢٥ هـ .
- ١٤- الإمام علي عليه السلام في آراء الخلفاء، الشيخ مهدي فقيه إيماني، ترجمة الشيخ يحيى كمالي البحراني، مؤسسة المعارف الإسلامية قم ١٤٢٠ هـ .
- ١٥- الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، أسد حيدر، دار الكتاب العربي بيروت - ط الثالثة ١٤٠٣ هـ .
- ١٦- الإمامة وأهل البيت، الدكتور محمد بيومي مهران، مركز الغدير للدراسات الإسلامية - ط الثانية ١٤١٥ هـ .
- ١٧- الأمالي والمجالس، الشيخ محمد بن علي بن بابويه القمي المتوفى ٣٨١ هـ، منشورات الأعلمي بيروت ١٤٠٠ هـ .
- ١٨- إيلاف قريش، رحلة الشتاء والصيف، فكتور سخاب، المركز الثقافي العربي بيروت ١٩٩٢ م.
- ١٩- البداية والنهاية، الحافظ إسماعيل بن كثير الدمشقي المتوفى ٧٧٤ هـ، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي - ط الأولى ١٤٠٨ هـ .

- ٢٠- بحار الأنوار الجامعة، لدرر أخبار الأئمة الأطهار، محمد باقر المجلسي المتوفى ١١١١ هـ ، مؤسسة الوفاء بيروت و ط دارالكتب الإسلامية طهران.
- ٢١- البلدان وفتوحها وأحكامها، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري المتوفى ٢٧٩، تحقيق الدكتور سهيل زكار، دارالفكر بيروت ١٩٩٢ م.
- ٢٢- البيعة ونظام الحكم في الإسلام، علي أمين جابر آل صفا، الدار الإسلامية بيروت - ط الأولى ١٤٢٣ هـ .
- ٢٣- تأويل مشكل القرآن، محمد بن مسلم بن قتيبة المتوفى ٢٧٦ هـ . تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث القاهرة.
- ٢٤- تاريخ الإسلام وفيات المشاهير و الأعلام، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى ٧٤٨ هـ، بتحقيق الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي بيروت - ط الأولى ١٤٢٤ هـ .
- ٢٥- تاريخ الإسلام السياسي و الاجتماعي و الثقافي، الدكتور حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية - ط السابعة ١٩٦٤، افسيت دار إحياء التراث العربي بيروت.
- ٢٦- تاريخ خليفة بن خياط العصفري المتوفى ٢٤٠ هـ، بتحقيق سهيل زكار، دار الفكر بيروت - ط الأولى ١٩٩٣ م.
- ٢٧- تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، ترجمة نبيه أمين فارس و منير البعلبكي، دار العلم للملايين بيروت - ط السادسة ١٩٧٤ م.
- ٢٨- تاريخ العقيدة الشيعية و فرقها، الميرزا فضل الله بن ميرزا نصرالله المعروف شيخ الإسلام الزنجاني المتوفى ١٣٧٣ هـ، بتحقيق غلام علي بور يعقوبي، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد - ط الأولى ١٤٢٨ هـ .
- ٢٩- تاريخ الأمم والملوك، أبو جعفر محمد بن جعفر بن جرير الطبري المتوفى ٣١٠ هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، روائع التراث العربي بيروت.
- ٣٠- التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة في عهد الرسول ﷺ، الدكتور علي معطي، مؤسسة المعارف بيروت - ط الأولى ١٤١٩ هـ .
- ٣١- تاريخ ابن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون المتوفى ٨٠٨ هـ، دارالكتب

العلمية بيروت - ط الأولى ١٤١٣هـ.

٣٢- تاريخ العرب في الإسلام، جواد علي، منشورات الشريف الرضي، قم ١٤١٤هـ.

٣٣- تاريخ الخلفاء، الحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، المتوفى ٩١١ هـ، المطبعة العلمية بيروت وط أخرى بتحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، منشورات الرضي، قم.

٣٤- تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد و تاريخ المذاهب الفقهية، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.

٣٥- تاريخ العلويين، محمد أمين غالب الطويل، دار الأندلس بيروت.

٣٦- تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، بشير رمضان التليسي و جمال هاشم الذويب، دار المدار الإسلامي بيروت - ط الثانية ٢٠٠٤ م.

٣٧- تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر المتوفى ٢٨٤ هـ، دار صادر بيروت.

٣٨- التبيان في تفسير القرآن، محمد بن الحسن الطوسي المتوفى ٤٦٠ هـ، بتحقيق أحمد حبيب العاملي - ط الإعلام الإسلامي قم ١٤٠٩ و ط مكتبة الأمين النجف.

٣٩- تحفة الأبرار في مناقب الأئمة الأبرار، عماد الدين الطبري القرن السابع الهجري، تعريب عبدالرحيم مبارك، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد - ط الثانية ١٤٢٧ هـ.

٤٠- تحفة الوزراء، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي المتوفى ٤٢٩ هـ، تحقيق حبيب الراوي و ابتسام الصفار، دار الآفاق العربية القاهرة - ط الأولى ١٤٢٠ هـ.

٤١- ترتيب جمهرة اللغة، محمد بن الحسن بن دريد الأزدي المتوفى ٣٢١ هـ، تصحيح و ترتيب عادل البدر، مجمع البحوث الإسلامية مشهد ط الأولى ١٤٢٦ هـ.

- ٤٢- التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جزى الكلبي المتوفى ٧٤١هـ ط دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٢ هـ، و ط منشورات أم القرى القاهرة.
- ٤٣- التنبيه و الإشراف، علي بن الحسين المسعودي المتوفى ٣٤٥ هـ، بتصحيح عبد الله الصاوي، دار الصاوي القاهرة.
- ٤٤- تفسير علي بن إبراهيم القمي، القرن الثالث الهجري، مؤسسة الأعلمي بيروت - ط الأولى ١٤١٢ هـ .
- ٤٥- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ، شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري المتوفى ٦٧١ هـ، نشر دار الكاتب العربي بيروت ودار الغد القاهرة.
- ٤٦- تهذيب الأحكام في شرح المقنعة، الشيخ المفيد، محمد بن الحسن الطوسي ٤٦٠ هـ، تصحيح السيد حسن الخرسان، دار الكتب الإسلامية طهران.
- ٤٧- الجامع الصحيح (سنن الترمذي) أبو عيسى محمد بن عيسى المتوفى ٢٧٩ هـ، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- ٤٨- جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، الشيخ محمد حسن النجفي المتوفى ١٢٦٦ هـ، ط دار إحياء التراث العربي بيروت و ط دار الكتب الإسلامية طهران.
- ٤٩- حلية الأولياء، أبو نعيم أحمد بن عبدالله بن أحمد الإصفهاني المتوفى ٤٣٠ هـ، ط بيروت.
- ٥٠- الخصال، محمد بن علي بن بابويه القمي المتوفى ٣٨١ هـ، نشر جماعة المدرسين في الحوزة العلمية قم.
- ٥١- الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية، الدكتور فاروق عمر، منشورات مكتبة المثنى بغداد - ط الثانية ١٩٧٧ م.
- ٥٢- دراسات في الحضارة الإسلامية، مجموعة من الكتاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥.
- ٥٣- دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، عبد الجبار ناجي، شركة المطبوعات للنشر بيروت - ط الأولى ٢٠٠١.

- ٥٤- دور أئمة أهل البيت في الحياة السياسيّة، عادل الأديب، دار التعارف للمطبوعات بيروت ١٤٠٨هـ.
- ٥٥- الدولة العبّاسيّة، محاضرات تاريخ الأمم الإسلاميّة، الشيخ محمّد الخصري، دار المعرفة بيروت - ط السابعة ٢٠٠٥م.
- ٥٦- رجال حول أهل البيت، الموسوعة التاريخيّة الميسرة، محمّد فوزي، دار الصفوة بيروت - ط الثالثة ١٩٨١.
- ٥٧- الرضا والمأمون و ولاية العهد و صفحات من التاريخ العبّاسي، حسن الأمين، دار الجديد بيروت - ط الأولى ١٩٩٥م.
- ٥٨- رسالة في الولاية السياسيّة، الدكتور فرح موسى، دار الهادي بيروت - ط الأولى ٢٠٠٠م.
- ٥٩- الرسول المصطفى و مقولة الرأي، باسم الحلّي، موسوعة الرسول المصطفى مشهد.
- ٦٠- سفينة البحار و مدينة الحكم و الآثار، عبّاس القميّ المتوفّى ١٣٥٩هـ، تحقيق مجمع البحوث الإسلاميّة مشهد - ط الأولى.
- ٦١- السيف و السياسة في الإسلام، صالح الورداني، دار القارئ بيروت - ط الثانية ١٤٢٢هـ.
- ٦٢- سيرة الأئمة الاثني عشر، هاشم معروف الحسني، دار القلم بيروت - ط الثالثة ١٩٨١م.
- ٦٣- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن العماد الحنبلي المتوفّى ١٠٨٩هـ، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- ٦٤- شرح الزرقاني محمّد بن عبد الباقي بن يوسف المتوفّى ١١٢٢هـ، علي موطأ مالك، دار المعرفة بيروت - ط الأولى ١٤٠٧هـ.
- ٦٥- شرح نهج البلاغة، عبد الحميد بن محمّد بن أبي الحديد المتوفّى ٦٥٦هـ تحقيق أبو الفضل إبراهيم، نشر مكتبة المرعشي النجفي قم ١٤٠٤هـ.
- ٦٦- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أحمد بن علي القلقشندي المتوفّى ٨٢١هـ، تحقيق الدكتور يوسف علي طويل وآخرين، دار الكتب العلميّة بيروت - ط

الأولى ١٤٠٧هـ .

٦٧- صحيح مسلم بن الحجاج النيسابوري المتوفى ٢٦١ هـ ، دار الفكر و دار إحياء التراث العربي بيروت.

٦٨- صور من حياة الرسول، أمين الدويدار، دار المعارف مصر - ط الرابعة.

٦٩- الطوائف في معرفة مذاهب الطوائف، علي بن موسى بن طاووس المتوفى ٦٦٢ هـ ، بتحقيق السيد مهدي الرجائي، مؤسسة البلاغة بيروت - ط الأولى ١٤١٩هـ .

٧٠- العباسيون في سنوات التأسيس، الدكتور عصام سخيني، المؤسسة العربية للدراسات و النشر بيروت - ط الأولى ١٩٩٨م.

٧١- العراق في العصر الأموي من الناحية السياسية و الإدارية، ثابت إسماعيل الراوي، منشورات مكتبة النهضة بغداد - ط الأولى ١٩٦٥م.

٧٢- العقيدة و السياسة، لؤي صافي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا - ط الثانية ١٩٩٦م.

٧٣- علل الشرائع، محمد بن علي بن بابويه القمي، المكتبة الحيدرية النجف ١٣٨٥هـ .

٧٤- العلاقات العباسية البيزنطية، موفى سالم نوري، وزارة الثقافة بغداد ١٩٩٢م.

٧٥- علم أصول القانون، عبدالله مصطفى - ط بغداد.

٧٦- علم أصول القانون، رياض القيسي، بيت الحكمة بغداد ٢٠٠٢م.

٧٧- عيون أخبار الرضا، محمد بن علي بن بابويه القمي، نشر رضا مشهدي قم.

٧٨- الغارات، إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفي المتوفى ٢٨٣هـ ، بتحقيق جلال الدين المحدث الأرموي، سلسلة انتشارات الآثار الوطنية (أنجمن ملي طهران).

٧٩- الغيبة، محمد بن الحسن الطوسي المتوفى ٤٦٠ هـ ، مكتبة نينوى الحديثة طهران.

- ٨٠- فرحة الغري في تعيين قبر أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب في النجف،
النقيب غياث الدين السيّد عبد الكريم بن طاووس المتوفّى ٦٩٣ هـ، منشورات
الرضي قم.
- ٨١- فلاح السائل، عليّ بن موسى بن طاووس المتوفّى ٦٦٤ هـ. - ط المكتب
الإسلامي قم.
- ٨٢- الفهرست، محمّد بن إسحاق بن محمّد بن النديم الوراق المتوفّى ٤٣٨
هـ، تحقيق رضا تجدد طهران، وط دار المعرفة بيروت.
- ٨٣- الفضائل، شاذان بن جبرئيل القميّ المتوفّى ٥٠٢ هـ - ط قم.
- ٨٤- قبيلة قريش و أثرها في الحياة العربيّة قبل الإسلام، الدكتور خضير
عبّاس الجميلي، منشورات المجمع العلمي العراقي بغداد.
- ٨٥- قريش من القبيلة إلى الدولة المركزيّة، خليل عبد الكريم، سينا للنشر
القاهرة - ط الأولى ١٩٩٣م.
- ٨٦- الكامل في التاريخ، أبو عليّ بن أبي الكرم محمّد بن عبد الكريم،
المعروف بابن الأثير الجزري، المتوفّى ٦٣٠ هـ، تصحيح محمّد يوسف الدقّاق،
منشورات محمّد عليّ بيضون، دار الكتب العلميّة بيروت - ط الثالثة ١٩٩٨م.
- ٨٧- كشف الغمّة في معرفة الأنمّة، أبو الحسن عليّ بن عيسى بن أبي الفتح
الإربليّ المتوفّى ٦٩٣ هـ، نشر مكتبة بني هاشمي تبريز ١٣٨١ هـ.
- ٨٨- كفاية الأثر في النصّ على الأنمّة الاثني عشر، أبو القاسم عليّ بن محمّد
ابن عليّ الخزّار، القرن الرابع الهجري، انتشارات بيدار قم.
- ٨٩- الكنى و الألقاب، عبّاس القميّ، المطبعة الحيدريّة النجف - ط الأولى
١٣٧٦ هـ.
- ٩٠- لسان العرب، جمال الدين محمّد بن مكرم ابن منظور الأفريقيّ المتوفّى
٧١١ هـ، دار الفكر بيروت .
- ٩١- مجمع الزوائد و منبع الفوائد، نور الدين عليّ بن أبي بكر الهيثمي المتوفّى
٨٠٧ هـ، نشر دار الكتاب بيروت - ط الثانية ١٩٦٧م.
- ٩٢- ما منّا إلا مقتول أو مسموم، جعفر البيّاتي، نشر كوثر كوير ١٤٢٤ هـ ، ط

الأولى.

٩٣- المعارضة السياسيّة في تجربة أمير المؤمنين عليه السلام، عبد الزهراء عثمان محمّد، دار الهادي بيروت - ط الأولى ١٤٢٤هـ.

٩٤- المحاسن و المساوىء، إبراهيم بن محمّد البيهقي من أعلام القرن الرابع الهجري، دار بيروت ١٤٠٤ هـ.

٩٥- مآثر الإنافة في معالم الخلافة، أحمد بن عبد الله القلقشندي المتوفى ٨٤١ هـ، بتحقيق عبد الستار أحمد فرّاج، وزارة الإعلام الكويت و ط عالم الكتب بيروت.

٩٦- مجمع البحرين و مطلع النّيرين، فخر الدين الطريحي المتوفى ١٠٨٥هـ، تحقيق السيّد أحمد الحسيني، المكتبة الرضوية طهران.

٩٧- المغني، موفّق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة، المتوفى ٦٢٠هـ، دار الفكر بيروت ١٤٠٤هـ، ط الأولى.

٩٨- مثير الأحزان في أحوال الاثني عشر أئمّاء الرحمن، الشيخ شريف الجواهري المتوفى ١٣١٤ هـ، منشورات الرضي قم - ط الثانية ١٣٦٢هـ.ش.

٩٩- معالم الحكومة الإسلاميّة، جعفر سبحاني، مكتبة أمير المؤمنين إصفهان.

١٠٠- معجم رجال الحديث، السيّد أبو القاسم الخوئي، مطبعة الآداب النجف ١٣٩٨هـ.

١٠١- مقاتل الطالبين، أبو الفرج عليّ بن الحسين بن محمّد الإصفهاني المتوفى ٣٥٦هـ، بتحقيق أحمد صقر - ط دار المعرفة بيروت.

١٠٢- المقنعة، الشيخ المفيد، نشر جماعة المدرّسين للحوزة العلميّة بقم.

١٠٣- موسوعة التاريخ الإسلامي، مجموعة من الكتاب، دار أسامة للنشر و التوزيع عمّان الأردن - ط الأولى ٢٠٠٦ م.

١٠٤- موسوعة الحضارة العربيّة، الدكتور قصي الحسين، دار مكتبة الهلال و دار البحار بيروت - ط الأولى ٢٠٠٥ م.

١٠٥- موسوعة علماء الكيمياء، مورييس شربل، دار الكتب العلميّة بيروت.

١٠٦- المعارف، عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى ٢٧٦ هـ، تحقيق ثروت

- عكاشة - ط وزارة الثقافة و الإرشاد القومي القاهرة، أفسيت منشورات الرضي قم.
- ١٠٧- مسند أحمد بن حنبل المتوفى ٢٤١ هـ، دار صادر بيروت.
- ١٠٨- مفاتيح العلوم الإنسانية، الدكتور خليل أحمد خليل، دار الطليعة بيروت ١٩٨٩م.
- ١٠٩- مروج الذهب و معادن الجوهر، علي بن الحسين المسعودي المتوفى ٣٤٦ هـ، منشورات دار الهجرة قم - ط الثانية ١٤٠٤ هـ.
- ١١٠- من لا يحضره الفقيه، الصدوق، دار الكتب الإسلامية طهران.
- ١١١- المقالات و الفرق، سعد بن عبد الله الأشعري القمي المتوفى ٢٩٩ أو ٣٠١ هـ، تحقيق الدكتور محمد جواد مشكور، مجموعة ميراث إيران و إسلام وزارة الثقافة إيران - ط الثانية ١٣٦٠ هـ.ش.
- ١١٢- مناقب آل ابي طالب، محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني المتوفى ٥٨٨ هـ، ط المطبعة العلمية قم.
- ١١٣- معاني الأخبار، الصدوق - ط جماعة المدرسين قم.
- ١١٤- مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، المتوفى ٥٤٨ هـ، منشورات مكتبة المرعشي النجفي قم ١٤٠٣ هـ، افسيت مطبعة العرفان صيدا.
- ١١٥- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري المتوفى ٤٠٥ هـ، ط دار المعرفة بيروت.
- ١١٦- الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، دار الكتب الإسلامية طهران.
- ١١٧- نظام الإسلام السياسي، باقر شريف القرشي، دار التعارف بيروت - ط الثانية ١٩٧٨م.
- ١١٨- نظام الإسلام، الحكم و الدولة، محمد المبارك، منظمة الإعلام الإسلامي طهران ١٤٠٤ هـ.
- ١١٩- نهج البلاغة، جمعه الشريف الرضي من خطب و أقوال علي عليه السلام، بتصحيح و شرح صبحي الصالح، منشورات دار الهجرة قم.

١٢٠- نظرية عدالة الصحابة و المرجعية السياسية في الإسلام، المحامي أحمد حسين يعقوب، شركة شمس المشرق للخدمات الثقافية بيروت - ط الأولى ١٤١٣ هـ .

١٢١- واقع التقيّة عند المذاهب و الفرق الإسلامية من غير الشيعة الإماميّة، ثامر هاشم حبيب العميدي، مركز الغدير للدراسات الإسلامية - ط الأولى ١٤١٦ هـ .
١٢٢- ولاية العهد للإمام الرضا، حسن طاهر الياسري، دار المرتضى بيروت ١٤٢٥ هـ .

١٢٣- وصايا الخلفاء و الأمراء السياسية و الإدارية في العصر العباسي الأول، الدكتور محمد جاسم الحديثي، منشورات المجمع العلمي العراقي بغداد ٢٠٠٢ م.
١٢٤- وقعة صفّين، نصر بن مزاحم المنقري المتوفى ٢١٢ هـ تحقيق عبدالسلام محمد هارون المؤسسة العربية الحديثة القاهرة - ط الثانية ١٣٨٢ هـ، أفسيت مكتبة المرعشي النجفي قم ١٤٠٣ هـ .

١٢٥- الوزراء و الكتاب، أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، المتوفى ٣٣١ هـ، تحقيق مصطفى السقا و إبراهيم الأبياري و عبد الحفيظ شلبي، مطبعة البابي الحلبي القاهرة - ط الأولى ١٣٥٧ هـ .

١٢٦- ينابيع المودة، الحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي المتوفى ١٢٩٤ هـ، نشر دار الكتب العراقية، محمد اعتماد كتبي بغداد ١٩٦٦ م - ط الثامنة.

الفهرس

٣	المقدمة
٢١	فلسفة الحكم و الدولة
٢٦	الإمامة و الحكم و القيادة
٣١	مراتب الإمامة و الإمام
٣٩	الإمامة و أصول الدين
٤٦	المواجهات و التحديّات للأئمة
٥٢	المعركة الثقافية و حرب النصوص
٦٠	المواجهة القرشنة لعلّي عليه السلام
٦٧	الإسلام الأموي
٧١	السلطة الأموية و الحسن عليه السلام
٧٤	مواجهة السلطة الأموية مع الحسين عليه السلام
٧٨	ثورة الحسين بن علي عليه السلام
٨٥	عهد السجاد عليه السلام
٨٩	عهد الباقر عليه السلام
٩٢	عهد الصادق عليه السلام
١٠٢	عهد الكاظم عليه السلام
١١٦	السياسة العباسية مع العلويين
١٢١	عصر الرضا عليه السلام

١٢٧.....	الرضا عليه السلام من الولادة إلى الإمامة.....
١٣٠.....	النصّ على الرضا عليه السلام.....
١٣٤.....	العمل مع السلاطين و الحكّام.....
١٤٠.....	المأمون و محنة الرضا عليه السلام بولاية العهد.....
١٥٠.....	الوزارة في العصر العبّاسي.....
١٥٢.....	وزارة الفضل و دورها في رسم الأحداث.....
١٥٧.....	علل و أسباب عداء الفضل للرضا عليه السلام.....
١٦٠.....	مؤامرة البيعة و ولاية العهد.....
١٧٠.....	إخلاص الرضا عليه السلام و مؤامرات رجال السلطة.....
١٨٦.....	ولاية العهد والفتن في البيت العبّاسي.....
١٩٣.....	الغدر العبّاسي الموروث.....
٢٠٣.....	حنكة المأمون.....
٢٠٧.....	ولاية العهد و البيعة في نظر المؤرّخين.....
٢١٤.....	صورة العهد الذي كتبه المأمون للرضا عليه السلام.....
٢١٨.....	صورة ما كان على ظهر العهد بخطّ الرضا عليه السلام.....
٢٢٠.....	توقيع الرضا عليه السلام و صورة الشهادة على العهد.....
٢٢٢.....	كتاب الحباء و الشرط من الرضا عليه السلام إلى العمّال في شأن الفضل.....
٢٢٦.....	صورة نسخة الكتاب.....
٢٢٩.....	توقيع الرضا عليه السلام.....
٢٢٩.....	بنو العبّاس كما وصفوا أنفسهم.....
٢٣١.....	صورة نصّ الكتاب.....
٢٣٩.....	العبّاسيون و التشييع.....
٢٥٠.....	لماذا قتلوا الرضا عليه السلام.....
٢٥٦.....	مصادر و مراجع الكتاب.....
٢٦٧.....	الفهرس.....

al-Imām al-Rizā (A.S.)

Bayn Nuṣuṣ al-Risāla

wa Sultat al-Ra'y wa al-Qabīla

يحظى هذا الكتاب بأهمية فائقة نظراً
لارتباطه بحقبة مهمة من تاريخ الدولة
العباسية ، ولكون الإمام الرضا عليه السلام قد
عايش تلك الفترة و كان له تأثير كبير في
سياق هذه الأحداث وبصفته الإمام
المعصوم كانت كل خطوة من خطواته
مشمولة بالعناية الإلهية .

